

من معالم الفكر التربوي

عند الشيخ أحمد بن حمد الخليلي



الجزء الثاني

التربية الروحية

عشرون وسيلة للتربية الروحية

تأليف

د. زايد بن سليمان بن عبد الله الجحفي

من معالم الفكر التربوي

عند الشيخ أحمد بن حمد الخليلي

المفتي العام للسلطنة

الجزء الثاني

التربية الروحية

تأليف

نرايد بن سليمان بن عبد الله الجهضمي

الطبعة الأولى

مسقط

٢٠٠٨م / ١٤٢٩هـ

" ما دامت اللحظات تقرب الإنسان إلى لقاء الله فعليه أن يكون في كل لحظة من هذه اللحظات أكثر محاسبة للنفس وأكثر صلة بالله وأقرب إلى الله سبحانه وتعالى بتصفية سيرته وإخلاص عمله وتقويم سيرته "

للشيخ أحمد الخليلي المحاضرة (الإيمان باليوم الآخر)



" إنَّ الإنسان مطالب

أن يزكي نفسه ولا ينسيها، لأنَّ

صلاحه منوط بتزكيتها، بينما تنسيتها

سبب الخيبة التي تكون في الدنيا

وتكون في الآخرة "

الشيخ أحمد القليلي

المقدمة

الحمد لله الذي أكرم الإنسان بالطاقات الروحية، وجعل الروح من بعض أسرار الخفية؛ ليكون دليلاً على عظمة الذات العلية، وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على خير البرية، ومنقذ البشرية، أظهر العالمين قلباً، وأزكاهم نفساً، وأسماهم روحاً، وأشدهم خشيةً، وأصفاهم طويةً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأطهار، والأئمة الأبرار، ما توالى بكرة وعشية.

أما بعد:

فلا ريب أن تركيبة خلق الإنسان بهذه الصورة العجيبة، تجعل كل ذي بصيرة لا يملك إلا أن يخر ساجداً للذي الجلال والإكرام، ذلك لما أودع الله فيه من الطاقات التي هي من آيات الله تعالى الشاهدة على أنه الحق، تلك الآيات التي لم يستطع البشر اكتناه الكثير منها في أي عصر من العصور، كما أشار إلى ذلك سماحته في تفسيره، بقوله: " لقد هيا الله سبحانه وتعالى الإنسان ليكون خليفة في الأرض، وأودع فيه من الطاقات الحسية والمعنوية ما لم يودعه في أي كائن آخر يعيش على ظهر هذه الأرض، وقد خلق الله له الأرض ومنافعها، ومكّنه من استخراج هذه المنافع، كما أن الله سبحانه وتعالى سخر له ما في الكون جميعاً، وقد قال عز من قائل امتناناً على الناس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾^(١) والطاقات البشرية المودعة في طبيعة الإنسان لا يمكن للعلم البشري ولو اتصلت حلقاته، وسار في نمو متزايد منذ وجد الإنسان على ظهر هذه الأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أن يحيط هذا العلم بما في الإنسان من طاقات مختلفة، والله سبحانه وتعالى ينشر في كل عصر من العصور من العلم بالطاقات الإنسانية، ويطوي ما يشاء، وقد يكشف في عصر من العصور ما يريد كشفه للناس، حتى يستخدموا هذا العلم في مصالحهم ومنافعهم،

(١) سورة الجاثية، الآية ١٣

وليكون حجة لهم أو عليهم، ويطوي ذلك في عصور أخرى، ويكشف لهم جوانب أخرى من هذه الطاقات... إن في الإنسان طاقات روحية يمكنه أن يتخذها وسيلة في تسخير منافع الكون التي سخرها الله سبحانه وتعالى له، كما يمكنه أن يسخر كثيراً من منافع الكون بالطاقات المادية الموجودة في ذاته، والموجودة في الكون، وهذه الطاقات الروحية قد كشفها الله سبحانه وتعالى للناس في عصور غابرة، وقد وصلوا إلى ما لم يصل إليه الإنسان اليوم الذي يعايش التكنولوجيا الحديثة، والذي يباهي ويفاخر بأنه قطع شوطاً بعيداً وفاق الأولين في استخدام الطاقات الكونية المادية، وهذه الطاقات الروحية تشهد آثارها ويعترف بها حتى الملاحدة الذين لا يؤمنون بها وراء المحسوس، والعلم الحديث وقف عاجزاً عن تفسيرها وإن اعترف بها وبآثارها، ومن أمثلة ذلك ما يسمى في العلم الحديث (التليداد) وهو في حقيقته علم المكاشفة، مثل الذي وقع للخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما كان على منبر رسول الله ﷺ يخاطب الناس الجمعة فألقى الله سبحانه وتعالى في روعه أن جيش المسلمين الذي كان في أقصى أرض فارس مهدد من قبل الفرس إذا لم يلجأ إلى الجبل، وكان على رأس جيش المسلمين الذي كان مهدداً سارية بن زينم - رضي الله عنه - فإذا بعمر - رضي الله عنه - يقطع خطبة الجمعة ويقول : يا سارية الجبل الجبل ، وبهت الناس عندما سمعوا هذا الصوت من عمر - رضي الله عنه - فسألوه عندما فرغ من خطبته وصلاته ، فأخبرهم بما ألقى في روعه، وعندما جاءت رسل الجيش الإسلامي إلى المدينة المنورة أخبروا أنهم في نفس الوقت سمعوا صوت عمر - رضي الله عنه - واتجه قائد الجيش الإسلامي إلى ناحية الجبل، ونجا من مؤامرة أعداء الله سبحانه وتعالى التي بيتوها له، ... ولا ريب أن الله سبحانه وتعالى أودع في طاقة الإنسان من الخاصة بما يمكنه من اكتشاف هذه لأشياء من

الغيبات عندما يشاء الله سبحانه وتعالى ، ومثل ذلك لا يزال يتكرر عند الناس حتى في هذا الوقت"^(١)

ويشير ألكسس كاريل إلى مثل هذه الإمكانيات والطاقات الهائلة في جسم الإنسان قائلاً: " فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة وواقع الأمر أن جهلنا مطبق... لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية، مازالت غير معروفة"^(٢)

من هذا المنطلق أولى ساحة الشيخ العلامة بدر الدين الخليلي جانباً من اهتمامه بتفجير شي من هذه الطاقات الروحية الإنسانية في كفاحه التربوي، وأرشد الناس إلى العناية بها ابتغاء مرضاة الله عز وجل والدار الآخرة، وهو - حفظه الله - إمام روحي أدرك ببصيرته النافذة الكثير من أبعاد هذا الجانب، وقد تفيأ ظلاله، وجنى اليانع الطيب من ثماره، فكان هذا الجانب عنصراً أساسياً في نظريته التربوية في صياغة هذا الجيل بعيداً عن رواسب الجاهلية القديمة، وأحوال الجاهلية الحديثة، فمن خلال اطلاعي المتواضع على عطاءه الفكري والتربوي المكتوب والمسموع لأذكر حقيقة هي كالشمس في رابعة النهار، بأن سباحته يملك طاقة فكرية، ونظراً ثاقباً بعيداً سديداً، يجعل الدارس يوقن تماماً أن ذلك لا يكون إلا بتسديد رباني ، ويمدد روحاني من ذي الجلال والإكرام، بعد أن ولي سباحته إلى الله وجهته، وأخلص له نيته، وطهر ابتغاء وجهه علانيته وسريته، فكان الله سمعه وبصره ولسانه، وعقله وقلبه وجنانه، والله يهب ما يشاء لمن يشاء، لا يسأل عما يفعل، وهو على كل شيء قدير.

وإن كان سباحته - حفظه الله - قد ترك لهذا الجيل في آثاره ما لو عكفوا عليه لاستطاعوا الانتفاع بما أودعه فيه، ولكن أين هم عن محاورته الحوار العلمي

(١) تفسير قوله تعالى " وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت"، الشيخ الخليلي، رقم ١/١٠٢ / ج ٢

(٢) الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كاريل، تعريب شفيق أسعد، ص ١٧

الرصين، واستغلال العلم الذي آتاه الله تعالى إياه، قبل أن يحكم القدر - أطل الله في عمره - بما لا سبيل لهم على رده، فالعمر بحكم الله تعالى محدود، والوقت للأسف إن مضى لا يعود.

لقد جاءت هذه السطور بمثابة الضوء اللافت إلى بحر زخار بالهبات، ودعوة ضمنية إلى سبر أغواره، واستخراج كنوزه، فقد كفى ما كان، وما هي إلا حيلة العاجز المعترف بعجزه، المقصر المقر بتقصيره، لعلها وعساها أن تفصح عن سير مما يختلج في نفس كاتبها، ويعتمل في خفاياه، وقد نهجت فيها المنهج الوصفي ولم أعمد إلى التحليل البتة، عملاً بنصيحة أحد إخواني بذلك، إذ الناس متعطشون للتقاط ما ينثره سباحته من درر ألفاظه، وثمان توجيهاته، فأريت أن لا أكدر بكلامي صفوها، ولا أشوه به جمالها، ولا أمسخ به رونقها، ولا يفوتني أن أشير إلى أن أغلب المادة العلمية جمعتها منذ سنوات، لم أجد لها وقتاً لمراجعتها إلى أن يسر الله لي هذه الآونة إخراجها، وقد اطلعت في إحدى زياراتي لساحته - حفظه الله - في مكتبه على سفر عظيم أعده سباحته في العقيدة وهو كتاب "برهان الحق في تأصيل العقيدة الإسلامية" (١) فاستأذنت سباحته في تقليب صفحاته، فأذن لي فشدني الموضوع، وأسلوب الطرح الجديد، والمنهجية الرائعة في التأليف، في ثوب قشيب من عبارات سباحته الأدبية الأخاذة، فعدت إليه مرة أخرى أهز أغصان كرمه للاطلاع على الكتاب، فكان كعادته فضلاً وكرماً، فقد أعارني إياه أياماً، فإذا به كتاب رائع يثري موضوع الحياة الروحية بشكل كبير، حينها تميت أن يكون قد صدر قبل تسطيري هذا الكتاب، فقد عرج فيه سباحته على الاكتشافات العلمية المذهلة والدالة على قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته، والآيات الدالة على وجوده، ووحدانيته، والدافعة إلى الإيثار به

(١) أخبرني سباحته أنه أتم تأليف ثلاثة أجزاء من هذا الكتاب، وسألته عن عدد الأجزاء المتوقع أن يصدر ما هذا السفر، فقال: أحد عشر جزءاً، وهذه بشارة للأمة الإسلامية وعسى أن يكون فتحاً مبيناً قريباً.

إيماناً جازماً راسخاً، وينقل الكثير من شهادات العلماء الغربيين، يقول سماحته في مقدمة الكتاب: " وأرجو بهذا أن أكون قد شاركت في كشف كثير من اللبس الذي يباعد الأفهام عن إدراك الحقيقة، وأديت ما ينبني في ردم هذه الهوة التي تفصل أمة القرآن بعضها عن بعض، فدونك - أيها الطالب للحقيقة الساعي إلى الحق - سفيراً تطالعك الحقيقة من شرفاته بوجهها المشرق، وثرغها البسام، وجمالها الآخذ بمجامع الأبواب، وهي تختال في حلق من صدق عبارات تنجذب إليها الأذهان، وحليّ من دلائل ترنو إليها أبصار البصائر، فتجلو عنها غبش الأوهام. وإني لأرجو أن يجد في هذا السفر كل باحث عن الحقيقة ضالته المنشودة، سواء في ذلك المسلم وغيره ... " ولقد اقبست منه القليل، وخلفت ورائي الكم العظيم.

لقد جعلت كتاب " المعالم " هذا يتناول الجانب الروحي من جوانب النفس الإنسانية، سائلاً المولى الكريم أن يسر لي في الأجزاء القادمة الكتابة في الجانبين السلوكي والفكري، حيث لا مناص لي هناك من التحليل والوقوف على بعض المعالم ووقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه.

وختاماً لا يسعني إلا أن أتقدم بنجزيل شكري، وعظيم عرفاني إلى أولئك الذين كانوا من حولي مآزرين ، ومساندين بكل إمكاناتهم، من إيقاد عزمي على مواصلة السير، أو تزويدي ببعض الصور المنتشرة في الكتاب، أو ساهموا في الطباعة والإخراج والمراجعة، وأخص بالذكر الشيخ سيف بن سليمان الخليلي، والأخ سيف الخروصي - جزاهما الله عني خير الجزاء - والله تعالى الهادي والموفق إلى سواء السبيل.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

زايد بن سليمان الجهضمي

٤ / صفر / ١٤٢٩ هـ الذي يوافق ١٢ / ٢ / ٢٠٠٨ م

التمهيد

المبحث الأول : الشيخ الخليلي روحانيا

سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي روحاني هذا الزمان ، تجسدت في شخصه وسماته آيات الرحمن، أعتقد يقينا أن أقلام البلغاء، وألسنة الخطباء، وأساليب الأدباء، ينحسر مدها حين تروم تسطير مآثره، ولكم كانت تشدني في نفسه روائع المعاني ومعالي الأمور ، وتدفعني في نفسي كوابح التواني وسلاسل القصور، ولكنني قذفت بما يتابني من خوالج العجز عن المضي في بحر الجي، وتشبثت بما يفحني به من نفحات روحانية، وعزمات ربانية، وأصررت على التحليق ولو على ارتفاع منخفض في سماء روحانيته، مستعينا بما يضي سبيلي من أنوار قلبه، وشفافية روحه، ولذا سأقطر هذه السطور على الإفصاح عن الشيخ الخليلي روحانيا.

تجدر الإشارة إلى أن أهم صفات الروح الخفاء ، وأمرها يعود إلى الله سبحانه وتعالى ولذلك سمى الله عز وجل جبريل روحا ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾^(١) وعليه فإن حياة سماحته الروحية بالغة الخفاء تتطلب يقظة من يصاحبه الذهنية لاقتناص بعض الشواهد الإيمانية التي ينفخ عبرها ويفوح شذاها في محيطه، إذ هو حفظه الله شديد التكتم، عظيم الحرص على ألا تطلع حشاياه على تراتيل قلبه، ولا تعلم شماله بتساويح يمينه، ولا تسمع أذناه أذكار لسانه، حياء من ذي الملك والملكوت، والفضل والرحموت، وخوفا من ذي العزة والجبروت أن يرد إليه عمله لشي من قوادح الإخلاص الخفية فيه، فها هو في مقدمة محاضراته عن الإخلاص يقول: " إنني وجلال الله لأجدني أقلكم أهلية في الحديث عن هذا الموضوع"^(٢)

إنك لتراه يتضائل ويتضاءل أمام نفسه مع ما آتاه الله من الملكات، وما حباه به من القدرات، ولعمري إنها لسمة من سمات المؤمنين، لا يستطيعها

(١) سورة الشعراء، الآية ١٩٣

(٢) محاضرة الإخلاص، الشيخ الخليلي، ٢١/ ١

إلا من رضي الله عنه وارتضاه، في زمن تجدد فيه الكثرة الكاثرة ممن يتوشحون بألقاب العلم وحقهم أن يكونوا في أبجد، يحرص هؤلاء أن يقدموا ألقابهم أمام أسائهم، وتراهم يقدمون أنفسهم ويرفعونها فوق غيرهم من ذوي العلم والفضل، متخدين بما توحيه إليهم تلك الألقاب من زخارف الأوهام الباطلة، وغرور الخيالات العاطلة، ولربما أمعن بعضهم في ضلال السبيل حين يستبد به الغضب إن نودي بغير لقبه، لأنه حينذاك لم يُنزل المنزلة التي تسنم أعلى أعاليتها، وقد صور له خياله أنه من أهلها وذويها. ذلك مما يجعل أمر الكتابة عن سباحته روحانياً أمراً عسيراً عليّ كل العسر، فهذه الروحانية التي أقرأ وأسمع عن نفحاتها ما ذقت طعمها، وإن شملت شذاها مما يفوح من أردان سباحته وأمثاله من الروحانيين، فإن ذلك لا يوهلني بحال أن أكتب ما ينبغي أن يكتب، إذ الأولى بذلك من أتوا نصيباً منها، وقد مكنتهم الله تعالى من ناصية البلاغة، وملكتهم زمام الفصاحة والتفنن في أساليب القول، ومع ذلك فهم قد صحبوا الشيخ ورافقوه، ولئن رقت سطوراً قليلة عن سباحته في هذا المضمار فلا يعني ذلك أي أترجم لهذا العالم الرباني، لا أبداً، أنا لست هنا أكتب تأريخاً روحياً أو ترجمة لشيخ الزهاد والناسكين، ولست هنا أعرف به، أو أفصح عن عظمته وعلو شأنه، أنا لا أزيه على حبيب قلبه ومولاه، والذي أحبه واصطفاه، وأنعم عليه وأولاه، إن محاولتي الكتابة هنا لا تعدو أن تكون تطلع إليه من بعد وهو في علياه، أو إصغاء إليه عن قرب وهو في نجواه، لعلني أن أرسم ظلالاً لتلك الصورة المتلاثلة بنور الإيمان، أتجاوز بها حدود الزمان والمكان، لأوثق الذين لم تسعفهم المقادير، ولم تسعدهم الحظوظ بلقائه في مساجد مسقط أو دروبها، ومواطن طلب العلم فيها، ولم تكتحل أعينهم برؤية الزهد متجسداً في أثوابه بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت عن سجايا رجل نحيل ملاً مسامع الدنيا زهداً ونسكاً وورعاً ووداعة ورحمة. هذا ما سأحاوله في هذه الصفحات طالباً المدد من العلي الأعلى، كي أعيش وإياك - أيها القارئ الكريم - في رحاب

العلامة الروحي أحمد الخليلي لحظات نرفع بها من قدر حياتنا، ونعلي بها من سمو أرواحنا ، ونفتح آفاقاً من صفاء قلوبنا، لحظات مع هذا الرجل التقوي الزكي الأبي، في روحانيته المتألقة التي تفجرت زهداً، وتفجرت الزهد صفاء، والصفاء ذكاء ، والذكاء إباء، والإبء بناء، فأذاب بعلمه في بوتقة زهده ومفاهيم الحياة المعاصرة المتداخلة، فقوم بعلمه معوجها، وغشاها نور من روحه ، وكساها ثوباً قشياً من عظمة خلقه وسلوكه، فغدا منارة الله في أرضه، وهديته إلى خلقه.

إنني حين أخصص الكتابة هنا للجانب الروحي، فلا يعني أبداً أنّ جانباً من جوانب شخصيته سماحته يطغى على الآخر، فهو - حفظه الله - رجل أحرز قصب السبق في جوانب شخصيته كلها، إنه رجل " جميع " كما يقال، فهو في كل لحظة يعيشها يعيش حينها كل الجوانب؛ لأنه أبعد ما يكون عن ازدواج الشخصية.

أحمد الخليلي هو ذلك الرجل التقوي الزكي ، الأواه المخبت المنيب، الذي يهز كيانه، ويذيب فؤاده، ويفتت أكباده، خوفه من ربه ، وخشيته من أليم عذابه.

أحمد الخليلي هو ذلك الرجل العلامة الفقيه، الورع النزيه، والمتحدث الفصيح، المتفنن في أساليب الكلام، المفحم لمن ساوره من مصابيح الأنام.

أحمد الخليلي هو ذلك الرجل الذي لم يخف في حياته أحداً من البشر قط ، ولم تعبر جنانه خلجة من فزع، أو خاطرة رغبة أو ميل إلى حطام زائل أو طمع.

أحمد الخليلي هو ذلك الرجل الذي لا يعرف أنصاف الحلول ، ولا يهادن الزائفين، ولا تنحني هامته لغير الله ذي القوة المتين، ولا يقبل الضيم لحظة مهما قصرت، والضيم أوسع في مفهومه من الخسف والرهق، بل يشمل أن يحال بينه وبين حمل رسالة ربه، وإبلاغ الحق بأعلى صوته، ولذا حين سمع

أحد الناطقين باسمه يخاطب شخصاً ما، قائلاً: إنَّ سباحته يطلب كذا، التفت إليه قائلاً على الفور: " لا تقل يطلب، بل قل يشترط" هكذا رأى من الضيم أن يمرر تلك الكلمة الشاردة دون أن يردها إلى منظومته الإيمانية الفكرية، لتحمل سماتها وملاحمها.

أحمد الخليلي هو ذلك الرجل الذي يتحرك بكلية وفق قناعاته الفكرية، وأساساته الإيمانية، لا وفق هواه، أو إملاءات محيطه.

أحمد الخليلي هو ذلك الرجل الذي تستنكف طبيعته أن تكون تابعة، وتأبى الرضوخ للأوهام والأراجيف، وتستعلي على الأباطيل والخرافات، فمرجيعته حق لا يحوم حولها الباطل، إيمانه الراسخ بالعلي الأعلي يستمد منه التسديد، والإصرار الأكيد على تجلية الحقائق، وفضح الزيف في كل صورته وأشكاله.

أحمد الخليلي هو ذلك الرجل الذي بدأت أزاهير استشرافه لمستقبل أمتة تفتح في العقد الثاني من عمره، وأصبح يؤوده حمل هم إنفاذها مما تتردى فيه، ويؤرق جفنه تواني فلذات أكبادها، لكنه لم يكن ليسالم الأزمات، أو يهادن العضلات، ويخلو بنفسه لذرف الدموع، فما مفاد من شكى ومن بكى، بل امتطى الجدد، وامتشق حسام العزم، في مثابرة لا تعرف الكلل، ولا يدانيها الملل، متحدياً كل بهارج الباطل في أشكاله المستأسدة، إنه يعلن صراحة ليصنع مسامع الدهر " إنني لن أدخر جهداً في الوقوف أمام كل من يسعى إلى إفساد ديننا مادام في جسدي عرق ينبض بالحياة، رضي الناس أم أبوا، لأن مرضاة الله هي غايتي، وسأسخر جميع جهدي في ذلك إن شاء الله".

أحمد الخليلي هو ذلك الرجل اللبيب الأريب، الذكي الأبوي، يتوقد ذكاء وحصافة في الرأي، ألقت إليه الحكمة مقاليدها، وسلمته طارفها وتليدها.

أحمد الخليلي هو ذلك الرجل المرهف في أحاسيسه، الحساس في مشاعره، ظاهره كباطنه، لم يعرف في حياته غلا ولا حسدا، وإن تكالب عليه الحساد، ولا مرَّ بقلبه طيف من الأحقاد، بل يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة، ولا يغضب إلا لربه، وإذا غضب فهو الحليم المغضب.

أحمد الخليلي هذا من اليسير جدا أن تقترب منه كل القرب فتقلب صفحات نفسه الصافية، وتقرأ بامعان كل سطورها، وتفهم دخيلتها، عند ذلك ستجد نفساً عظيمة متكاملة متناسقة، لا تتنازعها الأهواء ولا تتجاذبها النزعات، ولا تميل بها الرغبات، ولا تنقسم على ذاتها، بل هي كل في ذاتها، هي قوة في كل سماتها وصفاتها، رائعة في مظهرها ومخبرها، متزنة في إرادتها ومنهجها، فلا اضطراب ولا تفاوت ولا نشاز، ستجد شخصية فذة قلما تجد لها نظيراً، هنالك سيكون من العسير عليك جدا أن تتعد عنها أو تفارقها، بل ستقع بلا ريب في إسارها، وملك سجاياها، ستدرك حينها بصمات يد القدرة واضحة في جميع جوانبها، وحين تفتح عينيك على واقع مرير يكتنف أمة الإسلام تعلم يقيناً ما ناطته يد القدرة من ثقل المسؤولية على كاهل هذا الرجل النحيل، الذي يعيش العقد السادس من عمره بعنفوان الشباب وهمته المتوقدة، نعم ستدرك يد القدرة الإلهية التي حشدت كل هذه المواهب والملكات والقدرات على هذا النسق الفريد، فهي بذلك لم تترك لأحمد الخليلي خياراً إلا أن يعبر عن هذا التفوق المهيمن، والإمكانات الحافلة، تعبيراً يبلغ بها المدى، ويفصح عن التميز والامتلاء

رجل صقله الإيمان فتواضع لعباد الرحمن

ليس ثمت شي يميز النفوس العظيمة، ويرفع شأنها، ويعلي قدرها مثل التزامها منهج التواضع، ونأيها عن الغرور، دنو في علو، وتواضع في سمو، نعم لئن حاول الغرور أن يحكم حصاره على حصون سباحته فلن يجد ثغرة يستطيع النفاذ منها، والتسلل إلى قلب أحاط به سياج متين من الإيمان

واليقين، والمدد المتدارك من رب العالمين، ولو وجد رجل في عصرنا كان لا بد للغرور أن يقتحم عليه أسواره، ويفتح حصونه، ويدكدك معاقله بسبب من فرط مزاياه، ونبل سجاياه، وعظم ملكاته، لكان سماحة الشيخ أحمد الخليلي، أو لم يصل إلى عمان في حفاوة وتكريم من سلطانها وأولي الأمر فيها؟ وما يزال، ألم تفتح بركة جهوده أزاهير الصحوة الإسلامية في عمان؟ ألم يصبح صاحب القول الفصل بين العلماء؟ ها هو ينظر فيرى التفاف الناس حوله ينزلون عند رغبته، وينتهون عند قوله، ولا يأبهون بفتوى بعد فتواه، مع هذا كله وغيره لم يجد الغرور إلى نفسه سبيلا، ولو بمجرد خلجات نفسانية، ولم يعرف حب الظهور إليه دليلا، ولم بمجرد بارقة وجدانية، إن مثل هذه النفس الربانية، الطاهرة الزكية، العزوفة عن زخارف الحياة لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه لولا ما نشأت عليه منذ نعومة أظفارها، ثم اعتادت عليه من الصلّة الوثيقة بالقوة المطلقة التي لا يعجزها شيء، وقد وصلتها بمدد روحاني لا ينقطع، وقوة رهيبية لا تضعف، ومنحته هدى وبصيرة واقتدارا.

كثيرا ما يردد " أستغفر الله " إذا أثنى على أخلاقه مشن، أو يعقب عليه بقوله " تلك عين الرضا" أو يردف قائلا : " اللهم اجعلني خيرا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون" لأنه يرد كل ذلك إلى رب العالمين، منه المبدأ وإليه الرجعى، إنه يرى نفسه أقل من ذلك بكثير، بل يرى أنّ ما يقدمه لا يستحق أن يذكر أبدا، فعندما أردت كتابة الجزء الأول من معالم الفكر التربوي عند سماحته " جئت لأستأذنه وقدمت إليه مسودة خطة البحث، فأخذ يقرأها ثم قال : " كنت أحسب أنّ لك عقلا راجحاً فما بالك الآن؟! " ثم دفع إلي أوراقي وقال: " أكتب في شيء ينفع الأمة ، أما أنا فلست أهلا لهذا" وعندما كنت أجري لقاءاتي مع سماحته كان يعتذر لي في بداية كل لقاء، ويهضم نفسه، أنا لست أهلا لأن يكتب عني، وأذكر أنه سألني مرة ما الذي دفعك لهذا؟ فمع إجلالي له، وحيائي منه، قلت له : أنت يا سماحة الشيخ، قال : كيف؟ قلت له : يقول الشاعر:

أنت صيرتني لما قد تراه بالذي فيك من صنوف المعاني

وما أكتبه عنكم أرجو أن يكون نبراساً لأبناء هذه الأمة، قال: أنا لم أقدم شيئاً يستحق الذكر" هكذا هو - حفظه الله - لا يرى في كل ما قدمه لربه ويقدمه سوى جهد المقل العاجز المعترف بتقصيره، ويرى كل ذلك نعماً من الله تعالى توجب عليه الشكر اللائق بذي الجلال والإكرام، يقول: " المؤمن يحرص على أن يكون موصولاً بربه سبحانه وتعالى، في كل حال من الأحوال، فعندما يشاهد نعماء ييسط يديه لشكر الله عز وجل الذي أنعم بها ... ثم إنه ولا ريب يعلم أن وراء كل سبب مسبباً، فالله سبحانه وتعالى مسبب الأسباب، وهو الذي يؤذن لهذه الأسباب أن تصل إلى مسيبتها"^(١) وهو يعلم علم اليقين بأن أحداً من البشر لا يستطيع أن يشكر الله سبحانه حق شكره مهما كان ناسكاً عابداً مجاهداً أوهاً منياً، كما يعلم أن شكره لربه هو نعمة أخرى تستوجب شكراً جديداً، يقول سماحته: " إن المؤمن يعلم علم اليقين أن كل سراء مسته، أو منفعة تسرت له، ما هي إلا فيض من نعم الله الواسعة، التي يعجز عن حصرها، وينوء بشكرها، بحيث لو وقف حياته كلها مجهداً نفسه، ومستنفذاً طاقته، من أجل شكر نعمة من هذه النعم، لما وفاها حقها، بل ولا أدنى نسبة مما تستحق"^(٢) وهو يستحضر في كل فينة أن الله تعالى هو الذي اختصه بهذه العطايا الوفيرة، والنعم الكثيرة، والمزايا العظيمة، والسجايا الكريمة، ولو شاء جل في علاه أن يضيفها على أحد من خلقه لفعل، وهذا ما يجعل سماحته يذوب حياءً، ويتقطع في مرضاة ربه؛ ليحقق أكبر قدر ممكن من العرفان والشكران لخالقه ورازقه ومدبر أمره. إنه ليخشى كل الخشية أن يقف بين يدي ربه وقفة الذليل الخاشع، المستكين الخاضع، ليسأله عن كل نعمة أسبغها عليه لم يبذل قصارى جهده في شكرها، فضلاً عما يقص عليه مضجعه ويقلق قلبه أن يسأله ربه " يا أحمد لم فعلت

(١) وحي المنابر، الشيخ الخليلي، ١٥٢/٢

(٢) برهان الحق، الشيخ الخليلي، مخطوط، ص ٣٣

هذا؟" فيحذر كل الحذر أن يسئ إلى أحد لبيارزه يوم الحساب، فيترفق بالناس ويتلطف، راجياً أن يرفق الله به ويلطف في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

الشيخ الخليلي والحياة الدنيا

يقول سماحته: "على الإنسان أن يكون مستبصراً جداً في الحياة الدنيا، آخذاً بحجزة تقوى الله تبارك وتعالى، وأن لا يعبر خضمتها إلا على سفينة من التقوى التي تبلغه القصد، فإنه خضم رهيب متلاطم الأمواج، متعاطم الأعاصير، فالإنسان تتنازع في هذه الحياة الدنيا أمور شتى، فهو واقع بين شهواته المتنوعة، ونزعاته المتعددة، ونزواته المختلفة، وكل منها - والعياذ بالله - يجره إلى الردى إن لم يكن مستبصراً آخذاً من تقوى الله تبارك وتعالى بالعروة الوثقى" (١)

هذا منطوق رجل لو شاء أن يظفر بأوسع القصور وأعلاها، وأفخم المراكب وأسناها، وألذ المطاعم وأشهاها، وأنعم الملابس وأبهاها، والنعيم الواسع في شتى صوره وأشكاله لظفر بذلك كله، ولكنه أثر لنفسه عيشة الكفاف، واختار لها شطف العيش، وإن تعجب من منهجيته متعجب من ، كشف له النقاب بقوله:

وخيمة خوص أو ظليلة راحة
كثير على حيٍّ يموت فيقبر (٢)

لله هذه النفس السامية ، والروح المتألقة، لا ريب إنه يحتمل نفسه مسؤولية القدوة الصالحة لكل زمان ولكل مكان، لا تغيرها الأحوال، ولا تبدلها الصروف، والنصيب الأوفر والسهم المعلى لا يكون في هذه الدنيا الفانية، وإنما هو في دار الخلود، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، نعم إن

(١) وحي المنابر، الشيخ الخليلي ١٥٨/٢

(٢) لقاء الصحفي ولید عوض بالشيخ الخليلي

خضم الحياة المتلاطم لن يعبره إلا على سفينة من التقوى التي تبلغه القصد، كم يؤوده حمل " كيف يلقي ربه غداً " حتى أصبح هذا السؤال هو الشرارة التي تتكهرب بها كل خلاياه وذرات كيانه، بل هو البوصلة التي تتحرك باتجاهها كل أفكاره وأحاسيسه ومشاعره، وسفينة التقوى هي الملاذ والملاجأ والمنجى، فله هو ما أصفاه وأنقاه، وأبره وأنقاه، عزف عن الحياة الدنيا عزوف العارفين لحقيقتها، وطلقها بالثلاث طلاقاً باتاً، لم تستطع بكل ألوانها الزاهية، ومناظرها الخلابه، أن تحظى منه بالتفاتة واحدة، وهي تراقص منه ذات اليمين وذات الشمال، بل كان حداؤه دوماً " دعيني منك يا دنيا دعيني " لقد سكن في بيت صغير مستأجر سنين عديدة وكان فيه غاية في السعادة، لاقتربه في معيشته من حياة العامة على الرغم من منصبه الكبير، وتجدد قد قامت قيامته حين تهدي إليه هدية من ذوي الشأن، لم كل هذا يا شيخ؟ وهؤلاء من هم أقل شأنًا وأهون مكانًا يتقلبون في النعيم، وأنت تحمّل نفسك كل هذا، نعم إنه يخاف أن يكون ممن عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، إنه عمري النزعة والهوى، والتلذذ بالطيبات قد يجر الإنسان شيئاً فشيئاً إلى الترف الذي هو طريق التلف، أنصت إليه يقول: " والترف مؤذن بالتلف، فإن الترف هو الذي يجعل صاحبه يخلد إلى الراحة ولا يبالي أبداً بما يترتب على إشباع نهم نفسه من الشهوات، من المضار التي سوف يتجرع من بعد غصصها ويكابد مشاقها" ^(١)

إنَّ المناصب لا تحمل لديه أي معنى سوى المسؤولية والتكليف، وأصدقاء ذلك السؤال الكبير يتردد في جنبات نفسه حين يقف بين يدي ذي العزة والجبوت، " كيف يلقي ربه غداً؟ " من هذا المنطلق كان رده واضحاً جلياً لذلك الرجل الذي جاء ليبشره ويهنيه بترقيته إلى درجة وكيل وزارة، يومها

(١) كيف تتحقق المقاطعة محاضرة للشيخ الخليلي، سبلة الدين بالشبكة العمانية،

كان في زيارة للمملكة الأردنية، " أجيئت معزياً أم مهنتاً" نعم كان جوابه عجيباً في نظر أولئك الذين يلهثون وراء المناصب، ويتشبثون بها تشبث الغريق بوسيلة النجاة، ويبعون من أجلها الذمم، إنه رجل تتجاوز نظراته الآفاق، وتتعدى حدود ما نراه، لأنه يرى بنور الله، والحظ الوافر عنده ليس المنصب والجاه والتقدمة في الحياة الدنيا، وإنما هو الظفر بمرضاة الله تعالى، والفوز بجنت النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

كنت ذات مرة بمعية الشيخ زياد المعولي المدير العام لمعهد العلوم الشرعية في زيارة لساحته في مكتبه - حفظه الله - (١) وذكر سباحته في أثناء حديثه موقف رجل معروف رفعته الدنيا إلى أعلى مراتبها ثم غدرت به وخانته صروفها، إنها غدارة مكاراة، وكل أرباحها خسارة لإطاعة الله وما والاه، نعم لقد عادت بذلك الرجل القهقري، حتى اضطرت به إلى القول " السجن أحب إليّ مما تدعونني إليه" ثم يعقب سباحته قائلاً: هذه هي الدنيا، وبصوت الشهيق المشحون بالأسى وحرقة الفؤاد يردد " لا إله إلا الله" ويهز رأسه معتبراً، ومتفكراً في كل من يثق بهذه الدار الفانية .

هذه هي الأمواج المتلاطمة، وتلكم هي الأعاصير المتعاطمة، كم لفت في تيارها من عظماء، وكم اجتاحت في مدها من كبراء، ركبوا لجتها مأخوذين بسكونها، مفتونين بمسالتها، حتى قلبت لهم ظهر المجن، فأصبحوا خيراً بعد عين، وما أسرع ذلك وما أدناه، " فما يكاد الإنسان يمر بمناسبة ويغمض عينيه إلا ويفتحها على أختها التي تأتي في السنة الآتية، وهكذا شأن هذه

(١) كان ذلك بتاريخ ٩ / ذو القعدة / ١٤٢٨ هـ - الموافق له ٢٠ / ١١ / ٢٠٠٧ م

الحياة الدنيا" (١) فما هي إلا ظل زائل ، أو "خبال عابر" (٢) لذا كان من الحزم عند سباحته من أول الأمر ألا يدانيها.

الشيخ الخليلي والقرآن

يمكنك أن تتخيل حال طير صُبَّ عليه الماء فانتفض وارتعش، تلك الحالة أشبه ما تكون بحالة الشيخ أحمد الخليلي حين تتلى عليه آيات الله تعالى، ذات مرة قرأ الإمام في صلاة التراويح ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٣) فارتعش سباحته ارتعاشة شديدة، وارتجف بقوة، وكنت على يساره في الصف، فسبحان الله كأنها أنزلت عليه وحده تلك اللحظة، أو كأنه يتلوها لأول مرة، تلك الرجفة تعبر عن خوف ملاء عليه كيانه، امتزاج بين روحه وروح القرآن؛ لتصبح له روح غير تلك التي يحيى بها بين البشر، نعم إنه حين يدخل إلى عوالم الكتاب الكريم فهو مخلوق آخر يختلف تماما عما كان عليه قبل دخوله، وله روح جديدة يهبها له الكتاب العزيز غير تلك الروح، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (٤) بقدرات تلك الروح وإمكاناتها يخلق في عوالم أخرى تختلف تماما عن عالمنا الأرضي، فذات مرة صلى بنا الإمام في جامع السلطان قابوس بروي صلاة الفجر؛ وقرأ فيها سورة القيامة، فعقب سباحته على تلاوته بعد المصافحة بقوله: " ما شاء الله لقد حلقت بنا" نعم لقد حلق وحلق، هكذا يفصح سباحته بالتحليق في عوالم الملكوت متجاوزا في تخليقه جاذبية التراب والطين، وما على ظهرها من زيف وهو وهراء. ومع ذلك الإجلال والاندماج يلتزم حدوده مع كلام ربه، فحين

(١) وحي المنابر، الشيخ الخليلي ١٥٨/٢

(٢) السابق ١٥٧/٢

(٣) سورة الزمر، الآية ٢٣

(٤) سورة الشورى، الآية ٥٢

سأله سائل في مجلسه عن معنى الأب في قوله تعالى ﴿ وَفَكَهَنَ أَبًا ﴾^(١) عادت الذاكرة بساحته إلى خير القرون، وخير الرجال، العلماء الأتقياء إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، إلى أبي بكر الصديق الذي لو وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح، إلى صاحب رسول الله وصهره، ورفيقه في هجرته، وجاره في قبره، الذي يقول ليتني كنت شجرة تعضد، وإلى عمر بن الخطاب الفاروق الذي أعز الله به الإسلام، صاحب رسول الله وصهره، ذلك التقي الأبّي الذي كثيراً ما كان يردد ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتني أبعث يوم القيامة لا عليّ ولا لي، ها هو ساحته يتوقف ولا ينبس بينت شفة، ويصعد نظراته ثم يقول: توقف فيها أبو بكر وعمر، فماذا عسى أحمد الخليلي أن يقول؟ كلا، لا أدري"

ألف العبادة وألفته

كل أفعال المسلم عبادة، خضوعه واستسلامه لأمر مولاه عبادة، رضاه بقضائه وقدره عبادة، تبتله وتضرعه عبادة، كل ذلك وما جرى مجراه انعقدت بينه وبين ساحته الألفة، وأية ألفة، حتى أضحي نضواً طلحاً من العبادة والسهر، هو متصوف من غير تصوف، ألحّ على العبادة في شتى تجلياتها، فما استقل ولا استطول، ولا مل ولا كل، وكيف يمل مصدر أنسه، وريحانة فؤاده، وتوأم روحه، حين يؤم الحرمين للعمرة في رمضان يهجر مضجعه ليخلو بمناجاة خالقه سبحانه، يسري إلى الحرم فلا تراه إلا عموداً في محرابه، يروي ولده سليمان قائلاً: لحقت بأبي في الحرم فوجدته واقفا يصلي فصليت عشرين ركعة، وأبي ما يزال في وقفته لم يتحرك، فتركته على حالته وقلقت راجعاً، لا ريب إنّه مع القرآن، وبينه وبين القرآن عهد وميثاق، تمازج أرواح وتخليق في عوالم الغيب، فما أطيب الرحلة، وما ألدّ التجوال، إنه ينسى نفسه فضلاً أن ينسى العالم من حوله، وأصعب ما يكون عليه أن

(١) سورة عبس، الآية ٣١

يفارق ذلك الأنس العجيب، وأشق ما يكون على نفسه أن ينتهي إلى قوله " السلام عليكم" إنه في رحلة كونية، وانسجام مع تساييح الكون وتراويله، فهناك راحتة وسعادته وفراغ همه، ألم يقل المصطفى ﷺ أرحنا بها يا بلال؟ وألم تخبر عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأنه إذا حضرت ﷺ الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه؟ وها هو سباحته يتحدث عن هذه اللحظات بقوله : قد يكون العبد في إقباله على ربه ، وهو يؤدي عبادة من عباداته قد امتلكتة نشوة الذكر، حتى يكون غارقاً في شهوده، ذاهلاً عن كل شيء حتى عن ملاحظة وجوده، فيعرج عن الملك والملكوت إلى من بيده الملك والملكوت، فلا يلبث أن يكون كأنها يشاهد بأمر عينيه في الحضرة القدسية يد الله تعالى تصرف الوجود إيجاباً وإعداداً وإحياءاً وإماتة، ورفعاً وخفضاً، وبسطاً ومنعاً ، ولطفاً وشدة وتوفيقاً وخذلاناً، فلا يكون منه أمام هذه المشاهد إلا أن تعنو نفسه لقيومها، فيسلم لله تعالى جسمه وروحه وعقله، وقلبه وفكره ووجدانه، وسره وعلنه " (١)،

من هنا استنكر سباحته على أولئك الذين شكوا إليه تطويل الإمام في أصالة التراويح بمسجد السلطان قابوس بروي، وتملكه العجب كيف يعيش هؤلاء؟ لقد عادت إليه صورة المشايخ في زمن الإمام الخليلي وهم يتكثون على عصيهم، وما شكوا طول الصلاة، عجباً لهؤلاء كل العجب! السر يكمن هنا، في اقتفاء مسلك العباد الزهاد، فالحلقات متصلة بأولئك الذين وصفهم أبو حمزة الشاري بقوله: أنضاء عبادة وأطلاح سهر، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم من كثرة السجود ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام"

لا غرابة إذن أن نرى هذا النحول في شخص سباحته، فقد تخرج في مدرسة محمد ﷺ الذي تورمت قدماء من طول القيام، وحمل سيات أبطال

مدرسته من الصحابة الكرام، تلك السبات التي ورثها أصحاب أبي حمزة الشاري، رحمهم الله جميعاً. ولئن كان الناس يصبرون أنفسهم على ركعات معدودات فهناك من يصبر نفسه على فراق الركعات الطوال حين يفارقها حتى يعود إليها، يقتلع الجسد على كره، ويبقى القلب معلقاً هناك، فإذا فرغ من لون عبادي متع قلبه بلون آخر، فلا يزال يرفرف بقلبه وروحه بين تلك الرياض، لله ما أطيبها وما أزرى غيرها، فعادة سباحته في كل رمضان حين يكون في عمان أن يخرج من الصباح إلى المسجد فيبقى هناك حتى صلاة الظهر، ثم يعود لصلاة العصر ويبقى إلى صلاة المغرب، ثم يعود إليه لصلاة القيام، وكان من عادته أن يسافر إلى العمرة بعد مضي خمسة أيام من رمضان ليعود في العشر الأواخر منه، أترأه يمل - حفظه الله - من جني اللطائف الرحمانية؟! أو يكل من اقتباس النفحات النورانية؟ وهو منها وإليها، لقد نابته نائبة من صروف الدهر ذات يوم فأهمته وأقلقتة، فهرع إلى مصدر أنسه، ونبوع راحته، ومخلص همومه، فلما اعتكر الدجى، ونام الخليون، مد يدي الضراعة مستكيناً خاضعاً لمولاه ومصرف الوجود بأسره، اللهم اكفني ما أهمني، ورتل في ضراعتة تلك قوله سبحانه: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(١) ثلاثة آلاف مرة، ويأتيه المدد الإلهي وهو ما يزال مع تراتيله، فتأخذه سنة من النوم يرى فيها نفسه محاطاً بسياج متين مبني من قوله تعالى ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وتنشع الهموم، وتحقق المآرب بما لم يكن في الحسبان، إنه - حفظه الله - ممن يرجون الله وقاراً، ويتضرعون له ليلاً ونهاراً، ويتبتلون له إجلالاً وإكباراً، حتى غدا التسبيح والاستغفار والتبتل غذاء روحه، ومادة تفكيره، يقف دوماً موقف الخشية والحذر والحياء، فلا تفوت عليه الدقائق في الغفلة عن ذكر فاطر الأرض والسماء، صحبتته يوماً إلى عزاء في مدينة السلطان قابوس بعد صلاة العصر، فكانت شفتاه لا تفتران عن الذكر، وحين أسأله يجيب ثم يعود إلى ما كان

عليه، وفي رمضان المنصرم من سنة ١٤٢٨ هـ كنت على يساره ننتظر أذان المغرب، فحدثني قليلا في موضوع كان بيننا، ثم عاد إلى تسايحه واستغفاره، فلا أسمع إلا أصوات الصفير تخرج من شفثيه، وتتضح بعض حروفها حين تخرج مع زفرات فؤاده، وكلما وفد أحد على المائدة حيّاه ورحب به، ثم عاد إلى عادته من الذكر، هذه روافد تغذي روحانيته، إنه يستشعر يد القدرة تنتزعه بأي لحظة فهو في قلق دائم، وحذر مستمر، ورقابة الله لا تنفك، كأنه سيؤخذ هذه اللحظة أو التي بعدها، فماذا قدم لنفسه؟ وماذا كسب؟ كثيراً ما يردد في محاضراته وجلساته " كل عمل ابن آدم محصي عليه " ، " كل كلمة يتفوه بها يجدها في صحيفته يوم القيامة "

هكذا شأن العبادة مع الشيخ أحمد الخليلي. لقد ألفتة العبادة حين ألفتها، ألفتة لكثرة ملازمته ظلالتها، ومصاحبته نفحاتها، لقد ألفتة حقاً وهي سر من الأسرار فسرت في روحه، واستحوذت على وجدانه، وامتزجت بروحه بروحها، فذاب وتلاشى في سلطانها، وانداح في تيارها.

أنوار الحكماء تسبق أقوالهم

كان سباحته ذات مرة في تسجيل برنامج تلفزيوني، وفي طريق خروجه من المبنى يصحبه مرافقه، فتح له باب الخروج فإذا بإحدى الفتيات العاملات أمام سباحته وجها لوجه، اقشعر بدنها، تكهربت كل خلاياها، استولى عليها الارتباك أمام هذا العلامة والشيخ المهيب، كل ما أسعفتها به قواها أن تلقي عليه السلام، وهي تذوب عفة وحياء، وإذا بالسكينة تنسكب في فؤادها، حين تسمع نبرات صوت سباحته الندية يرد عليها السلام، في هدوئه وسمته ووقاره، لم تكن تصدق ما يحدث أبداً، لقد كانت تلك النبرات موجات الطهر تغسل أدران الحياة العالقة بها، فكانت تلك الليلة حاسمة في حياتها، محطة محاسبة للنفس على ما فرطت في جنب الله، ونقطة تحول جذري في فكرها وسلوكها، كم ارتعدت فرائصها أن يقابلها بالزجر والاستنكار، أو

الصلف والاستكبار، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث أبداً، سبحان الله، أبعجزد لقاء خاطف صامت؟ فما الذي حدث يا ترى؟! يقول ابن عطاء الله: "إن أنوار الحكماء تسبق أقوالهم" لا ريب إنها هالة النور التي تجلج شخص ساحتها، يؤرثها تشعشع في قلبه، إنها تجليات المولى جل وعلا في قلوب المخلصين من عباده المقربين، تذكيتها المخافة والتقوى لخالقها وبارئها، فهو رواؤها، وهو منتهى طلبها، وغاية مناهها، قلب ملتاع بمحبة الله، والخوف منه سبحانه، قلب مرتاع بما يتجلى فيه من عجائب القدرة الإلهية، وما يترأى له من روائع الوعد وقوارع الوعيد، فليس في الأمر عجب إذن، فأنوار الحكماء تسبق أقوالهم حقاً، كما أشار ابن عطاء الله -

وإذا ما أذكى ساحتها ذلك النور بطيب المعاملة ودمائة الخلق، ولين القول، ولطف العتاب، وهو يسدي النصح والتوجيه بأسلوب الحوار المعجون بماء الحكمة، المقدم على أطباق رائعة شتى من أفانين القول، وبلاغة الخطاب، حينها تشعر بملامسة دقاته النورانية شغاف قلبك فتطهره، وتعاقد ضفاف الروح فتسمو بها، ولن تذهب بعيداً حتى يغسل عنك جميع ما يمكن أن يتولد من آثار تنسجها الوسوس الشيطانية، فيدعوك على وجبة الغداء، أو يعطرك بطيب يحمله في جيبه، إنه صاحب رسالة، ومبلغ دعوة، ومقيم حجة، وموضح حق، ومرشد إلى سواء الصراط، إنه يريد لكل العالمين أن ينجوا من عذاب الله تعالى الذي لا طاقة لهم به، ذلك العذاب الذي يترأى له أمام ناظره؛ فيذوب مخافة على نفسه، ويخشى على الخلق أجمعين ما يحشاه على نفسه.

هذا ما حدثني به الشيخ خميس العدوي بعد عتاب ساحتها له، ثم تناولا وجبة الغداء معاً، وكذلك الشيخ بدر اليمحمدي بعد أن وجد في نفسه من شدة وقع العتاب عليه، ولكن إصرار ساحتها على أن يتناولا معاً وجبة الغداء وانبساطه معه لم يترك أثراً بعده، بل محبة وإجلالا، ومنذ مدة دعاني ساحتها -

حفظه الله - لزيارته لبعض المفاهيم، فقلت سمعاً وطاعة، وفي أثناء عتابه المر لخط تعاقب ألوان الطيف في وجهي، فتداركني بقوله: "مع هذا كله فأنت في سواد العين" وأخرج من جيبه زجاجة عطر العود فتعطرت، وما تزال أصداء تلك الجملة تتردد في نفسي، فكل إنسان يحمي سواد عينه من كل أذى وقذى، إنها عزيزة غالباً، حقيق بمثل هذه الجملة أن لا تترك أثراً بعدها، فكيف إذا كانت المعاملة بعدها أرقى مما تتوقع، أهي ياترى بلاغة الكلمات؟ وجزالة المفردات، وجودة السبك؟ وورصانة التعبير؟ كلا، فكم من كلمات طنانة رنانة سمعناها، ليست إلا مجرد ضجيج يصم الآذان، ولا يعرف إلى القلب سيلاً، تهريج وهذيان، ينخدع به كل مهرج مبهرج مسكين، لأنه لا يدرك أن للكلمات قلوباً تعانق قلوب البشر، وأرواحاً تمازج أرواحهم، فحين تتجرد من أرواحها تبقى حروفها جثثاً هامدة، لا حراك لها ولا حياة بها، ولذا تنطلق ميتة وتصل هامدة، أما كلمات سماحته فهي دفقة حياة، وقبس نوراني تستمد قوتها من روح صاحبها الصافية، وتقتبس نورها من أنوار قلبه المشعشة، فتجلي غياهب الظلمات بنورها الساطع، وتبعث الحياة في القلوب الغفل الذابلة بحياتها الدافقة بالروحانية التي تستمدتها من محبة الله ومحافته، والاستسلام لأمره، والانقياد لحكمه، واستشعار مراقبته الدائمة سراً وجهرًا، إنها نفحة من نفحات الله التي يسبح في خضمتها - حفظه الله وأبقاه.

وإن كنت أنسى فلن أنسى تلك الموعظة البليغة التي ألقاها علينا سماحته في سنة من السنوات حين كسفت الشمس بين العصرين، فنودي في جامع السلطان قابوس بروي الصلاة جامعة، فصلى بنا سماحته صلاة الكسوف، ثم التفت إلينا وهو جالس، وألقى علينا درساً وعظيماً هزنا به من الأعماق هزاً عنيفاً، وعلى كثرة ما أسمع دروسه فما رأيته واعظاً بليغاً كذلك اليوم، الله تلك الكلمات الروحانية التي صور لنا فيها قدرة الخالق العظيم وتصريفه للكون، وخضوع كل الموجودات لأمره وقهره، ثم تحدث عن الآخرة وانقلاب الناس إليها، وحث الناس على محاسبة أنفسهم حين تمر بهم هذه الآيات، حقاً

لقد جعلني تلك الليلة أستعرض كل شأن من شؤون حياتي، ما حضر وما غبر، وكيف لي بالخلاص؟ لم تكن الكلمات وحدها، وإنما صدق صاحبها قوة تهز الأعماق.

لقد منحته هذه الشفافية المرهفة مكانة مكيئة في قلوب الناس عامة، حتى أضحى الوحيد بين علماء عصره من تهفو له قلوب المحتاجين، والظالمين، تلقي على عتبات صدره الفسيح أثقال همومها، وأحمال أتعابها، وتنفياً لظلال روجه قلوب العارفين والناسكين.

العلم غذاء خشيته والخشية غذاء روجه

يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾^(١) فالعلماء أكثر الناس خشية من الله تعالى ويقول سبحانه: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْسَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾^(٢) ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾^(٣) فالذين يخشون ربهم هم الذين يتفجعون بالآيات والنذر، ويزكون بذلك أنفسهم، وهذا ما حرص عليه سماحته منذ نعومة أظفاره، فقد تربى على خشية الله تعالى في سره وعلا نيته مراقبا خلجات نفسه، ومحاسبا خطرات قلبه، أشد من محاسبة الشريك الشحيح لشريكه، إنه يمهد لنفسه السبيل إلى دار النعيم، ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴾^(٤) فيوم أن كان بزنجبار فتى يافعا كان حريصاً كل الحرص أن يعبد الله تعالى على بصيرة من أمره، ولا يتهجم على

(١) سورة فاطر، الآية ٢٨

(٢) سورة الزمر، الآية ٢٣

(٣) سورة فاطر، الآية ١٨

(٤) سورة الروم، الآية ٤٤

الأمر بغير علم، فما أشكل عليه توقف عنه، ونزّه نفسه عن الحوم حول حماه.

إنَّ عبادة الله على بصيرة ليست حلمًا ورياً يداعب الخيال، ولا هي مطمحا سهل المثال، وإنما هي أمنية تتطلب التشمير عن سواعد الجد والاجتهاد، وحرمان الأعين من لذيذ الرقاد، لذا كان سماحته يسهر الليالي الطوال في القراءة والاطلاع، لم تدغخ طبيعة تنزانيا الخلافة خياله، ولم تستحوذ نسائمها اللطيفة على شغاف قلبه، وما استلذت نفسه أطايب الفواكه والثمار كما كان يستطيب فكره بدائع الآثار في التفاسير والسنن وكتب الفقه والأخبار، لذا كان أبواه كثيراً ما يجذانه منكباً على وجهه في بطون الكتب، قد أنهكه السهر، وأخذ منه النصب مأخذه، إنه لم ييح لنفسه أخذ قسط من الراحة عن طيب نفس إلا وهي ملزوزة إليه لُزاً، مدفوعة إليه بدافع الفطرة الإنسانية، ها هو أبوه بها فطر عليه من الحنان الأبوي يكاد يتفطر قلبه شفقة على فلذة كبده، وشطر حياته، حين يراه على هذا الحال، يواصل كلال الليل بكلال النهار، فيدنو منه بكل شفقة وحنان، ويلين له الخطاب، وكأنه يترجاه، بل يشكو إليه، يا بني لو رفقت بنفسك قليلاً، يا بني ها أنت جفيت لذة المنام، وحرمت نفسك من أطايب الطعام، ندعوك لتناول وجبة الغداء أو العشاء معنا فيطول انتظارنا، وأنت منهمك في هذه الكتب، يا بني، ألا ترفق بنفسك قليلاً؟ فإنَّ لجسمك عليك حقاً، وليست ثمت إجابة لدى الفتى الطموح سوى دمة تحترق في عينيه، ونظرة حزينة تغادر وجه والديه وتغيب في الأفق، ماذا عساه أن يقول؟ إنها شفقة تفتت على صخرة عزمه، وجلمود إرادته.

كان يمشي على الأقدام لحضور حلقة شيخه مدة ساعتين، مستغلاً وقته في استرجاع محفوظاته؟ الحافظ نادر والدافع عزيز، لا ريب إنك تدرك - أيها القارئ الكريم - أن الأمر لم يعد محصوراً بالرغبة في طلب العلم فقط، الأمر

أعمق من ذلك بكثير، إنَّها تصورات أخرى لا يتوقع تفتح أزهريها في مثل هذا السن المبكر، ولكنها الهبات الربانية لمن اصطفاهم الله سبحانه وتعالى من عباده لما يشاء من معالي الأمور، إنَّها مكانة الله في قلبه، وعلمه به جل وعلا، وكأني به يرمق الناس في غمرات أعمالهم وهو يردد " وما قدروا الله حق قدره " كيف يهناً بالرقاد إذن؟ وها هو ينخرط في بكاء مريوم أن توفي الإمام الخليلي، وحين يسأله والده عن حرقة ولوعته وسر بكائه، يا بني ما الذي أشجأك وأبكأك هذه اللوعة؟ فيجيب الفتى يا أبتاه من سيعلمني بعد وفاة الإمام الخليلي؟ إنه ابن اثني عشر ربيعاً فقط ولما يبلغ الحلم بعد. لقد طبع ذلك روحه بشفاافية مرهفة، وأورثه خوفاً من خالقه جل وعلا، ولذا عندما كان يرعى حيواناً لهم في صباه وتعدَّى مرة على مزارع الآخرين لم تبح له نفسه بعدها أن يفلت حبله من يده في رعيه، وكان يشتد نكيره على خاله سليمان بن حمود الذي كان يقطف بعض الثمار من الأشجار العامة بزنجبار، وينصحه بعدم العودة لمثلها تورعاً، ونمت المخافة في قلبه بتعهده الدائم لها بالرعاية والعناية والتنمية حتى أضحى لرهافة روحه سريع التأثر، تستجيش بكاءه أدنى المواقف التي تذكره بيوم الحساب، فكم مرة بكى وبكى لذكر نار جهنم، أو حين يمد يديه إلى السماء ضارعا إلى الله تعالى^(١)، وأذكر مرة أني كنت في العمرة بصحبة مجموعة من الشباب، وفي إحدى المرات كنا قد فرغنا من الطواف حول البيت، وجئنا لنصلي ركعتين خلف المقام، فأسعدنا القدر بوجود ساحتها يصلي هناك، وبعد أن فرغ من صلاته طلب منه أحدنا أن يدعو لنا دعاء جماعياً، فوقف واستقبل البيت العتيق، ورفع يديه إلى السماء مبتدئاً بالشثناء على الله عز وجل وما لبث إلا هنيهة حتى غلبه البكاء.

هذه الطبيعة القويمة المستقيمة التي حبا الله تعالى بها الشيخ أحمد الخليلي جعلت منه رجل صدق، وبرهان حق، وينبوع خير لا ينضب، لا يبتغي من

(١) راجع الجزء الأول من معالم الفكر التربوي عند ساحة الشيخ الخليلي، ط ٢، ١٢١، ١٢٣.

أحد كائناً من كان جزاء ولا شكورا، إنه يخاف من ربه يوماً عبوساً قمطيراً
كل ما يفعله ابتغاء وجه ربه كان تعبيراً عن طبيعته المتميزة، وفطرته الصافية
وروحه الشفافة، ونفسه السامية التواقة التي سخرها لخدمة دينه، ونذره
لنصرته، وكلما قدم شيئاً من ذلك العطاء غمرته السعادة؛ فاستغفر وأناب.

المبحث الثاني مفهوم الشخصية

لقد اختلف علماء التربية وعلماء النفس في تعريف الشخصية، وذلك لتباين زوايا النظر إلى تلك الجوانب المشكلة بمجملها شخصية الإنسان، فمنهم من اهتم بالشكل والمظهر، وهذا ما نلاحظه في حياتنا العامة " فلان ذو شخصية " أو عليه شخصية " أو هو "شخصية " ومنهم من أولى عنايته بجانب السلوك، و على رأس هؤلاء واطسن (watson) زعيم المدرسة السلوكية، وسكنر (Scnar) وماي (May) وشيرمان (Sherman) ، وغيرهم، والشخصية عند هؤلاء يمكن تلخيصها بكلمتين " مجموعة مواقف " فنحن حين ندرس شخصية الشيخ السالمي مثلا، إنما ندرس مجموعة مواقفه في الحياة، وسلوكه المميز له عن الآخرين، ومن علماء النفس من صبَّ اهتمامه على الجانب المعنوي الداخلي . وهو جانب الجوهر، أي ما تحويه الشخصية من الجوانب النفسية والعقلية والغريزية وغيرها ، ومن هؤلاء برنس (Morton Prince) وألبورت (Alport) وماكو (Maco) وغيرهم، ومنهم من نظر إليها من خلال الجانب الاجتماعي ، بمعنى توافق الشخصية مع المجتمع ومتطلبات البيئة، ومدى استعدادها للتكيف مع الظروف المعيشية، ومن هؤلاء ركسرود (Rexrood) وجريفيث (Grifith) ^(١) ولا شك في أن هؤلاء جميعا فيما يبدو لي تجمع نظراتهم بين النواحي الإدراكية، والسلوكية ، والنفسية؛ لأنَّ عملية التوافق مع المجتمع عملية معقدة ^٢ بعض الشيء، لما يتطلبه التكيف من عملية تنظيم دقيقة وتفاعل عميق بين مفرزات الوراثة ومؤثرات البيئة ، وطرق التعلم.

(١) انظر " السلوك وبناء الشخصية " د . إبراهيم محمد السرحني . وعلم النفس التربوي . أحمد زكي صالح.

(٢) علم النفس الإرشادي ، صالح حسن الداھري ، ص ٣٢٢

ولا بأس أن أعرج هنا على بعض تعريفاتهم للشخصية لتكون مدخلا لبيان وجهة نظر سماحة الشيخ الخليلي في إيضاح مفهوم الشخصية، فمن التعريفات:

(١) يعرفها الداهري بأنها "أنماط السلوك التي يقوم بها الإنسان في مواقف الحياة المختلفة"^(١)

(٢) يعرفها ركس رود (Rexrood) ومورتون برنس (Morton Prince) بأنها "مجموعة من الاستعدادات والقدرات والميول والدوافع، وجميع الجوانب البيولوجية، والسمات والميول المكتسبة"^(٢).

(٣) يعرفها عبد الرحمن عيسوي "التنظيم الفريد لاستعدادات الشخص للسلوك في المواقف المختلفة"^(٣).

٤- ويعرفها ألبرت (Alport) بأنها ذلك التنظيم الديناميكي في الفرد المتضمن لتلك الاستعدادات النفسية التي تحدد طريقته الخاصة مع التكيف مع البيئة"^(٤)

٥- ويرى محمد بن يونس أن الشخصية نظام سيكوفسيولوجي - بيئي مفتوح - وهي مزيج مركب من القدرات والطبع والسجايا والسمات الإدارية، والانفعالات، والمكانة الاجتماعية"^(٥)

(١) علم النفس العام . د. خليل ميخائيل معوض ٣٨٨

(٢) علم النفس العام . عبد الرحمن عيسوي ص ١٩٩

(٣) (للشخصية السوية . سيد عبد الحميد مرسي . ص ١١ نقلا عن

Sonality :A Pasyehological Alport .G: Per interpretation New york. Holt

١٩٨٧ p ٤٨

وانظر للتعريف في مدخل إلى علم النفس سهير كامل أحمد ، ص ٤٣

(٥) مبادئ علم النفس ، محمد بن يونس . ص ٢١٦ ، ٢١٨

وهناك تعريفات أخرى عديدة توحي بها يحيط بمفهوم الشخصية من التعقيد، لتبقى آيات الله عز وجل شاخصة في هذا المخلوق العجيب الذي نيطت به الخلافة في هذه الأرض، ليتطامن أمام قدرة الله الواحد الأحد ، الذي خلق فسوى، وقدر فهدى ، ومهما قطع العلماء من مراحل في معرفة مجاهل هذا المخلوق العجيب الذي كرمه الله، فستبقى أمامه مراحل ومداخل لم يستطع اكتناه حقيقتها، ولا سبر أغوارها، ليعلو بذلك عبر الزمن صوت الحق تبارك وتعالى ﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(١)

. وهذا ما يشير إليه الدكتور ألكسس كاريل في كتابه الشهير " الإنسان ذلك المجهول " حين يقول :

" وفي الحق لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء، والفلاسفة والشعراء، وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا.

إننا لا نفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة... فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة وواقع الأمر أن جهلنا مطبق... لأنَّ هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة"^(٢)

أما ساحة الشيخ الخليلي - يحفظه الله - فقد تشربت روحه بمعاني القرآن الكريم، ولذا تبدو الصبغة القرآنية واضحة في تصوره لمعالم الشخصية ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾^(٣)

(١) سورة فصلت، الآية ٥٣

(٢) الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريل ، ، ص١٧

(٣) سورة البقرة، الآية ١٣٨

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ سماحته أشار في أحد دروسه (الحياة البرزخية) إلى دراسات العلماء المتقدمين من الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين في التفريق بين الروح والقلب والنفس، مشيراً أيضاً إلى ما سطره الشيخ ناصر بن أبي نبهان في هذا الموضوع بما يزيد على أربعين صفحة، يقول سماحته: "ومن بسط القول في هذا الشيخ ناصر بن أبي نبهان، فقد تحدث عن الفرق بين الروح والنفس والعقل في نحو أربعين صفحة أو أكثر، ولكن لا أستطيع أن أقول شيئاً؛ لأن هذه الأشياء تحتاج إلى استناد على أدلة" (١) كما يؤكد في جواهر التفسير الفكرة ذاتها وأن النفس لا تختص بالأجسام حين يقول: "والنفس حقيقة الشيء وذاته، ولا تختص بالأجسام" ثم قال بعد ذلك: "أما ما عدا ذلك من المعاني فهو من اصطلاح الحكماء الذي لا داعي إليه في فهم مقاصد القرآن" (٢)

ولم يجذب سماحته الخوض في ذلك لعدم قناعته بالجدوى الحاصلة منه، داعياً إلى أهمية التركيز على تربية النفس بما ينهئها عن المخاطر، ويصل بها إلى بر السلامة. كما يدعو في مواضع أخرى إلى الاهتمام بتكوين الشخصية وإبرازها لتكون مؤثرة في شتى المجالات (٣)

على الرغم من ذلك يمكننا أن نتلمس مفهوم سماحته للشخصية من خلال بعض إشاراتِهِ إلى تكوين الإنسان، يقول سماحته:

(١) للتوسع في معرفة دراسات الفلاسفة لنظر الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين . د. محمد عثمان نجاتي، علم النفس في القرآن الكريم . سعد رياض

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢/ ٢٨٥

(٣) الخطوات العملية لإبراز الشخصية، الشيخ الخليلي، ٣٩٢ / ١

(١) " ومن المعلوم أن تكوين الإنسان تكوين عجيب ، فهو يجمع بين الروح، والجسم ، والعقل، والقلب، والضمير، والغريزة ، ولكل منها طبعه، وخصائصه، وضروراته، ومطالبه " (١)

(٢) " إن هذا الإنسان واقع بين تجاذب وتدافع، لأنَّ الإنسان يتكون من روح وجسد ، ويتكون من عقل وقلب، ويتكون من ضمير وغرائز، ولكل ناحية من هذه النواحي مطالب ، ولكل منها دوافع " (٢)

(٣) " جعل الله سبحانه وتعالى الإنسان في تكوينه الجسدي، وفي تكوينه النفسي - الجانب الروحي ، والجانب العقلي - جعله كائناً متكاملًا ، فجميع أجزائه هي أجزاء متكاملة ، كل جانب منها مكمل للجانب الآخر، بمشيئة الله سبحانه وتعالى " (٣)

يشير النصان الأول والثاني إلى ستة جوانب مكونة للإنسان ، وهي :

الجسم	-	الروح
القلب	-	العقل
الغريزة	-	الضمير

ولكل منها خصائصه، وضروراته، ومطالبه ، ويشير النص الثالث إلى أنَّ هذه الجوانب متكاملة فيما بينها فهي تشكل كلاً واحداً ، كما يشير إلى أن الجسد يشتمل على النفس التي تتمثل في الجانب الروحي، والجانب العقلي ، ولا يعني سباحته بالجانب الروحي التي هي سر من أسرار الله تعالى ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (٤) بل يبدو لي أنه يعني بذلك الجانب المكمل لجانب

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ١ / ١

(٢) الإيمان باليوم الآخر، الشيخ الخليلي ٣٢ / ١ / ج

(٣) آيات الله في الإنسان، الشيخ الخليلي، ٣٩٠ / ١

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

العقل : من القلب، والغرائز، والعواطف التي يكون لها في كثير من الأحيان دور واضح في توجيه السلوك كما أبينه بعد قليل بمشيئة الله، وربما لخصه سماحته في بعض المواضع بمصطلح " القلب " يقول سماحته :

" إن التزكية تعود إلى ما ساءه الله تعالى " القلب " فبقدر ما يكون عليه هذا القلب من السلامة والإنابة إلى الله تعالى تكون سلامة الإنسان، وبقدر ما يكون عليه هذا القلب من التكدر والانحراف يكون الأمر بعكس ذلك، ولذلك جاء في حديث النبي ﷺ " إلا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " (١)

لذلك نجد في كتاب الله سبحانه وتعالى أن الفوز والسلامة والنجاح لمن كان ذا قلب سليم، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿١٠٠﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

ويشر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بنعيم الجنة، ولكن يبين أن هذا النعيم إنما هو لمن كان ذا قلب منيب، فالله تعالى يقول : ﴿ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿١٠٢﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿١٠٣﴾ مِّنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِِ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿١٠٤﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿١٠٥﴾ هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿١٠٦﴾ فالقلب هو أساس السلامة أو الخطر، فبقدر ما يكون هذا القلب صافياً نقياً تكون السلامة بمشيئة الله؛ لأن القلب هو ملاك الإنسان، فالجسد يتفاعل مع القلب ويتأثر به، والجوارح بمثابة الرعايا للقلب، فهي لا تجرد مناصاً عن الاستجابة لأمره، والإذعان له " (١)

(١) صحيح البخاري ٢٨/١، رقم ٥٢

(٢) سورة الشعراء، الآيتان ٨٨، ٨٩

(٣) سورة ق، آية ٣١-٣٢

(٤) تطهير القلوب ٤٨٠ / ١

ويقول أيضا في إحدى خطب الجمعة : " فصلاح القلب هو الذي يؤدي إلى انضباط الإنسان في سلوكه ومعاملاته^(١) فهل يعني سباحته بالقلب الجسم الصنوبري المعروف، أو ما يوحي به من المعاني غير المحسوسة؟ مع أن بعض العلماء يرى من المحتمل أن يكون القلب محلا حقيقياً لتلك الانفعالات والعواطف كما هو الحال في الدماغ، خصوصا أن الله عز وجل جعل القلب محلا للفترة السليمة من الأقدار ، والإجابة إلى الله تعالى ، كما هو محل للرفقة والرحمة والرعب، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿١٠٠﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

وقال : ﴿ مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿١٠٢﴾ ﴾^(٢)

وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾^(٣)

وقال : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾^(٤)

وقال سبحانه : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾^(٥)

ويعبر القرآن أحيانا بالقلب ويريد به العقل، نحو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾^(٦)

وقال : ﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾^(٧)

(١) وحى المنابر ، الشيخ الخليبي، ١ / ١٦٠

(٢) سورة الشعراء، الآية ٨٨ - ٨٩

(٣) سورة ق، الآية ٣٣

(٤) سورة الحديد، الآية ٢٧

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٥١

(٦) سورة آل عمران، الآية ١٥٦

(٧) سورة ق ، الآية ٣٧

(٨) سورة الأعراف، الآية ١٧٩

والذي يبدو لي أن كثيراً من الانفعالات قد تعود إلى إفرازات بعض الغدد، فكم من الأمراض النفسية كالقلق والاكتئاب تعالج أحيانا بتناول بعض الأدوية الحسية كالأقراص مثلا ، ومما هو مشاهد أن الإنسان أحيانا يقع في موقف حرج جداً فيتصبب جبينه عرقاً، وربما أحمر وجهه خجلاً ، أو يحف ريقه خوفاً ، فالغدة اللمفاوية تصاب بالالتهاب بسبب كثرة المشاكل والمخاوف لدى الإنسان خصوصاً في الجنس النسائي، وذلك يعني أن القلب ليس وحده المتحكم في هذه الانفعالات.

فالنفس إذن أشمل من القلب، وقد حدا ذلك بعض الدارسين إلى القول بأن النفس هي الدم، لأن الدم هو المسرح الذي تصب فيه الغدد والخلايا إفرازاتها الكيميائية ، يقول : " ولقد اكتشف العلم منذ بدء الستينات مئات المواد الكيميائية في داخل الجسم وخارجه، وكلها تتحكم في الظواهر والأمراض النفسية ، وتنتقل أو توجد أو تصب في الدم، الذي ينقلها إلى مختلف أعضاء الجسم التي ستكون مسرح العوارض النفسية ، فإذا عرفنا النفس بأنها الدم ، فهذا التعريف الموجز الجامع البسيط يوافق مع ما بدأ علم كيمياء العوارض النفسية بإثباته، وهذا علم جديد لا يتجاوز عمره عشرين سنة . فكل العوارض النفسية من حبور وغضب، وهلوسة وهذوء، تتحكم فيها بالحقيقة مواد كيميائية ينقلها الدم إلى مختلف أعضاء الجسم التي هي مسرح الانفعالات" مما يعني عدم القدرة على حصر مفهوم النفس في معنى واحد .

إن تفسير النفس بالدم قد يتعارض مع كثير من آيات الكتاب الكريم التي ترد فيها النفس بمعان مختلفة يحددها السياق القرآني ، ومن هذه الآيات قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ كَانْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسٌ وَأَنْفُسٌ يُرْسَلُونَ ﴾ (١)

(١) من علم النفس القرآني د. عدنان لشريف . دار العلم للملايين . بيروت ط٤، عام ٢٠٠٠م

(٢) سورة البقرة ، الآية ٤٨

فهي هنا بمعنى الكل المتكامل للإنسان ، ومنها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾^(١)

بمعنى الروح . ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمَ مَا نُوَسِّوْهُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾^(٢) وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾^(٣)

فهي هنا بمعنى النية والمعاني القائمة بالذات . وهناك الكثير من الآيات لا يمكن حملها على معنى الدم ، نحو قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾^(٤) وقوله : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجَادِلًا عَنْ نَفْسِهَا ﴾^(٥) وقوله : ﴿ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾^(٦)

ويمكن القول أن النفس عموماً هي جوهر داخلي في الإنسان، وتأخذ معان عدة، ويتحدد معناها من سياقها الذي ترد فيه ، ولا يمكن حصرها في معنى واحد ، وهي قد تشمل القلب فيما تشمله ، وقد تشمل الإنسان كله ولكنها ترد بمعنى العقل وحده أو الجسم وحده مجرداً ، مما يحدوني إلى القول أن سماتته - حفظه الله - يرى أن الإنسان مكون من ثلاثة أجزاء رئيسية (الجسد - النفس - العقل) وتحل فيها الروح وهي سر من أسرار الله تعالى، بها قوام حياة الجسد بما يحتويه؛ لذا كان على المربين أن يولوا عنايتهم بهذه الجوانب الثلاثة النفسية والعقلية والجسدية.

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٣

(٢) سورة ق ، الآية ١٦

(٣) سورة الرعد ، الآية ١١

(٤) سورة الرعد ، الآية ٤٢

(٥) سورة النحل ، الآية ١١١

(٦) سورة الحشر ، الآية ١٨

مميزات الشخصية الإسلامية

بعد الحديث عن أهم معالم الشخصية الإنسانية، أتناول بالحديث الموجز هنا أهم معالم الشخصية الإسلامية المميزة لها من بين الشخصيات الإنسانية، يقول سماحته: " تكوين الشخصية الإسلامية هو العنصر الأول من العناصر التي تؤدي بهذه الأمة أن تكون مؤثرة في شتى المجالات الفكرية والتربوية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية، ذلك لأنه بدون تكوين هذه الأمة على التصور الصحيح وعلى السلوك المستقيم لا يمكن أن يتبوأوا هذه المكانة العالية الرفيعة"^(١)

ويقول سماحته: " لا ريب أن الشخصية الإسلامية جعلها الله سبحانه وتعالى متميزة بكل شيء ، فهي متميزة بتصوراتها وفكرها، وهي متميزة بسلوكها وأخلاقها ، وهي متميزة بشعائرها وتعباداتها، وهي متميزة بأحوالها وعاداتها .

لأن الشخصية الإسلامية شخصية مؤثرة في هذا العالم"^(٢) فهي ربانية التصور والفكر والسلوك، تدين لخالق الخلق ومصرف الوجود بعبادتها، شخصية تستمد معطياتها من كتاب ربها المصان عن التحريف والتبديل، وبذلك كانت الشخصية الإسلامية متميزة عن سائر الشخصيات، فهي تمتلك القوة التي تمنحها التأثير وتصونها عن التأثير، فهي :

(١) تؤمن بالله إلهاً واحداً لا شريك له، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، يدبر الكون بأسره ، ويصرف الوجود بكامله ، ولا يعجزه شيء ولا يعزب عن علمه شيء ، أرسل إليها رسوله الخاتم بكتاب معجز؛ ليبين لها ما نزل إليها، وليهديها سواء الصراط .

(١) الخطوات العملية لإبراز الشخصية، الشيخ الخليلي، ١/٣٩٢

(٢) السابق

٢) تؤمن باليوم الآخر، وأن كل إنسان يجزى بعمله ، إن كان خيراً ففي جنة عرضها السموات والأرض ، وإن شراً ففي نار تلظى، لا يطاق لهيبتها، ولا يفني عذابها ، وإيمانها باليوم الآخر جزء من إيمانها بالغيب .

٣) سلوكها وأخلاقها مستمدة من شريعتها الربانية ، فالناس سواء لا يتفاضلون إلا بالإيمان بالله، وتقواه سبحانه وتعالى الذي هو أعلم به، ولا تقلد أحدا .

٤) شعائرها وتعباداتها بتوجيه من ربها، وهي تؤديها خالصة من جميع الشوائب ابتغاء وجهه الكريم، ورجاء رضوانه.

٥) أحوالها وعاداتها محكومة أيضاً بالمنهج الرباني، فليست هي في حاجة إلى أن تستمد من خصومها وأعدائها شيئاً من عاداتهم وأحوالهم، فهي مستقلة كل الاستقلال، معتزة كل الاعتزاز بما آتاه الله من شرف ومكانة، وأسبغ عليها من فضله وامتنانه .

ولذلك فهي لن تكون متأثرة بالبهارج، مستجيبة لكل ناعق، بل على العكس تماماً، تملي على العالم إرادتها، وتفرض عليه اتجاهها.

المبحث الثالث : ملخص فلسفة سماحته في التربية الروحية

لقد سعى سماحته بحنكته التربوية الفريدة والمسددة من الله تعالى إلى سلوك مسلك التدرج في إيضاح معالم هذه الفلسفة التي تنداح في جهوده التربوية الإصلاحية التطبيقية، دون أن يتجه سماحته - فيما يبدو - إلى إبراز تلك المعالم نظريا، ولذا اتسمت التوجيهات في المراحل الأولى من تلك الجهود بالتركيز على الجوانب التطبيقية التي تسرع عملية الإصلاح والتهيئة النفسية لقبول مبدأ الارتقاء أولا، ثم تتضح تلك المعالم تدريجياً في المراحل المتأخرة، فلربما ألقى سماحته محاضرات تربوية خالصة مع حرصه الشديد على التواضع الذي يصبغ منهجيته التربوية بالخفاء، إضافة إلى عنايته بالجانب التطبيقي الذي تتجسد فيه معالم التربية في دنيا الواقع، أكثر من عنايته بالتظير، لهذا ربما يحصل بعض التعديل بين الحين والآخر على بنود هذه الفلسفة لتوجه الواقع حيث هو متقلب سريع التقلب، وستكون هذه التشخيصات في هذه العجالة أكثر ما بنيت على الملاحظة التي يعتمدها القصور عادة.

تنطلق فلسفة سماحته - حفظه الله - في التربية الفردية من تسليط الأضواء على مركز الخلق الذي سخر له ما في السموات والأرض، لتتسع الدائرة شيئاً فشيئاً فتشمل الوسط الذي يكتنف هذه النفس البشرية التي تدور حولها رحي الكون الخاضع بأسره خضوعاً مطلقاً لجبار السموات والأرض، وبذلك يتحقق الانسجام والاتلاف، ويضمحل الشوز والاختلاف، حينئذ يرتبط هذا القطب الأرضي، بعد أن يكون في نفسه تقياً نقياً، بوسط أنقى وأنقى في الملاء الأعلى الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فتتجسد فيه تلك الخصال السامية؛ فيرقى رقياً يتجاوز به في بعض الأحيان مكانة ذلك الملاء بسبب التكريم الإلهي لجنسه المبين لجنس الملاء الأعلى في تركيبته ونزعاته، فالارتباط بين المركزين ارتباطاً معنوي روحاني، تدرك آثاره

ولا تدرك ماهيته، فهو خفي خفاء الروح التي تسرى في شرايين الإنسان، هنالك تتنظم حلقات الفلسفة التربوية لتعكس انتظام أجهزة هذا الإنسان المختلفة في ذاته من ناحية، وانتظامه مع مكونات الوجود من ناحية أخرى.

إنَّ التربية الروحية في نظرية سماحته التربوية جزء من هيكل متكامل في بناء متناسق ذي أبعاد متداخلة تتشابك فيه أقطاب أربعة : الروح، والنفس، والعقل، والجسد الذي هو آية عظمى من آيات الله تعالى الماثوثة في هذا الوجود، ذلك الجسد الذي تتجلى عبره الكثير من مظاهر السلوك الإنساني الذي سيحاسب عليه العبد يوم القيامة، فإما إلى جنة عالية، وإما إلى نار حامية، خالدًا مخلدًا فيها أبداً.

إنَّ هذا الإنسان المكرم عند ربه - إن أطاعه - يحوي في تكوينه العجب 'عجاب من آيات الله عز وجل في جسده وفي تفكيره وفي طبائعه وغرائزه، مور عظيمة تتفاعل في حناياه، فهو في جانبه الجسدي يحوي ألف مليون مليون خلية، ويقول سماحته: "إن كل خلية في جسم الإنسان عالم كامل" (١) وهذه الخلايا تشكل أجهزة تقوم بوظائفها المنوطة بها، بعض تلك الوظائف حسي، والبعض الآخر معنوي، وفي هذا الجانب الأخير تكمن الكثير الكثير من الآيات الباهرات، إذ كيف تستجيب تلك الأجهزة وتتفاعل - وهي قطع لحمية - مع أمور معنوية، وأسط مثال تأثر الإنسان بتلاوة القرآن، والخشوع في الصلاة، والخوف من الله تعالى، ومهيجات البكاء، وكذلك السعادة ونحوها، كيف تحدث؟ وأين تحدث؟ في جسم خلق من طين.

من هنا تأتي مهمة التربية الروحية وتشكل، ومن هنا تنبع أهميتها، فهي أمر ليس بالسهل، ولكنها ميسرة بتيسير الله تعالى لعباده.

يرى سماحته أنَّ الإنسان ينقسم إلى أقسام ثلاثة عدا الروح سر الحياة:

(١) في لقائي بسماحته يوم الاثنين ٥ / محرم / ١٤٢٩ هـ وقد شرح ذلك في كتابه برهان الحق ص ١٧٠ وما

الجسم، والعقل، والنفس، فالجسم مادة تسري فيها الروح التي هي سر الحياة، ويحوي ذلك الجسم عقلاً مميزاً، ونفساً تنطوي على القلب والغريزة والضمير، ويمكن ضم هذه الجوانب، وذلك بجعل الجانِبِ الروحي يشمل الجانِبِ النفسي أيضاً بجامع الخفاء في كليهما، فتصبح الجوانب هي : الجانِبِ الروحي (الروح ، والنفس، وما تحويه من الضمير، والغريزة، وما تنطوي عليه من الأحاسيس ونحوها) والجانِبِ العقلي (الفكري) والجانِبِ الجسدي، أما الروح التي هي سر الحياة في الإنسان فأمرها إلى الله تعالى.

ومع تمتع كل جانب من هذه الجوانب بخصائصه ومطالبه ودوافعه ، تشكل هذه الأجزاء كلا متكاملًا، كل جانب منها مكمل للجانِبِ الآخر، وتعنى التربية الروحية بالجانِبِ المعنوي عدا النشاط العقلي، ولكنها تعوّل عليه في انتظام مسلكها ، وتثبيت دعائمها .

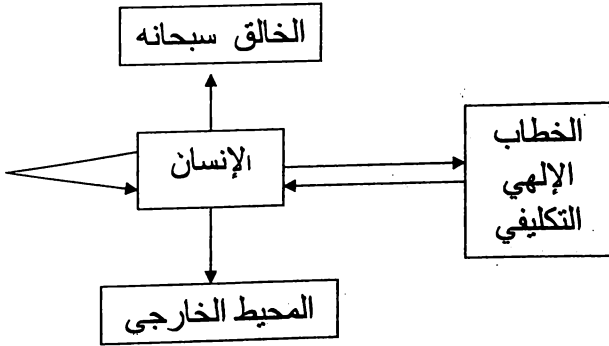
لا ريب أن الإنسان موقوف بين يدي ربه يوم القيامة، ومحاسب على سلوكه الفعلي والاعتقادي، وهذا السلوك هو نتاج هذه الجوانب الأساسية في الإنسان، فكل ما ينتج من سلوك تشترك فيه هذه الجوانب ، فعلى سبيل المثال نجد أن حل مسألة في الميراث هو أمر عقلي لا يتدخل فيه العاطفة، وأن الخوف والرجاء أمران نفسيان روحيان ، ونقل شيء من مكان إلى مكان آخر مجهود جسدي لا يتدخل فيه الجانبان الآخران، واختيار أحد الجنسين لزوجه أمر يشترك فيه العقل والعاطفة معاً إن كان الوضع طبيعياً، والصلاة تشترك فيها الجوانب الثلاثة. ولذا فإن ساحتها يرى أن هذه الجوانب مع استقلالها، كل جانب منها مكمل للجانِبِ الآخر بمشيئة الله تعالى^(١) كما تقدم بيانه.

إنّ الإنسان بهذا التركيب العجيب قد استخلفه الله في الأرض، وحمله أمانته، وسخر له ما في السموات والأرض، وجعل من سنته أن يبتليه ويمحصه، وخلال ذلك ينزل إليه الكتب، ويرسل إليه الرسل لتبصيره

(١) آيات الله في الإنسان، الشيخ الخليلي، ١٣٩٠هـ

وإرشاده في خوض غمار الحياة الدنيا، حتى يعبر مخفياً سالماً إلى رحمة الله ورضوانه، وإلا فإلى غضبه ونيرانه، ولذا فإن مرحلة الحياة الدنيا مرحلة اختبار وابتلاء، ومرحلة إبحار إلى شاطئ السلامة، وهنا يأتي دور المرابين من العلماء المخلصين من أمثال سماحة الشيخ الخليلي لإكمال مسيرة المرسلين عليهم السلام.

يتوجه الخطاب الإلهي إلى الإنسان المتمثل في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي الصحيح الثابت من السنة المطهرة^(١) - على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، يتوجه هذا الخطاب ليتناول ثلاثة أقسام : تفاعلات الإنسان مع نفسه المكونة من جوانبها الثلاثة ، وتعامله مع خالقه جل وعلا، وتفاعله مع محيطه الذي يشمل الكون كله مما سخره الله تعالى له، فتحدث بذلك تفاعلات ثلاثة، تحدد في النهاية العلاقة مع الله سبحانه وتعالى ، ويبين الشكل الآتي هذا التعامل والتفاعل.



(١) يقول سبحانه وتعالى " { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } (٧) سورة الحشر { مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } (٨٠) سورة النساء { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ } (٣) سورة النجم

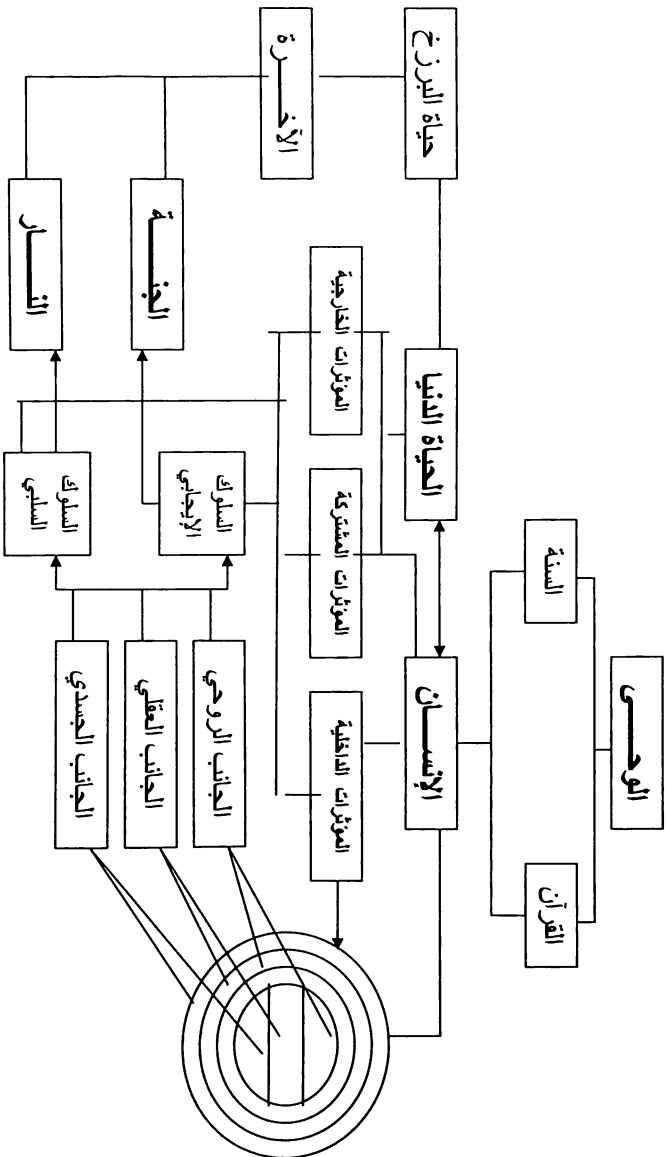
ينصب التوجيه التربوي لسماحته في هذه العلاقات المشار إليها في ضوء التوجيه الإلهي، مبتدئاً بعلاقة الله مع ربه سبحانه وتعالى، فيؤمن به إلهاً خالقاً له ولكل شيء، وحده سبحانه لا شريك له، يدبر هذا الكون كما تقتضي ذلك حكمته عز وجل، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ويقتضي ذلك الإيمان طاعته في كل ما يأمر به جل وعلا، وفي كل ما ينهى عنه، ليفوز الإنسان بالحسينيين في الدار الآخرة: النجاة من النار، والخلود في دار الكرامة.

لا ريب أن الإنسان في طريقه هذا تعترضه الكثير من المشكلات والصعاب فتؤثر على سيره، بدءاً من نفسه الأمانة بالسوء (المؤثرات الداخلية) ثم ما حوله من مخلوقات الله تعالى (المؤثرات الخارجية) وقد تشترك المؤثرات الخارجية مع الداخلية حين تجدها صدى في نفسه، لذا كان من الضروري الركون إلى مصدر القوة العظمى المطلقة لاستمداد القوة والنصر والتسديد؛ ليكون السلوك إيجابياً موصلاً إلى رضوان الله تعالى ونعيم الآخرة، ولا يكون سلبياً مفضياً إلى غضب الله وأليم عذابه.

لذا يركز سماحته أولاً على ترسيخ العقيدة الصافية في النفوس، العقيدة النقية من كل شوائب التوحيد، وتلتزم التنزيه الكامل للملك الملك سبحانه وتعالى، ويمجد لذلك الأدلة، ويستجمع لها الجهد كله، لما لذلك من أثر بالغ على النفس وسلوكها، داعياً ومعيناً على اعتماد مبدأ التفكير في صفحات الوجود المشحون بالآيات والنذر، لزرع مخافة الله تعالى في النفوس بحيث لا تستطيع المؤثرات زعزعتها فضلاً عن اجتثاث جذورها، ثم يستعرض الكثير من المؤثرات الداخلية والخارجية، وسبل تكييفها وضبطها؛ لتدور في الفلك نفسه المحقق للهدف المنشود من خدمة الروح، وهنا يتناولها من جانبيين اثنين: الوسط الذي هي فيه (الحياة الدنيا وزخارفها) والنفس الإنسانية بطبيعتها البشرية في تعاملها مع هذا الوسط، رابطاً ذلك كله بالمحور الذي تدور عليه العملية (الجنة والنار) وما يسبقهما من أهوال، شارحاً الكثير من

الوسائل التي لا غنى عنها لكل من أراد تربية روحه، وصفاءها، وتألقها، وسموها، ليعيش في واحة من الراحة والأمان كما يعبر سماحته.

بعد أن يحقق الإنسان إنجازاً فعلياً في هذا المضمار فلا يعني أنه وصل إلى نهاية المطاف، وحقق النصر، وقد وضعت الحرب أوزارها، كلا، فإن النفس تعثرها حالات من الضعف، كما تنفحها نفحات القوة والاستعلاء، لذا يبرز هنا عنصر مراقبة النفس ومحاسبتها ومعاقبتها بوسائل أوضحها سماحته، وقد جاء بيان ذلك كله - بحمد الله - في ثنايا الكتاب.



يبين هذا الرسم ما يتضح من نظرية سباحته في تربية الجانب الروحي من جوانب التربية المتكاملة

مدخل إلى

التربية الروحية

مفهوم التربية الروحية

تقدم الحديث أن النفس جوهر داخلي يشمل القلب الذي هو محل العواطف، والانفعالات، والأمور المعنوية التي هي في حقيقتها لا يمكن إدراكها بذاتها بالحواس، كما لا يمكن قياسها، وإنما تدرك بآثارها فقط. فهي بذلك أقرب إلى معنى الروح، فحين تجد إنساناً سعيداً فإنك تتبين آثار السعادة البادية عليه، دون أن يعرف هو ولا أنت مكان السعادة في نفسه ومحلها، وليس بمقدور أحد أن يقيس مقدار السعادة أو مداها سوى استخدام المصطلحات العامة نحو " هو سعيد " أو " تغمره السعادة " أو " هو سعيد جداً " أو " لقد بلغ ذروة السعادة " وبما أن تلك الأمور تتميز بالخفاء فإني أميل إلى استخدام مصطلح " التربية الروحية " مشيراً إلى أن هناك من يستخدم مصطلح التربية النفسية أو التربية المعنوية أو التزكية .

تقدم إيضاح مفهوم التربية في الجزء الأول من " من معالم الفكر " (١) بأنها تعني التنمية والإصلاح، وتستلزم المحافظة والتوجيه، وأقرب المعاني إلى مصطلح الروحية مصطلح " الإيانية " التي تجعل الإنسان ذا ملكة إيانية شفافة مرهفة، تتجلى في قسامات وجهه أنوارها، وتهيمن على جوارحه سكينتها ووقارها، دمث الأخلاق، سهل العريكة، يألف ويؤلف، يعيش مع الناس حياته الفانية، بنفس تتطلع إلى الدار الباقية، وروح معلقة بالملكوت الأعلى، فإذا ذكر الله تعالى وجل قلبه، واقشعر جلده، وخشع بصره، واستسلمت جوارحه؛ فسبح بحمد ربه؛ فتغشاه لطائف السكينة والاطمئنان والأمان .

ويمكنني الاجتهاد في وضع تعريف لما أعنيه هنا بالتربية الروحية أنها: "تنمية القوة النفسية المدعمة بالعقل والإيمان، المتجلية في سلوك يحفظ

للكيان الإنساني إرادته وصموده أمام نوازع الشر، سعيًا إلى تحقيق الطاعة المطلقة لله سبحانه وتعالى .

وإذا استبدت هذه الروح بالنفس الإنسانية نظرت إلى الوجود بنور الله، يقول سماحته : " أمَّا القوة الروحية فإنَّها لا تنحسر وبخاصة إذا تمكنت من النفس الإنسانية، فإنَّها تسيطر على جوانبها العقلية والنفسية " (١)

ويستخدم سماحته مصطلح " التزكية " أو " تزكية النفس " وقد يعني به التطهر من المعاصي، وتنمية جوانب الخير، يقول سماحته : " التزكية التطهير، والتزكية التنمية، تطهير النفس من الرذائل، وتنمية الأخلاق والفضائل. والتطهير تخلية، والتنمية تحلية " (٢)

ويقول أيضا : " التزكية لها معنيان من حيث الاستعمال اللغوي: فهي تستعمل بمعنى الطهارة، وتستعمل أيضا بمعنى التنمية. ومن ذلك " زكا الزرع " بمعنى : نما، فتزكية النفس إنما هي بتطهيرها من آثار معاصي الله سبحانه وتعالى، وتنمية خصال الخير فيها من خلال ممارسة الإنسان لأنواع الفضائل، وابتعاده عن صنوف الرذائل، حتى تكون هذه النفس منقادة في سبيل الحق " (٣)

يبدو واضحا أنَّ التزكية تطهير من جانب، وتنمية في الوقت ذاته من جانب آخر، هي : " تَحْلٌ وَتَحْلٌ " وقد يشمل ذلك جميع جوانب النفس الإنسانية، فلا يشك أنه يشمل الجانب النفسي فيتطهر الإنسان من جميع الأمراض النفسية، والأرجاس القلبية: من الغل والحقد والحسد، ونحوها، كما تتناول جانب التصورات والعقيدة، فينبذ الإنسان البدع والشركيات، كما تشمل أيضا الجانب السلوكي، فيتخلى الإنسان عن الرذائل ويتحلى

(١) المدخل العام إلى دراسة العقيدة، الشيخ الخليلي، ٩/١

(٢) تفسير قوله تعالى: " أفمن اتبع رضوان الله "، الشيخ الخليلي، بتاريخ ٢ صفر ١٤٢٥، ٢٣/٣/٢٠٠٤

(٣) تطهير القلوب، الشيخ الخليلي، ٤٨٠/١

بالفضائل، ويكبح جماح نفسه فيلزمها السير في منهج الله تعالى، وهذا يدفعنا إلى الحديث عن مصدر السلوك الإنساني، أهو الجانب النفسي الانفعالي؟ أم الجانب العقلي؟ أم هما معا؟ وقبل ذلك، ما هو السلوك؟ وتنبع أهمية الحديث عن هذا الجانب من أهمية التربية نفسها.

يختلف علماء النفس في تعريف السلوك وتحديد مفهومه كاختلافهم في تعريف الدوافع أيضا " ففي حين يقصره فريق من العلماء على النشاط العضوي الظاهري، يتوسع فريق آخر في تعريفه ليشمل كل ما يجري في الذات الإنسانية وكل ما يصدر عنها"^(١)

وقلة من علماء النفس الذين يقصرون لفظ السلوك على السلوك الخارجي الذي يمكن ملاحظته ومشاهدته (كالأكل، والشرب، والضحك، والمشي) والغالبية من علماء النفس المعاصرين يعنون بالسلوك "جميع الأنشطة التي يقوم بها الكائن الحي ذاته، وبذلك يشمل السلوك جميع مناسط الكائن الحي الداخلية والخارجية"^(٢) وذلك مثل الجوع، والسعادة، والحزن، والتفكير، والتخيل ونحوها. ومنهم من يعرف السلوك " بالتفاعل بين الذات والموضوع"^(٣)

ومثال ذلك أن يشاهد الإنسان لوحة مرسومة، أو يسمع قصيدة شعرية، فإنها ستحدث لديه استجابة سلوكية داخلية، كاللذة أو الألم أو الحزن، أو خارجية ك شراء اللوحة أو طلب نسخة من القصيدة. وتلك الأمور النفسية لا تعني علم النفس الفسيولوجي"^(٤)

(١) محددات السلوك الإنساني والتنظيمي. عبدالله بن حمدان الدهماني، ص ٧

(٢) علم النفس العام . عبد الرحمن عيسوي ص ٤١

(٣) مبادئ علم النفس، محمد بن بونس ص ٧١

(٤) من المعلوم أن علم النفس ينقسم إلى ما يزيد عشرين قسما كعلم النفس العام، علم نفس النمو، علم النفس التربوي، وعلم النفس الإرشادي، وعلم النفس البيولوجي الخ.

أما الدافع فهو " حالة داخلية جسمية نفسية تثير السلوك في ظروف معينة"^(١)

ولا شك أن غاية السلوك الإشباع، تحقق ذلك أم لم يتحقق، فالجوع دافع إلى السلوك وهو تناول الطعام، ورؤية الطعام مثير لذلك الدافع، وينبغي عدم الخلط بين السلوك الاختياري ودوافعه، ومصدره، ومحدداته، فالمصدر في صورته العامة لا يعدو أن يكون العقل أو القلب (الوجدان) أو كليهما، فحل مسألة في الميراث مثلا سلوك عقلي لا دخل للعواطف فيه ولا الانفعالات، والخوف أو الحب أو الحنان سلوك انفعالي، واختيار الزوج شريكا في الحياة سلوك يشترك فيه العقل والقلب معا في الحالات الطبيعية .

أما محدد السلوك فهو " العامل المؤثر الذي يتحدد به الاختيار الإرادي الإنساني لسلوك دون غيره أو الامتناع عن سلوك ما"^(٢)

وقد أولى الإسلام عنايته بجميع تلك الجوانب، فرعاها وهذبا ووجهها، ولا يعنينا من ذلك هنا إلا ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وتتحكم في ذلك النيات في الشريعة الإسلامية .

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْاتِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾^(٣)

﴿لَا يَكُلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٤)

أهمية التربية الروحية

لقد خلق الله سبحانه وتعالى النفس الإنسانية مجبولة على الاستئثار، وحب الخير لنفسها، كما خلق الإنسان مديناً بطبعه، اجتماعياً بفطرته، لا غنى

(١) علم النفس العام . خليل ميخائيل معوض ، ص ٦٨

(٢) محددات السلوك الإنساني والتنظيمي . الدهاني . ص ٢٣

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٢٥

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦

له عن الآخرين ، ولا محيص له من التفاعل مع أفراد جنسه بشتى المعاملات، ولا ريب أن هذا التفاعل بين أفراد الجنس البشري - مهما كان نادراً - يخلّف شيئاً من الآثار على النفوس، ويتعد بها عن ذروة الطهارة والنزاهة والتسامي، وإذا ما تراكمت تلك الآثار كان من العسير - إن لم يكن من المتعذر - محو آثارها، مما يدعو الإنسان إلى الحرص الكامل على تزكية نفسه وتطهيرها مما علق بها من أدران الحياة وشوائبها؛ ليبقى بذلك طاهر السيرة، نقي السريرة، مؤهلاً للفوز بدار الكرامة مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، يقول سماحته عن الإنسان بأنّه :

" قد يتعمى عن قصد السبيل لما يتجاذبه من طبائع نفسه، ويتقاضاه من مطالب الحياة، فهو واقع بين العواطف الملتهية، والغرائز الجارفة، والمطالب المختلفة، والدوافع المتنوعة، فلا عجب إذا أنساه ذلك ما يجب عليه تجاه خالقه، وتجاه الخلق"^(١)

فعلى الإنسان إذن أن يتسامى بنفسه عن جاذبية التراب، ولينظر إلى هدفه البعيد، مستصغراً في جنبه عظام التضحيات، ولا يركن إلى الدعة والراحة، ويلقي السلاح مستسلماً لهوى نفسه التي لا يملأ جوفها إلا التراب، بل عليه أن يظل في صراع معها وعراك، حتى تستسلم له وتنقاد؛ فتكون مدعنة لأمره، خاضعة لإرادته .

النفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفضمه ينفطم
وليعلم أنّ الحياة الدنيا هي حلبة الصراع ، وساحة النزال ، وليست هي
محلا للراحة، أو منزلاً للبقاء.

تطلب الراحة في دار الفناء إنّما تطلب أمراً لا يكون

٥ إن التربية الروحية تستمد أهميتها وضرورتها من عظم قدر الأهداف التي تروم تحقيقها، والغايات التي تصل إليها، لذلك كانت العناية بالتربية الروحية الإيمانية في مقدمة العناية كلها، وتحتل المكان الأسمى، والمحل الأسنى، والمنزل الأعلى من اهتمامات الإنسان التربوية، ولهذا يشير سماحته بقوله: " تأتي التربية الإيمانية رائدة في تربية الشباب، فالشباب يجب أن يَنشَأُوا على الإيمان بالله، والتعلق به سبحانه وتعالى، وحبه حباً يتملك شعاب قلوبهم، ويسيطر على أفكارهم ووجدانهم، كما يقتضي ذلك الإيمان الحق الذي كان عليه السلف، والذي يأتي عليه من بعد من سلك مسلكهم من الخلق، والذي دعت إليه آيات الكتاب العزيز والسنة النبوية" (١)

ويمكن الإشارة هنا إلى أهم ما تغمر به التربية الروحية نفس الإنسان من هبات، وما تسبغه عليها من أعطيات، إذا ما أولاها عنايته، وأحاطها برعايته، ولم يخسها ما لها من حقوق، ومن جملة هذه الهبات:

١- تعميق الصلة بالله، وتوثيق عرى محبته في النفس، فيفوز بالهداية إلى صالح القول والعمل، يقول سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (٢) وهي التي يشير إليها سماحته بهداية التوفيق، يقول حفظه الله:

"هداية التوفيق خاصة بعباد الله المؤمنين، وتتعدد مراتبها:

المرتبة الأولى: التوفيق للعمل الصالح، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٣)

المرتبة الثانية: الاستدامة على هذه الهداية، والاستزادة منها، وهي التي عنها الله تعالى بقوله ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (٤)

(١) معالم الجليل الواعد، الشيخ الخليلي، إصدار مكتبة مشارق الأنوار

(٢) سورة محمد، الآية ١٧

(٣) سورة القصص، الآية ٥٦

والمرتبة الثالثة: الهداية لثواب الله تعالى في دار القرار، في جنة عرضها السموات والأرض ، وهي المقصودة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾^(١)

فأي نعمة أعظم من الهداية في الدنيا، والنعيم في الآخرة ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾^(٢)

٢- تجعل النفس محلاً لإشراق أنوار الحق، وفيوض العرفان، يقول سباحته: " على الإنسان أن يزكي نفسه تزكية يجعلها محلاً لإشراق أنوار الحق عليها، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا^(٣)

فبقدر ما يزكي الإنسان نفسه يكون مفلحاً ، وبقدر ما يدسها يكون خائباً، وهذه التزكية إنما تعود إلى الإيمان الراسخ، واليقين الصادق، وما يترتب على ذلك من العمل الصالح"^(٤)

ولذا قيل " المؤمن يرى بنور الله" وما قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه " يا سارية الجبل" من ذلك ببعيد ، فتشرق بصيرته بنور الله، وتتفتق مخايل النباهة لديه ، وتشع أنوار الفطنة في جنبات نفسه ، مؤيدا بنور الحق في التمييز بين الهدى والضلال، والغي والرشد.

٣- إشباع غريزة الإنسان ونزغته إلى حب التدين ، فيشعر بالاطمئنان والراحة النفسية "^(٥) وما حوادث الانتحار وسفك دماء الأبرياء ، وأمراض

(١) سورة محمد، الآية ١٧

(٢) الإيمان بالقدر، الشيخ الخليلي، ١/٤٤ / ج

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٨٥

(٤) سورة الشمس، الآيتان ٩، ١٠

(٥) تطهر القلوب، الشيخ الخليلي، ١/ ٤٨٠

القلق والاكئاب، والاضطرابات النفسية الشائعة في هذا العصر إلا انعكاس واضح جلي يكشف عن مدى البعد عن الروحانيات، والدين الحق.

لقد أشار سماحته إلى ضرورة التدين في حديثه عن آثار العبادة الخالصة لله، يقول عن العبادة: "هي مطلب ملح، ونداء متتابع من أعماق نفس الإنسان، فإن كل أحد يشعر بالخواء الروحي، والفراغ الفكري إذا لم يعبد الله سبحانه وتعالى كما أمر؛ ولذلك فإن الناس الذين لم يتلقوا طريقة العبادة من الوحي هاموا في هذا الأمر واتبعوا أهواءهم... فمنهم من صار يعبد الظواهر الكونية الطبيعية، ومنهم من صار يعبد القوى الروحانية الخفية، ومنهم من صار يعبد أنواعاً من المخلوقات الظاهرة، ومنهم.. وفي هذا كله ما يدلنا على أن كل أحد يشعر بالضرورة الملحة إلى العبادة، والحاجة التي لا تقف عند حد إليها. والإنسان ولو تفتحت له آفاق المعرفة، وتفنن في طرائق الفلسفة، وبلغ أوجه في التطور، لا بد له من الدين، فإن الدين كما قيل ضروري للسعادة والنظام"^(١)

ويقول: "ما أعظم هذا الأُنس العظيم الذي يشعر به العبد في صلته بالله سبحانه وتعالى، وفي علاقته بالكون عندما يملأ الإيمان جوانبه"^(٢)

كما يشير إلى حالة الاضطراب النفسي التي تنتاب المعرضين عن ذكر الله تعالى بقوله: "إن الذين لا يعبدون الله سبحانه وتعالى يشعرون باضطراب النفس، وعدم الاستقرار، وتتابهم الأمراض العصبية، والأمراض النفسية نتيجة البعد عن ذكر الله تعالى"^(٣)

(١) العبادة وأثرها، الشيخ الخليلي، ص ١٦، ١٧

(٢) وحي المنابر، الشيخ الخليلي، ١ / ١٣٧

(٣) العبادة وأثرها، الشيخ الخليلي، ص ١٨

وهذا ما عبّر عنه الفيلسوف الألماني (لينز) في حديثه عن دور الإيمان في طمأنينة النفس، يقول: " ولإزالة القلق النفسي والروحي أن يؤمن بالله عن طريق العقل... لأن القلق ناتج عن الشك، والشك وسيلة لتفتيت القلب"^(١) وما يشير إليه ساحتها من الاضطرابات النفسية لدى المعرضين عن ذكر الله تعالى، تدعمه الإحصائيات والتقارير الطبية. إذ تشير الإحصائيات إلى أن نسبة الانتحار هي الأعلى في بلدان أوروبا الشمالية التي هي الأرقى عالميا من الناحية المادية.

حين أصبح القلق والاكتئاب المرض الأكثر شيوعا في العالم^(٢)، وقد أشار تقرير حديث لمنظمة الصحة العالمية إلى أن ٢٥٪ من تعداد سكان العالم يشعرون بالتوتر، والخوف، والإحباط، وتوقع الخطر والسوء، وحدث ما يهدد حياتهم.

كما أكدت منظمة الصحة العالمية ارتفاع معدلات الانتحار بين صفوف الشباب في العالم وخاصة في أوروبا إلى مليون حالة انتحار في السنة، وتوقعت أن يرتفع الرقم إلى ١.٥ مليون عام ٢٠٢٠م. وقالت المنظمة إن حالة انتحار مميتة واحدة يتم تسجيلها في العالم كل ٤٠ ثانية، مما يتفق مع الحقائق المسجلة بأن شخصا واحداً على الأقل يحاول التخلص من حياته كل ثلاث ثوان.^(٣)

وقد أكدت آخر الإحصائيات التي أجريت أخيراً في إيطاليا أن أكثر من ٨٠٪ من حالات القتل التي تقوم بها الأمهات الايطاليات ضد أطفالهن تأتي

(١) علم النفس التربوي في الاسلام. د. مقداد يالجن، د. يوسف القاضي. ص٣٣٣، نقلا عن Oeuvers

Philosophiques de Leibniz/ ١٤٨ par paul janet paris

www.annabaa.org/nbanews// ٦٧(٢)

atefmoussa.about.tc/stats/assasinat.doc (٣)

نتيجة إصابتهم بحالة القلق والتوتر والخوف من المستقبل علي أبنائهن في مواجهة الحياة الصعبة التي تنتظرهم.^(١)

وتشير الدراسات إلى أن ما بين ٤٠٪ - ٥٠٪ من المتزوجين في الولايات المتحدة الأمريكية انتهى زواجهم بالطلاق مخلفين وراءهم أكثر من مليون طفل - سنوياً - يعانون مأساة طلاق الوالدين^(٢)

وكشفت إحصائية أمريكية نشرت عام ٢٠٠٥م عن ازدياد حالات الانتحار في الولايات المتحدة مقارنة بجرائم القتل. وقد أكدت الإحصائية تسجيل ٢٩ ألف حالة انتحار سنوياً بواقع ٨٠ حالة يومياً. ويعني ذلك ٣ حالات انتحار مقابل جريمتي قتل، وعزي ذلك إلى زيادة حالات الاكتئاب ومشاعر القلق بالإضافة إلى الأمراض العقلية والنفسية، وقد بلغت حالات الانتحار في ولاية أوريغون وحدها ٥١٨ حالة مقابل ٧١ جريمة قتل عام ٢٠٠٢م

وأشارت إحصائيات أخرى إلى أنه ينتحر ٣٠٠ ضابط شرطة سنوياً في أمريكا منهم عشرة في نيويورك وحدها؟ ومنذ عام ١٩٨٧م يتزايد عدد ضباط الشرطة المنتحرين هناك، وهي ظاهرة أقلقّت السلطات وقام الاتحاد الوطني لضباط الشرطة ببحثها فوجد الاتحاد أن أبرز أسباب انتحار الضباط هو: توتر الأعصاب الدائم الذي يعيشون فيه.^(٣)

وكشفت دراسة فرنسية أن ١٦٠ ألف فرنسي يحاولون كل عام الانتحار يموت منهم ٣٢ يومياً، العديد منهم من الشباب خاصة من النساء بسبب الاكتئاب والضغوط الشديدة للحياة العصرية، والتسابق على تحقيق الربح المادي.

(١) akhbarelyom@akhbarelyom.org

(٢) الجمعية العربية السعودية للعلوم التربوية والنفسية

(٣) www.vip7.com/vb/showthread.php

وأظهرت الدراسة التي أجرتها 'جون شوقيه' رئيسة الاتحاد القومي الفرنسي لمكافحة الانتحار أن ظاهرة الانتحار تضرب جميع الطبقات الاجتماعية في فرنسا بدون استثناء، حيث تتركز عملية الانتحار بشكل كبير بين الشباب في المرحلة السنوية ما بين ١٦ و ١٧ سنة. وأوضحت الدراسة أن معدلات الانتحار زادت في فرنسا في الفترة من ١٩٩٣ م إلى ١٩٩٩ م بنسبة ٤٠٪ لدى الفتيات و ٢٠٪ لدى الفتيان. (١)

وقد ذكرت الشرطة اليابانية أن معدلات الانتحار ارتفعت بدرجة عالية جداً، ففي عام ٢٠٠٣ م قام ٣٤٤٢٧ شخصاً يدينون بالبوذية بقتل أنفسهم. وأفادت مصادر صحفية نقلاً عن الناطق باسم الشرطة أن الزيادة بلغت ٧١٪ عن الأعوام السابقة، وحسب الإحصائيات فإن سبعين بالمائة من المنتحرين هم ذكور في العشرينات من أعمارهم. (٢)



وللحد من مثل هذه المعاناة فقد استهلكت فرنسا ١٢٥ مليون علبة منوم ومهدئ أعصاب في سنة ١٩٨٢ م... وفي الولايات المتحدة كل وصفة طبية

(١) atefmoussa.about.tc/stats/assasinat.doc

www.aawsat.com/details.asp?section

(٢) atefmoussa.about.tc/stats/assasinat.doc

من أربع هي وصفة مهدئ أعصاب، ومن كل مريض يدخل عيادة الطب العام ٧٠٪ هم مرضى نفسيون عصبيون بصورة ظاهرة أو خفية" (١)

وهذه العلاجات ذات تأثير مؤقت بلا شك. وإنما يستأصلها من جذورها الإيمان الحق بالله سبحانه وتعالى، حاكما ومشرا وإلها واحدا.

٤- تطهير النفس من الأحقاد، والغل والحسد، وسائر الأمراض النفسية، فيصل الإنسان إلى قمة السعادة، وهي راحة البال.

وقد أشار سماحته فيما نقلته سابقا من أهمية تزكية النفس، وأثرها في تطهير القلب من جميع الأرجاس والأدناس.

٥- تحقيق النصر والتمكين للأمة، والارتقاء إلى الأوج الشامخ من القوة التي ترهب العدو، وهذا ما ركن إليه السلف الصالح لهذه الأمة، فهان أمام عزائمهم كل عسير، وتهاوت تحت سنابك خيولهم تيجان الأكاسرة، وعروش القياصرة، يقول سماحته:

" إن الصلة بالله تعالى هي التي تهون كل صعب، وهي التي تيسر كل عسير، وهي التي تقود الأمة إلى الخير كله.. والسلف الصالح إنما انتصروا على أعدائهم بما كان لهم من صلة بالله سبحانه وتعالى، كانوا يتبتلون بين يديه آناء الليل وآناء النهار، يحاسبون أنفسهم على ما قدموا، وعلى ما أخرجوا، وكانوا أحذر من الذنوب منهم من أعدائهم" (٢)

ومن الأمثلة الرائعة الشاهدة على أثر قوة الصلة بالله في دكدة عروش الظالمين، ومحو طموحات الطامعين في مقدرات الأمة، ما أكرم الله به أهل الاستقامة على الدين من أهل جزيرة جربة بتونس في بداية القرن العاشر

(١) من علم النفس القرآني، د. عدنان الشريف، ص ١٩٤

(٢) وحي المنابر، الشيخ الخليلي، ١/ ٢١٥

الهجري ، وسأنقل هنا باختصار شديد تصوير تلك الحادثة الإيمانية بلسان ساحتها الملهم، يقول:

لقد شردَ المسلمون بعد نكبة الأندلس، وقتلوا، ونصّر فريق منهم، ثم أنشأت محاكم التفتيش لتعقب كل من تبدو عليه مسحة إيمانية، أخذ الصليبيون يجوبون عرض البحر الأبيض المتوسط يأسرون المسلمين ليعبئوهم عبيداً في أسواق أوروبا، وفي بداية القرن العاشر الهجري أخذت القوى الأسبانية تحتل الموانئ الإسلامية ميناء بعد ميناء، حتى وصلت في شهر ربيع الأول من عام ٩١٠ هجرية إلى طرابلس، فسقطت طرابلس في أيدي الصليبيين، ولم يبق في وجههم إلا جزيرة جربة، وكانوا يقدرّون أن هذه الجزيرة لا تحتاج إلا رحلة سياحية بحرية لاحتلالها، وكانت زعامة الجزيرة ترجع إلى شخصين: إلى الشيخ أبي زكريا يحيى السمووني، وهو الشيخ السياسي للجزيرة، وإلى الشيخ أبي النجاة يحيى بن سعيد التعاريفي وهو رئيس مجلس العزابة، وإليه ترجع الزعامة الدينية للجزيرة، فاجتمع الشيخان لمناقشة هذا الأمر الخطير، فقال الشيخ أبو النجاة: إن الأمر يتطلب أحد موقفين: أما الاستسلام من أول الأمر، وإما المقاومة والصمود، وقد أمرنا رسول الله ﷺ بالرجوع إلى القرآن إذا حلت بنا الفتن، وكتاب الله يقول لنا ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١) ويقول: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٢) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٣) والله لا يخلف وعده أبداً، وإنما علينا أن نحقق إيماننا ونكون مؤمنين حقاً لنستوجب النصر، ونستحق التمكين، فأرشدهم أولاً على أن يحاسب كل أحد نفسه منذ بلغ الحلم إلى وقته ذلك، وأن يتنصل من جميع الآثام، ويتخلص من جميع التبعات، وأن يتحالفوا، وأن يكون

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤٩

(٢) سورة الحج، الآيات ٤٠، ٤١

الاستشهاد أحب إليهم من النصر، وأمرهم أن يجتمعوا - كعادتهم - لتلاوة القرآن على طريقة جماعية، وتنتهي كل حلقة القرآن الكريم قبل أن ينتهي الأسبوع، على أن يجتمعوا الختمة القرآنية بالابتهاج إلى الله سبحانه وتعالى بأن ينصرهم، وأن يمددهم بملائكته المقربين، وأمرهم أن يرسلوا إلى إخوانهم في جبل نفوسة بأن يجتمعوا أيضا ويقرأوا القرآن الكريم ويدعوا الله سبحانه وتعالى لإخوانهم أن ينصرهم الله تعالى، وأن يثبت أقدامهم، وأن يمكنهم من نواصي أعدائهم القوم الكافرين، وقد امتثل الناس أمر الشيخ وسارعوا إلى التوبة والتخلص من التبعات، والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، وتجديد العهد بينهم وبين ربهم بأن ينصروه، وأن يستعذبوا العذاب في سبيله، وأن يقدموا أرواحهم رخيصة في جنب إعزاز دينه، وقد كان سكان الجزيرة آنذاك لا يزيدون عن ثلاثين ألفا بمن فيهم النساء والأطفال والعجزة، والبلد مقطوع من كل الجهات.

وقد بدأت تباشير الغزو، إذ وصل أسطول يتكون من حوالي عشرين سفينة، ونزل من الأسطول على زورق صغير رسول من القائد يحمل كتاباً إلى شيخ الجزيرة، يأمره فيه بتسليم الجزيرة، أو أن يستعد لحرب هذا الأسطول، فأجاب الشيخ قائلاً للرسول: قل لسيدك: إن الجزيرة لن تسلم نفسها حتى يكون أهلها جثثاً هامدة، وقد خرجت هذه الكلمة كأنها قذيفة خرجت من مدفع، ضربت ذلك القائد في صميم قلبه، فوقع بين أمرين: العاطفة المتأججة التي تدفعه إلى الانتقام من هذه الجزيرة التي سخرت منه، وبين الرجوع لتكوين قوة أكبر نظراً إلى الأثر الكبير لتلك الكلمة، فرجع أدراجه إلى طرابلس، ثم رجع إلى جربة بأسطول يتكون من مئة وعشرين سفينة، تحمل عشرين ألفاً من المقاتلين المتدربين على أحدث الأسلحة، المزودين بكل وسائل الحرب المتوفرة في ذلك العصر، ونزل هذا العدد الهائل على أرض الجزيرة، فكان عدد الذين استعدوا لقتالهم من أهل الجزيرة حسبما تذكر المصادر الأوروبية ثلاثة آلاف مقاتل، وكان أكثرهم عزلاً، وكانوا غير

مدربين على القتال، وإنما كان سلاحهم الوحيد الإيوان، وصلتهم بالله سبحانه وتعالى، وكان نزول جيش الصليبيين على ساحل الجزيرة مساء يوم الخميس، فبات المسلمون ليلة الجمعة بين تهجد ودعاء وابتهاال إلى الله سبحانه وتعالى، فأراد جيش النصارى شن حرب نفسية على المسلمين لإدخال الرعب في قلوبهم، فباتوا يطلقون المدافع والبنادق، وينشدون الأناشيد الحربية المصحوبة بالآلات الموسيقية، وعندما تحرك الجيش الصليبي إلى قلب الجزيرة خرج المسلمون لمقاومتهم.

كان الجيش الصليبي قد اتخذ خطة محكمة - فيما يبدو - فقد جعلوا أنفسهم صفوفاً، يواجه الجيش الإسلامي الصف الأمامي منهم، فإذا انهزم رجع إلى الخلف وتقدم الصف الذي خلفه للقتال، ثم الصف الثالث وهكذا، فلو تمكن المسلمون من دحر الصفوف جميعاً كانت الصفوف الأولى قد استعادت نشاطها بأخذها قسماً من الراحة، بينما الجيش الإسلامي ما كان يملك إلا صفاً واحداً في مقابل هذه الصفوف المتراسة، وقبل القتال قام أحد المسلمين فيه خطيباً، وحثهم على الاستشهاد، فقال فيما قال: إنَّ الشيء الذي لا يحل لأحد أن يحدث به نفسه هو الاستسلام، فلو بقي فرد واحد لكان عليه أن يقاتل حتى يلقى الله سبحانه وتعالى، ولا يستسلم، وما كاد القتال يستحر حتى اندحر من الصليبيين الصف الأمامي المواجه للصف الإسلامي، ثم تقدم الصف الآخر وتأخر الصف الأول لأخذ الراحة، فأخذ يحدث الصفوف الخلفية بما رآه من صمود المسلمين، وكيف شاهد الموت ينطلق من ذلك الصف كأنه حمم تقذفها البراكين، وكان ابن شيخ الجزيرة أبو الربيع سليمان بن أبي زكريا ينظر بعيني الحذر اليقظ، فرأى أن إنزال الهزيمة بالأعداء لا يكون إلا بإحداث ارتباك في جيش العدو، فأخذ ثلة من جيش المسلمين، وجاء من خلف جيش العدو وحال بينهم وبين سفنهم، وإذا بالصف الصليبي الذي اندحر وهو يحدث أصحابه بما شاهده من مواقف المسلمين، إذا بهم يرون الموت الزؤام يغشاهم كما يغشاهم الليل الذي لا مفر منه،

وشعروا أنهم محصورون من كل جانب، فإذا تقدموا شاهدوا الموت، وإذا تأخروا شاهدوا الموت، وإذا انطلقوا جهة الميمنة شاهدوا الموت، وإذا انطلقوا جهة اليسرة شاهدوا الموت، وأحسوا كأن الأرض من تحت أقدامهم تفجرت براكين وقذفتهم بحممها، وأن السماء قذفتهم بشهبها، فلا مفر لهم من الموت أبداً، فأخذوا يعدون إلى سفنهم والمسلمون خلفهم يقتلونهم ويأسرونهم، فما كادوا يصلون إلى البحر إلا وسقط منهم ثلاثة آلاف قتيل، وعدد من الأسرى يتراوح بين ستة آلاف وسبعة آلاف، وعندما وصلوا إلى الساحل وقد أنهكت قواهم ناموا هناك ليستعيدوا شيئاً من القوى، فشاء الله سبحانه وتعالى أن تصوّر الأحلام المزعجة لأحدهم أن المسلمين أحرقوا بهم من جديد، فأخذوا يتقاتلون فيما بينهم بعدما صرخ صارخهم أن المسلمين أحاطوا بنا، فلم يروا ملجأ إلا البحر، فأخذوا يقذفون أنفسهم في البحر ليسبحوا إلى السفن، فكان البحر يتلعثم ليؤيد الله به المسلمين، فوصل منهم عدد قليل إلى السفن، فأرسل الله ريحاً عقيمياً دامت مدة أسبوع، وحطمت ثمانية عشر سفينة من سفنهم، ثم عادوا أدراجهم إلى طرابلس، وقد أصيبوا بجراح لم يصابوا بها من قبل، ثم بعد مدة أرادوا غزو صفاقس لاستعادة كرامتهم، فخرجوا بأسطوهم الضخم، فخرج أهل صفاقس بما لديهم من أسلحة لملاقاتهم على شاطئ البحر، فلما رأى الصليبيون حماس أهل صفاقس المتأجج ولوا مدبرين، فناموا في جزيرة غير أهلة بالسكان فلما سمع عنهم أهل جربة انطلق منهم قرابة ستمئة رجل فوجدوهم نائمين، فقتلوهم عن بكرة أبيهم، ثم أخذوا يعدون العدة لمدة عشر سنين لغزو جربة مرة أخرى، فلما عادوا لقتالهم تلقاهم أهل جربة بتلك القلوب المؤمنة التي لاقتهم من قبل، فما كادت صفوف الصليبيين تندحرت حتى أمرهم قائدهم بالانسحاب، فرجعوا يجرّون أذيال الخيبة وراءهم.

ذلك كله يدلنا على أنَّ صلة العبد بالله تعالى هي الصلة التي يستمد منها العبد المدد من الله عزوجل، وأنَّ الإيمان هو القوة التي تتبخر أمامها القوى، وتتحطم أمامها الطاقات، وتذوب أمامها جميع العزائم^(١).

ولذا حاول أعداء الإسلام بما وقر في قلوبهم من كراهية هذا الدين، إضعاف هذه القوة الرهيبة بكل ما لديهم من إمكانية. يقول سماحته: "نحن ندرك أن أعداء الإسلام يدركون مدى أثر القوة الروحية عند المسلمين؛ لذلك يريدون أن يضعفوها بشتى الأسباب بكل ما يملكون من قوة، لأنهم يدركون أن هذه القوة لا يمكن أن تقف أمامها قوة قط، فهم يريدون إيهان هذه القوة بشتى الأسباب، بالمغريات، وبإغراق المسلمين في الشهوات، وبتزيين الحياة الدنيا لهم، وترغيبهم في الترف في هذه الحياة الدنيا، حتى يحقق بهم ما يحقق بالمترفين، ولذلك كان لزاما على الأمة المسلمة أن تتيقظ، وأن تعرف ما يريد أعداؤها بها، فتزكية هذه النفوس وتربيتها على الإيمان، والتقوى، والصلاح، والاستقامة، وحب الله، والتمسك بتعاليم القرآن من غير تفریط في أي جزئية من جزئياته، ولا تهاون في أي ذرة من الذرّات. ذلك هو السبيل الأمثل، والطريق الأقوم، الذي يجعل هذه الأمة تصل إلى ما تصبو إليه من ذروة الشرف، ومكان القيادة والإمامة بين الأمم جميعا"^(٢).

٦- إذكاء الهمة والعزيمة على الاستمرار في طريق الاستقامة على أمر الله،، والثبات على النهج القويم، والقضاء على دواعي الفتور، ووساوس التقاعس والإخلاق إلى الراحة، فهي بمثابة الوقود الذي لا بد منه لاستمرار مجاهدة النفس في صراعها المرير مع الهوى، والرغبات والنوازع، بما تضطلع به من صقل القلوب من الران، وتنقية النفس من شوائب الحياة، يقول عز

(١) جزيرة حربة، الشيخ الخليلي، ١/٨٣

(٢) تطهير القلوب، الشيخ الخليلي، ص ٤٨٠ / ١

وجل ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(١) ويقول سبحانه: ﴿ بُيِّنْتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾^(٢) وفي هذا يقول سماحته:

" على الإنسان أن لا يترك نفسه وهواها، بل عليه أن يقودها إلى الخير بسلاسل عزائم الإيمان، فتتقاد له، فهو عندما يعودها على أن يقودها إلى الخير لا بد أن تتقاد، أما أن أهملها فإنها تحب هذا الإهمال، وتغدو بعد ذلك نفساً منقاداً للشهوات، والعياذ بالله"^(٣)

فحرص الإنسان على استخدام وسائل التربية الروحية مؤدية به لا محالة إلى السمو الروحي، وأن تصبح تلك الوسائل سهلة ميسورة عليه، ﴿ تُوَيِّبُ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ وذلك باعتياده عليها حتى تصبح جزءاً من برنامج حياته اليومي، فتقوى عند ذلك إرادته بإذن الله تعالى.

٧- الوقاية من الكثير من الأمراض العضوية، والمساعدة على الشفاء منها، وهذا ما أثبتته العديد من الدراسات، والواقع المعيش، فالرجوع إلى الله تعالى، والتوبة والإنابة والاستغفار والدعاء مع الإخلاص في ذلك كله كفيلة باستئصال العديد من الأمراض المستعصية على الطب الحديث . ويكفي أن نمثل هنا بما يولده القلق من أمراض مصاحبة " فهو حالة شعورية بالضيق، مصحوبة بانعكاس عضوي على وظيفة أغلب أجهزة الجسم من تسارع في ضربات القلب، وضيق في التنفس، واضطراب في عمل جهاز الهضم، والأعصاب والعضلات، وعملية إفراز الغدد وغيرها "^(٤) وتشير دراسات

(١) سورة النكوت، الآية ٦٩

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٢٥

(٣) الفتور، الشيخ الخليلي، ٤٣٣ / ١

(٤) من علم النفس القرآن، عدنان الشريف، ص ٦٧

أخرى بالإحصائيات إلى أن الصلاة والدعاء ذات أثر كبير في الشفاء من الأمراض^(١)

هذه بعض الثمرات الدانية التي يجنيها العبد المسلم من ثمار مختلفة الطعوم من جنى غرسه الروحي، وفي مقدمتها الاستقامة السلوكية وفق المنهج الرباني الذي ارتضاه رب العالمين لعباده المؤمنين .

(١) انظر مثلاً د. سامر سقا أميني



الفصل الأول

وسائل التربية الروحية المعنوية

وسائل التربية الروحية

لقد تقدم الحديث عن أهمية التربية الروحية وضرورتها، فهي الأساس الذي يقوم عليه بناء الإنسان، وبدون تلك التربية يصبح الإنسان خواء هباء، مهما أوتي من قدرات جسدية، وطاقات فكرية، وقاعدة تلك التربية هي الإيمان بالله وحده لا شريك له، وجوهر ذلك الإيمان العلم، فإنَّ " للإيمان مسالك ومبادئ وغايات ، قد تكون من الدقة بحيث تخفى على من لم ينور الله بصيرته بالعلم، ويشرح صدره بالعرفان"^(١)

وسأدير دفة الحديث عن الوسائل - بإذن الله تعالى- بما يحقق الهدف الذي نسعى إليه، من جني الثمار الروحية ، مبتعدا به عن المسائل الكلامية، وأهم الأسس في هذه التربية - كما قدمت - الإيمان بالله تعالى، فالإيمان هو "أساس الهداية ، ومصدر التقوى ، وينبوع الفضائل"^(٢) كما وصفه سماحته.

وسائل التربية الروحية المعنوية

(١) الإيمان بالله :

أصل الإيمان " التصديق " نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾^(٣) ومأخذه من الأمن ، لأن المصدق آمن محدثه التكذيب "^(٤) والإيمان " قناعة في نفس الإنسان بحقائق يستشفها من وراء ستار الغيب ، وهذه القناعة إنما تبنى على اليقين "^(٥) التام ولا تجدي فيها الظنون، وأهم قضية إيمانية هي قضية وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وقد جاء جميع النبيين مؤكدين عليها

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٢ / ٣٤٢

(٢) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٢ / ١٢٦

(٣) سورة يوسف ، الآية ١٧ .

(٤) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٢ / ١٢٦ .

(٥) العقل نور السهي ، الشيخ الخليلي ، ١ / ٢٠٨ ج

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(١) فهو سبحانه الخالق لكل شيء ، والرازق لكل حي ، والمدبر للوجود بأسره ، وحده لا شريك له في الصفات والعبادة والأفعال، فعلى الإنسان أن يؤمن بذلك إيماناً راسخاً " يلامس شغاف القلب، ويمتلك المشاعر والعقل والوجدان ، فإن الحياة بدون هذا الإيمان حياة خاوية الروح ، خاوية الفكر، مظلمة الجوانب، لا قيمة لها عند الله، ولا قيمة لها عند من أدرك الحقيقة بالتلقي عن الله سبحانه وتعالى؛ فإنَّ الإيمان هو الذي يحلُّ ألغاز هذا الوجود، ويفسر حقيقته، ويبين للإنسان مبدأه ومصيره، ويبين له الحكمة من وجوده، ويبين له وظيفته في هذا الوجود ، ولذلك من حُرِّم هذا الإيمان فقد حرم خير الدنيا والآخرة، ومن رزق هذا الإيمان رزق خير الدنيا والآخرة"^(٢)

وقد وهب الله تعالى الإنسان نور العقل الذي تتبدد به غياهب الشك والحيرة، ولأجل ترسيخ دعائم هذا الإيمان فإنَّه مطالب أن يستعمل عقله حتى يستلهم الحقائق^(٣) "ويقلب صفحات هذا الكون المترامي الأطراف ويقرأ آيات الله في نفسه وفي سائر الموجودات من حوله، فإذا رسخ الإيمان في قرارة نفسه فإنَّه " لا يلبث أن يتفاعل مع إيمانه تفاعلاً تاماً، في كل تصرفاته وأعماله ، بحيث يكون ما يصدر عنه من الفعل والترك، والسلب والإيجاب، انعكاساً لأثر هذا الإيمان الراسخ في نفسه"^(٤) وما قيمة إيمان بالله لا يعدو أن يكون لقلقة باللسان، أو أن يكون في طوايا النفس، والسلوك يناقض ذلك كله ويصادمه، فإنَّ من آمن بشيء واعتقده ظهرت ترجمة ذلك في أفعاله وأقواله ، ولذا ذهب أصحابنا والجم الغفير من علماء السلف إلى " أن الإيمان ليس محصوراً في الاعتقاد، وإنما يصدق عليه مع ما يقتضيه من صادق القول

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٥

(٢) وحى المنابر، الشيخ الخليلي ١/ ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣) العقل نور إلهي، الشيخ الخليلي، ٢٠٨ / ج

(٤) تطهير القلوب، الشيخ الخليلي، ٤٨٠ /

وصالح العمل ... وروي بإسناد صحيح عن البخاري قال : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أنّ الإيمان قول وعمل ، وذكر ابن كثير في تفسيره أنّ الشافعي وأحمد بن حنبل وأبا عبيدة وغير واحد حكوا الإجماع عليه " (١)

وبهذا الإيمان يشعر المؤمن بالأنس ، والطمأنينة ، ويخلق بروحه وعقله في ملكوت الله تعالى الفسيح ليستجلي منه " مشاهد جلال الله وجماله، وعلوه وكبريائه ، وعزته سبحانه وتعالى، ونعمته على خلقه " (٢) وحينئذ تتجه نفسه بالكلية إلى الاعتقاد الصحيح اللائق بجلال الله سبحانه، فينزهه عما لا يليق به، فتزداد عظمته في نفسه، وتزداد خشيته في قلبه، يقول سماحته : " العقيدة مؤثرة في الحياة تأثيراً عجبياً إيجابياً وسلبياً، فعندما تكون العقيدة منحرفة؛ فإن تأثيرها يكون تأثيراً سلبياً " (٣)

وهذا المعنى يشمل كل ما يعتقدّه الإنسان فيما يتعلق بخالق الوجود سبحانه وتعالى، وسواء أكان الإنسان ممن يمجّد وجود الله عز وجل، أو كان ممن يؤمن به سبحانه وتعالى، ولكنه يصفه بما يتنافى مع عزته وكبريائه وجلاله.

وسائل ترسيخ الإيمان في النفوس :

هناك وسائل كثيرة ترسخ دعائم الإيمان في نفس الإنسان ، وقد أوصى بها سماحته في توجيهاته، وقد اتبعها في منهجه التربوي ، وسأقتصر على أهم تلك الوسائل ، عامداً إلى الشرح والتوضيح - أحيانا - لتكون عوناً للمحتاج على استحضار تلك المعاني بغية التزكية والتهذيب.

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ١٣٠ / ٢ .

(٢) وحي المنابر، الشيخ الخليلي، ١ / ١٣٦ .

(٣) الخطوات العملية للشخصية، الشيخ الخليلي، ١ / ٣٩٢ .

.التفكر:

يدعو سباحته في كتاباته ومحاضراته إلى ضرورة التفكر في مخلوقات الله تعالى، واستخدام العقل في تدبر آيات الله سبحانه في الأنفس والآفاق، فمن ذلك قوله في جواهر التفسير: "إنَّ من الأمور التكليفية ما تكون طريقة معرفته العقل، كمعرفة الخالق عز وجل وصفاته الواجبة، وانتفاء أضدادها، ولذلك يحيل القرآن الكريم إلى التفكر في ملكوت السموات والأرض؛ لأجل الاهتداء إلى معرفة الخالق وعظمته، وتقوية الإيمان به عز وجل، ويشير القرآن الكريم إلى أنَّ الذين يستفيدون من ذلك هم أولو الألباب الذين يستخدمون ما وهبهم الله تعالى من طاقات العقل والفكر في استجلاء الحقيقة، واستظهار الحق"^(١)

ويشير سباحته إشارة واضحة إلى دور التفكر في آيات الله، وإلى آثاره الروحية، وفاعليته في تقوية الصلة بالله، يقول: "ولعمري إنَّ هذه الطريقة [تأمل الآيات الكبرى في فسيح الكون] هي أنجح طريقة في إيقاظ الفطرة من سباتها، وتبنيها من غفلتها، وكانت هي الوسيلة لإقناع الناس بهذا الدين من غير تعمق في الجدل، ولا غلو في البحث"^(٢)

"لذلك نجد الآيات القرآنية تقود العقل إلى التفكير السليم، وتفتح له المنافذ على البصيرة، لكي يتدبر آيات الله سبحانه وتعالى في الإنسان، والكون، والحياة؛ ليصل منها إلى إدراك العقيدة الحقَّة، في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَالِهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لِّإِلَهِ الْإِلَهِاتِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾"^(٣)

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢٨٩/١

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٤٣١/٢

(٣) سورة البقرة، الآية ١٦٣

(٤) المدخل العام إلى دراسة العقيدة، الشيخ الخليلي، ص ٢٠

ويلفت سياحته نظر الناس بأسلوبه التربوي الشيق إلى بعض الآيات، رجاء تعميق الإيمان وترسيخه في نفوسهم؛ لتزكوا بذلك نفوسهم، وتقوى صلتهم بخالقهم.

١ - التفكير في خلق الإنسان

كثيراً ما يتحدث ساحة الشيخ في هذا الجانب المهم الذي يبصر الإنسان بأصل خلقه، وتطوره من طور إلى طور، فإن الذي خلقه من عدم بهذه الطريقة العجيبة قادر على أن يعيده خلقاً آخر، فطمئن نفسه، ويستشعر عجزه أمام قدرة الله سبحانه. وسأنقل هنا مقتطفات من تلك اللفات بها فيه إثبات الأسلوب التربوي في التغذية الروحية، دون حصرها؛ لتعذر ذلك بسبب عطاء سياحته الكبير.

يلفت سياحته النظر إلى الطريقة التي يتكون بها الجنين، مع أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق ما يشاء كما يشاء، بمجرد إرادته خلق ذلك الخلق، وفي أقل من لمح البصر، يقول: " كما أنه سبحانه وتعالى لو شاء أن يخلق الناس والبهائم من غير لقاء بين الذكر والأنثى، ومن غير مرور بأطوار الحمل لكان ذلك، ولكنه -جلت حكمته- أراد بتنقل الأشياء من طور إلى آخر، ونقلها من حال إلى أخرى، تذكيراً للعباد، وتبصيراً بحكمة المبدأ وإمكان المعاد"^(١)

ولتتابع مراحل خلق الإنسان، كما أرشدنا إلى ذلك القرآن الكريم في الكثير من الآيات، منها قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٢)

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٤٢٤/٢. وأنظر تفاصيل خلق الإنسان في "الجزء الأول من "برهان الحق" لسياحه

(٢) سورة المؤمنون، الآية ١٢-١٤

يقول سماحته: "أول ما بدأت به الآية بيان إن الطين هو العنصر الأول الذي خلق منه الإنسان، ودلالاتها على ذلك واضحة لا غبار عليها، وفي الإنسان نفسه شواهد جمة على صدق هذا الخبر، فالعناصر الترابية كلها موجودة في جسمه"^(١)

ويزيد سماحته هذه الفكرة إيضاحاً في موضع آخر من جواهره، يقول: "فقد كان الإنسان ميتاً؛ لأنَّ عناصره كانت منبثة في طبقات الأرض الجامدة، والسائلة، والغازية، ثم أخذت تتدرج في الأطوار وتنتقل إلى أن كون الله فيها الغذاء الذي تكون منه الدم، فحول الله منه ما يشاء إلى مني دافق، يتدرج هو أيضاً بعد استقراره في الرحم من طور إلى آخر، حتى يخرج منه هذا الكائن الذي نفخ الله فيه من روحه، وأفاض عليه من نعمه، وأكمل حواسه ومشاعره"^(٢)

فمن خلاصة التراب يتكون الحيوان المنوي في الرجل والبيضة في المرأة، وفي هذين الاثنين أسرار عجيبة مذهلة يقول سماحته: "الله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان الذي هو عالم أصغر من نطفة مهينة حقيرة، وهي التي يعبر عنها بالحيوان المنوي فإن هذا الحيوان المنوي في دقته وحقارته بحيث لا يكاد يبصره الإنسان حتى بأشعة المجهر، ويقال بأن الدفقة الواحدة من المنى فيها مئتا ألف من الحيوانات المنوية،^(٣) فالإنسان يخلق من حيوان منوي واحد يحمل جميع الخصائص البشرية العامة والخصائص الأسرية الخاصة، فهو كشرط ينطوي على الشيء الكثير، بحيث لو نشر لكان آية باهرة، وقد جعل

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ١ / ١٤٠

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ٥١٦

(٣) ذكر سماحته هذا الرقم منذ سنين في إلقاء محاضراته، أما في كتابه الأخير "برهان الحق" فقد ذكر آخر الاكتشافات العلمية بأن الدفقة الواحدة تحوي ٤٠٠ مليون حيوان منوي ونقل في الحاشية بأنه جاء في كتاب آيات الله المبصرة للأستاذ الدكتور توفيق علوان، ص ٢٢ أن الدفقة الواحدة من منى الرجل تحتوي على ٥٠٠ مليون حيوان منوي. وللمزيد من الشرح والتوضيح لمسيرة الخلق راجع "برهان الحق" لسماحته.

الله سبحانه وتعالى هذه الأسرار التكوينية يشتمل عليها هذا الحيوان المنوي الصغير الحقيق، وجعل الله سبحانه وتعالى تفاعلاً عجبياً بين هذا الحيوان المنوي والبيضة، حيث يلتحم الحيوان المنوي بالبيضة التحاماً عجبياً، ويبدأ التكون بمشيئة الله - سبحانه وتعالى - في هذه المرحلة المبكرة بحيث تذهب هذه البيضة إلى جدار الرحم، وفيها خاصية حادة تجرح جدار الرحم؛ فينهمر ودق من الدم، بحيث تسبح هذه البيضة مع ما التحم بها من الحيوان المنوي في بركة من الدم، وتتغذى شيئاً فشيئاً حتى تتخلق بمشيئة الله سبحانه وتعالى، والقرآن الكريم يشير إلى ذلك عندما قال الله عز وجل: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾^(١) "فإنَّ الحمل من أول الأمر يكون بمشقة... ثم لا يلبث هذا الكائن الجديد أن يتطور من طور إلى طور حتى تتكون منه ملايين الخلايا..."^(٢) وقد أشار سباحته أن لجسم الإنسان ألف مليون مليون خلية"^(٣) وأن كل خلية سفر حافل بأسرار الله تعالى في الخلق"^(٤) أو أن كل خلية عالم بذاته"^(٥) وأن شرح خريطة الجينات وحدها يستغرق ما يقارب ثلاثمئة سنة.^(٦)

وتستقر تلك النطفة بأمر الله " في قرار مكين ، وهو الرحم ، وما أدق هذا الوصف وأكثر انطباقه على طبيعة الرحم التي لم تصل إليها عقول البشر إلا في العصر الحديث، فالرحم تحيط به عظام الحوض التي تحفظ سلامة الجنين مما يصيب بطن أمه وظهرها من اللكبات والهزات. وعلى بابه حماية للجنين تتكون من إفرازات تقيه مخاطر الجراثيم التي يخشى منها الفتك به لولا

(١) سورة الأحقاف، الآية ١٥

(٢) آيات اله في الانسان، الشيخ الخليلي، ١/٣٩٠

(٣) برهان الحق ، الشيخ الخليلي، مخطوط، ١/١٦٩

(٤) المرجع السابق ، ١/ ١٧٠ وللزيد من التفاصيل أنظر برهان الحق ١/ ١٦٩ - ٢٢٤

(٥) لقاء المؤلف بسماحة بتاريخ ٥/ محرم / ١٤٢٩هـ / ١٤/ ١/ ٢٠٠٨م

(٦) حدثني بذلك سماحة تقياً عن أ. د. خالد جلي. بتاريخ ٥/ محرم / ١٤٢٩هـ / ١٤/ ١/ ٢٠٠٨م

حيلولتها دون ذلك، ومثّل عظام الحوض الحصينة التي تحمي الجنين مثل الحصن المنيع، ومثّل الإفرازات التي تدفع عنه الجراثيم، مثل الجنود المدافعين"^(١)



صورة الجنين في بطن أمه

وهذه النطفة التي استقرت في ذلك القرار المكين وهي لا تكاد تبصر بأشعة المجهر يطورها الله سبحانه تعالى طوراً من بعد طور، فتصبح علقة بسبب علوقها بجدار الرحم، ثم مضغة بين جوانب الرحم، فهي أشبه في تردها باللقمة التي يمضغها الأكل ثم يتكون منها الهيكل العظمي الذي يكسى بعد ذلك باللحم. والعلم الجديد يقرر أنه لا تنبت خلية من خلايا اللحم حتى تتكون جميع خلايا العظام، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَا خَلْقًا آخَرَ﴾^(٢) وتبين الآية تحول الجنين بعد ذلك إلى خلق آخر، حيث تجتمع فيه صورة الإنسان وتنفخ فيه الروح"^(٣)

والروح أمرها يدعو إلى التفكير والاعتبار والاستسلام المطلق لمن بيده الخلق والأمر سبحانه جل في علاه. يقول سباحته عن الروح: إن الروح سر

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ١/ ١٤٠

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ١/ ١٤١ الإيمان بالله، الشيخ الخليلي، ص ٩، ١٠

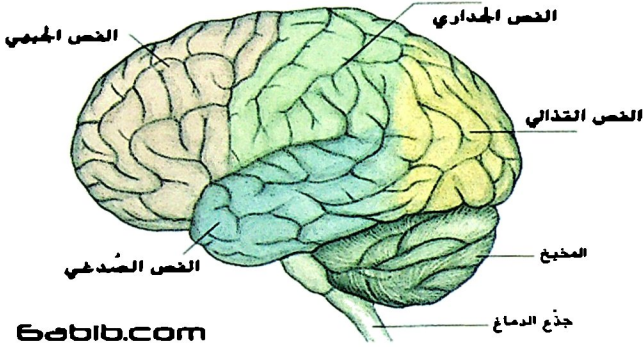
من أسرار الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال عز وجل: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . فالله سبحانه وتعالى استأثر بعلم الروح التي هي سر من أسرار غيبه، فالإنسان يرى العجب العجيب في تأثير هذه الروح؛ فإن الإحساس والمدارك المختلفة والمشاعر الظاهرة والباطنة، إنما يترتب وجودها جميعا على وجود هذه الروح في الجسم فإذا انتهت هذه الروح من الجسم انتهى كل شيء ولا يدري الإنسان كيف تتصل هذه الروح بالجسم؟ ولا يدري كيف تنفصل عنه؟ وما هي حقيقتها؟

وإنما غاية ما يكمن أن يتوصل إليه هو اليقين القاطع بأنّها سر من أسرار الله تبارك وتعالى حلّ في هذا البدن؛ فحلت معه الحياة، فإنّ البدن مع خروج الروح يتوقف نموه، بل تتلاشى أجزاؤه، وتنحلّ خلاياه شيئا فشيئا، بل تعود هذه الخلايا إلى الطبيعة الأولى كما كانت من قبل ترابا^(١)

وسأعود إلى الحديث عن الروح مرة أخرى بعد تتبع مراحل نمو الإنسان حتى وصوله إلى الموت والرحيل عن هذه الحياة الدنيا، ولنتفكر في هذا الجسم وما بين أجزائه من التكامل، يقول سماحته: "جسم كل إنسان ذكراً كان أو أنثى ينطوي على ستين مليون مليون خلية^(٢) وهذه الخلايا لم تخلق سدى بل لكل خلية وظيفة في حياة الإنسان . والدماغ وحده الذي هو مركز الحركة والحس في الجسم يشتمل على أربعة عشر مليارا من الخلايا : ألف مليون خلية منها وظيفتها الاستقبال والتصدير، وهي الخلايا العصبية، تمتد منها أسلاك دقيقة إلى الجسم تدعى بالأنسجة العصبية، بواسطتها نسمع ونرى ونتذوق ونتحرك ونحس، إذ هي التي تؤدي إلى الدماغ الأصوات والصور فالذبذبات الضوئية يلتقطها مئة وثلاثون مليوناً من الخلايا

(١) آيات الله في الإنسان

(٢) ورد في برهان الحق لسماحته بأن جسم الإنسان يحتوي ألف مليون مليون خلية أنظر ١٦٩/١



صورة الدماغ البشري

البصرية في كل عين وهي تقوم بدورها لنقلها إلى الدماغ، والأصوات تلتقطها عشرة آلاف خلية لتؤديها إلى الدماغ كذلك، وتنقل أنواع المذاقات إلى الدماغ ثلاثة آلاف خلية وإذا لامست الجلد حرارة أو قاربه تولى ثلاثون ألف خلية نقلها إلى الدماغ، وإذا لامست البرودة الجسم نقل ربع مليون خلية حسها إلى الدماغ، فإذا شعر بها الدماغ أقشعر الجسم وتنفست الشرايين الدموية؛ فتؤدي إليها الدورة الدموية مزيدا من الدم لسد هذا الفراغ، والحرارة إذا ما زادت تولى مجموعة من الخلايا نقلها إلى الدماغ؛ فتفرز ثلاثة ملايين غدة من الغدد العرقية عرقاً بارداً يجري على الجسم، وهذه الأشياء كلها مقدرة تقديراً في الإنسان، والطاقات المتنوعة الموجودة فيه جعلها الله بمقادير معينة، فالطاقة البصرية لو زادت عن هذا المقدار لكانت شاغلا للإنسان عن وظيفته الضرورية لرؤيته ما لا داعي إليه كالميكروبات الدقيقة، ولو نقصت لما أمكنه أن يؤدي وظيفته الحيوية على ما يرام، فالطاقة السمعية بمقدار حاجته من الأصوات، ولو زادت لكان سببا

لبلية فكره، لما يتزاحم عليه من الأصوات التي هو غني عنها، ولو نقصت لتعسر عليه القيام بمهامه"^(١)

ولو تفكرنا في القدرة التي أودعها الله في الدماغ لوجدنا أمراً عجباً فبالإضافة إلى ما تقدم ذكره من عمل الدماغ في إدارة جسم الإنسان فإنه يتمتع بقدرة مذهلة في حفظ المعلومات، يقول سبحانه وتعالى فيه من الطاقات لو أريد لما يسمى قوة الدماغ وما أودع الله سبحانه وتعالى فيه من الطاقات لو أريد لما يسمى الآن بالعقل الالكتروني أن يحل محلها، ويقوم بدور القوة الدماغية، لاحتياج إلى أجهزة تملأ الكرة الأرضية لأجل تكوين هذه القوة فيما يسمى بالعقل الالكتروني، وقد جعل الله سبحانه وتعالى الدماغ محتوياً على هذه الطاقة الغيبية العجيبة، وقد جعل الله سبحانه وتعالى الإنسان يحفظ معلومات كثيرة ولا يمتلئ بها الدماغ، فمهما ورد على الدماغ من معلومات فإن الدماغ يستوعبها جميعاً"^(٢)

ويقول سبحانه بعد أن أورد مثل هذا في البرهان: "فسبحان من أودع هذه الطاقة كلها في جهاز لا يتجاوز وزنه (٣٥٠) غراماً في كل مخلوق من البشر"^(٣)

إن تلك العمليات تجري بسرعة فائقة، لا يشعر بها الإنسان البتة، وليتأمل الإنسان كذلك في ما أودع الله فيه من الحواس والقدرات المذهلة، والطبائع المتعددة، يقول ساحة الشيخ: "إذا تأمل الإنسان في نفسه رأى أمراً عجباً، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي أودع فيه الحواس المختلفة، والذي جمع فيه الطبائع المتنوعة، والذي نسق بين جميع أجزاء جسمه، ونسق بين كل خلايا جسمه حتى صارت كالشيء الواحد، لا يمكن إلا أن يكون

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ١٥٠

(٢) آيات الله تعالى في الإنسان، الشيخ الخليلي، ٣٩٠ / ١

(٣) برهان الحق، الشيخ الخليلي، ١ / ٢٠٤

قديراً على كل شيء، ولننظر كيف هيأ الله سبحانه وتعالى للإنسان وسيلة الإبصار بطرق معقدة جداً، وكيف هيأ له وسيلة السمع، ووسيلة التذوق، ووسيلة اللمس، وكيف هيأ له وسيلة التخيل وتصور الأشياء، وهيأ له وسيلة الحفظ، وهيأ له وسيلة التحرك والانتقال بنفسه من مكان إلى آخر، يجد الإنسان في ذلك من نفسه أمراً عجباً^(١)

ولا ينسى سماحة الشيخ أن يلفت النظر إلى ذلك التفاوت العجيب الغريب بين أفراد الجنس البشري، سواء كان ذلك التفاوت في الشكل الخارجي، أو الطباع والملكات الداخلية، يقول سماحته: "الكائن البشري تتفاوت أفراداه تفاوتاً عظيماً من كل ناحية من النواحي، سواء من ناحية القوى الظاهرة أو القوى الباطنة، سواء من ناحية المواهب الحسية أو المواهب المعنوية، فإنَّ التفاوت جد عميق بين أفراد هذا الجنس، نحن لو نظرنا إلى المخلوقات الأخرى لوجدنا أفرادها متقاربة في طبائعها مهما حصل من تفاوت بينها، فلو نظرنا إلى المخلوقات الشرسة مثلاً التي تملك الشجاعة؛ فإنَّ هذه الشجاعة فيها متقاربة، أي في أفراد الجنس الواحد، فلو نظرنا إلى طبع الذئب وطبع النمر مثلاً لوجدنا الشجاعة في الذئب والشجاعة في النمر متقاربة، لا تكاد تتفاوت بين أفراد هذا الجنس أو ذاك الجنس، فمن شأن الذئب ومن شأن النمر لو أصيب أن تشتد جرأته أكثر فأكثر، أما الكلب وفيه الجرأة فهو بخلاف ذلك، فإنَّ من شأنه إن أصيب أن يرجع القهقري، وأن ينثني إلى الخلف، والإنسان في أفراداه التفاوت الكثير، فمن أفراد الجنس البشري من هو أشجع وأجراً من الأسد، ومن أفراد الجنس البشري من هو أشد جبناً من الصفردي، والذين فيهم الشجاعة هم متفاوتون، فمنهم من يكون طبعه كطبع الذئب، وكطبع النمر، ومنهم من يكون بخلاف ذلك،

(١) آيات الله تعالى في الإنسان، الشيخ الخليلي، ١/٣٩٠

فبمجرد إصابته بضربة من قبل عدوه ينثني إلى الخلف ولا يملك قوة على التقدم^(١)

يوصل سماحته حديثه في بيان هذا التفاوت فيقول :

"كذلك لو نظرنا في المواهب العقلية، فبعض الناس عقولهم تسع رحاب الفضاء ، وبعضهم لا يكاد عقلهم يتجاوز - لو قيس - أن يكون كسم الخياط، ومن حيث الأخلاق أيضا هم متفاوتون تفاوتاً كبيراً، منهم من جعله الله سبحانه وتعالى مطبوعين بالخلق الحميد الفاضل، ومنهم من هم بخلاف ذلك، منهم من هم كالملائكة في عليائها، أي يشبهون الملائكة الأعلى، ومنهم من هم أخط من الفئران ومن الزواحف السامة، كذلك أيضا من ناحية التفكير: بعضهم من يفكر في يومه ولا يفكر في مستقبله، وبعضهم بخلاف ذلك، فهذا التفاوت لا يرجع إلى إرادة الإنسان نفسه إنما يرجع إلى موهبة الخالق الذي خلقه، فهو آية من آيات الخالق العظيم الذي وهب الناس هذه المواهب العظيمة، نجد أن أحد العلماء يتحدث عن تفاوت الناس فيقول: إنَّ الناس بما طبعهم الله سبحانه وتعالى عليه هم متفاوتون، بحيث أن بعضهم لا يكاد يسوي بكرة، وبعضهم يكون أرقى من الأفلاك الزاهرة"^(٢)

ويتحدث سماحته عن التفاوت بين الناس في الرحمة والتضحية في سبيل الآخرين وسائر الصفات البشرية، كما يتحدث في العديد من المواضيع عن التفاوت في الطول والقصر وفي الألوان كذلك، فمنهم الأبيض ومنهم الأسمر وبين ذلك درجات من الألوان، فضلا عن الاختلاف في الشكل والوجه وصورته، ولو فكر الإنسان ملياً في صفاته، وحاول مقارنتها بصفات الآخرين في محيطه ممن يعايشهم؛ لوجد تبايناً عظيماً، فمن الناس من هو

(١) آيات الله في الإنسان ، الشيخ الخليلي، ٣٩٠/١

(٢) آيات الله في الإنسان ٣٩٠/١ وانظر جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٣ / ١٠

مكفهر الوجه مقطب الجبين، لا يكاد يتسم إلا لماماً، وكأنَّ ارتسام الابتسامة على ثغره أشق عليه من خروج روحه، ومنهم من لا تفارق الابتسامة محياه، ومنهم الحليم الصفوح الذي لا تكدر بحره الدلاء، ومنهم من لا تستطيع التحرش به حتى يهب في وجهك كالأسد الهصور، أو النار المشتعلة، مهما كان السبب تافهاً، ومنهم الذكي النبيه الفطن الدقيق في ملاحظته، العميق في تفكيره، ومنهم البليد الأبله الذي لا يكاد يفهم .

والله في خلقه شؤون، ومن هذا التفاوت الذي يحير الأبواب هو تفاوت الأعمار ، فمنهم من يعمر سنين عديدة ، ومنهم من يموت بعد ولادته بساعات أو أيام ، ذلك لأنَّ أمر الروح كما تقدم في يد مالك الملك سبحانه وتعالى ، يقول ساحتها:

" وأمر الروح لا تخضع لمقاييس البشر ولا لتجارب البشر، والناس لا يستطيعون مهما أوتوا من علم ومن تجارب أن يحددوا حياة إنسان بعينه. هذا أمر تعجز عنه ملكات البشر؛ لأنَّ القدرة عليه إنَّها هي قدرة خالق القوى والقدر، الذي يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل، والذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، والذي يدبر الأمر في السماء والأرض.

فقد يوجد بيننا إنسان قوي الجسم، يتمتع بحيوية وشباب، وبكل ما يجعل الناس يظنون أنه سيعمر عمراً مديداً ، ولا يفاجأ بأي سبب من أسباب الموت، ولكن فجأة يموت ، وقد يوجد مريض يتقلب في فراشه دهرأ طويلاً وزمنأ مديداً، يعاني ما يعانيه والناس يظنون أنه لن يتجاوز بضع ساعات عندما ينظرون إلى حاله، ولكنه يعمر عمراً مديداً، ومن أمثلة ذلك أن أحد المشايخ الذين كانوا يعانون أمراضاً ثقيلة، وقد كان طاعناً في السن، وكان في أحد المستشفيات ، وقد تعرض لأنواع متعددة من الأمراض، وتعرض لعمليات متعددة، وبينما كنت نائماً في ليلة من الليالي قبيل الفجر إذ سمعت جرس الهاتف، وأخذت الهاتف وكانت المكالمة من المستشفى،

وأخبرت عنه بأنه الآن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولكن لم تمر فترة طويلة من الوقت حتى تمائل للشفاء بقدرة الله تعالى، وعادت إليه صحته، وخرج من المستشفى، واستقبل شهر رمضان، وأخبرت عنه أنه كان يؤم الناس في صلاة التهجد، ويقرأ في الليلة الواحدة جزءاً من القرآن، في المقابل هناك شاب آخر قوي الجسم، وكان يمشي عشرات من الأميال على الأقدام من غير أن يشعر بأي تعب، ولا بأي ملل، وقبيل وفاته قطع على الأقدام مسافة حوالي ثلاثين كيلومتراً من غير أن يشعر بأي تعب، ولكن وهو في ريعان نشاطه وفي أوج قوته، قال: أحس بطعنات في صدري، وأريد أن أنام، فنام، ولما جئى إليه بعد لحظات ليوقض من نومه إذا هو ميت^(١)

ومن المعلوم أن الله تعالى كرم هذا الإنسان تكريباً، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، ولكن بجانب هذا التكريم الإلهي لهذا الكائن البشري فإن الله ابتلاه بنقص ذاتي لئلا يذهب به الغرور أنه أوتي ما أوتي باستحقاقه، ومن مظاهر هذا النقص الضعف الجسمي، فإن كل ما يصيبه يؤلمه أكثر من إيلاام غيره من المخلوقات الحية، ومن مظاهر نقصه ضرورته إلى النظافة والزينة، فهو دائماً بحاجة إلى الماء للاستنجاء والاستحمام، وإلى السواك وإزالة التفت عنه، فلو لم يستنج ويستحم لنتن، ولو لم يستك لبخر، ولو لم يلق التفت عنه لتسؤه^(٢)

ومما يدعو إلى الاعتبار من مظاهر الضعف الإنساني حاجته الملحة إلى النوم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^(٣) وهو على أي حال لا يستطيع النوم واقفاً، فإن داعب النعاس عينه لا يملك إلا أن يهوي إلى الأرض، وينطح مستلقياً على طوله

(١) آيات الله في الإنسان، الشيخ الخليلي، ١/٣٩٠

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٩/٣

(٣) سورة الروم، الآية ٢٣

كأنه كومة من التراب ، وحين ينهك جسمه الإرهاق والتعب يرتمي على فراشه أشل القوى، لا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه، وما يلبث أن يغرق في نوم عميق أشبه ما يكون بالموت، لا يدري بما يدور حوله، وقد تعطلت حواسه عن العمل، حتى إذا أخذ قسطاً من النوم، استيقظ كأنه بشر آخر من حيث النشاط والقوة والحيوية، فما الذي حدث في حالة النوم؟! إنك لتنظر - مثلاً - إلى جموع الحجيج في ليلة المبيت بمزدلفة فتراهم مبعثرين على الأرض وهم رقود، أين ذهبت قواكم؟ إنك أيها الإنسان في منتهى الضعف، فإن لم تنم اليوم فغداً وإلا فبعد غد، ولا أظنك تقوى على أكثر من ذلك في الحالات الطبيعية، وإلا أصبت بمرض عقلي يؤدي بك إلى الجنون . فسبحان الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم .

حقاً إنَّ " الإنسان عالم فسيح ، بل هو عوالم ، فطبيعته عالم ، ونفسه عالم ، وأفكاره عالم ، ومشاعره عالم ، وغرائزه عالم ، وحواسه عالم ، بل الروح التي هي من أمر ربي عالم " (١)

ونكتفي بما تقدم من إشارات إلى بعض الآيات في خلق الإنسان بغية التدبر، واستشعار عظمة المولى جللت قدرته المؤدية إلى طاعته، فهناك كتب متخصصة في هذا الموضوع، ولا بأس أن نسرده بعض الآيات القرآنية هنا لتعين القارئ على التدبر، منها قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿١﴾ وَلسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٢﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿٣﴾

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٢﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿١﴾ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٣﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٤﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٥﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿٦﴾

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ١٤٩/١

(٢) سورة البلد، الآية ٩

(٣) سورة الطارق، الآية ٧

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾^(١)
 ﴿مَنْ خَلَقْتُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾^(٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٣﴾ ءَأَنْتُمْ
 تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٤﴾ مَنْ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ
 ﴿٥﴾ عَلَيَّ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ
 النِّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٣)

٢- التفكير في المخلوقات المحيطة

وأعني بها ما يحيط بالإنسان في بيئته ، وما أكثرها بل لا يقدر على حصرها إلا من خلقها، فهو أحاط بكل شيء علما، فما على الإنسان إلا التأمل "فإن ذرة في الوجود هي حجة قاطعة على وجوده سبحانه ، ودليل ساطع على صفاته اللائقة بجلاله"^(١) يقول سماحته: " ولا يخلو شيء في الوجود من آيات الله ، فكل ذرة فيه منطوية على ما لا يحصى من الآيات الدالة على قدرة خالقها وعلمه وحكمته"^(٢) وهي كذلك " تنبئ بلسان حالها أنها مفتقرة إلى واجب الوجود لذاته، وأنها لا يمكن أن تقوم بنفسها ، ولذلك يقول أحد علمائنا : " إن كل ذرة من ذرات الكون هي كلمة من كلمات الله ناطقة بوجوده سبحانه ، وما عداها فهو كالشرح لتلك الكلمة"^(٣)

ثم يوجه سماحته إلى ضرورة التفكير فيقول : " لذا من الضروري أن يفكر هذا الإنسان في المخلوقات من حوله، أو يتدبر في إبداع هذا الكون

(١) سورة الفرقان ، الآية ٥٤

(٢) سورة الواقعة الآيات ٥٧- ٦١

(٣) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١/ ٢٢٠

(٤) السابق ، ٣/ ٦٢

(٥) سؤال أهل الذكر جمادى الثاني ١٤٢٥

وعظمته، فيعرف ربه سبحانه وتعالى، وأنه خلقه ثم يميته، ثم يحميه حياة أخرى^(١)

ويقول سماحته: "وأول ما ينبغي أن نلتفت إليه من نعم الله التي لا تحصى ولا تستقصى هذه الأرض التي نحيا عليها، وكيف مهدها الله لنا، وجعلها كالفراش، يقول سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمَاهِدُونَ﴾^(٢) ويقول: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٣)" فهي كالفراش من حيث أنهم يتقبلون عليها حسبما أرادوا، فعلى ظهرها يمشون ويقعدون وينامون، ومن حكمته سبحانه لم يجعلها رخوة كالوحدل والدقيق، ولا لطيفة كالماء والهواء، ولا صلبة كالصلد، بل جعلها مهيأة لراحة الإنسان كما يقتضيه حاله^(٤)

وقد أودع الله في هذه الأرضِ وسخر فيها كل ما تستلزمه حياة هذا الكائن البشري الكريم، ونجد أن الله سبحانه وتعالى يسر للإنسان ما كانت حاجته إليه أدهى بدون كلفة وبدون مشقة، فالإنسان أحوج ما يكون إلى النفس وهذا الأكسجين مهياً له لجميع أحواله، يستشقه في حركته وفي سكونه، وفي يقظته وفي نومه، وفي راحته وفي تعبته، وفي شدته وفي رخائه، وفي فرحه وفي حزنه، وفي جميع أحواله، يستشق هذا الأكسجين ليتغذى به ولينتعش به، فلو أن الله تعالى قطع عنه الأكسجين من الذي كان يأتي به؟ ومع ذلك لا يكلفه ذلك أي مأونة، ولا يكلفه ذلك أي مغرم فهو يستشقه وهو نائم بحيث لا يشعر أبداً، وكذلك إذا جئنا إلى ما بعد ذلك، فالماء في الجسم بحاجة إليه، وحاجته أقل من حاجة الهواء، وقد جعل الله تعالى الماء ميسراً أكثر من الطعام، ولكن هو أقل يسراً من الهواء فهو ليس

(١) المدخل العام لدراسة العقيدة، الشيخ الخليلي، ص ٢٣

(٢) سورة الذاريات، الآية ٤٨

(٣) سورة الزخرف، الآية ١٠

(٤) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ٤٢١

كالأكسجين في يسره فيحتاج إلى بعض العناية حتى يتناوله الإنسان ، ثم يأتي بعد ذلك الطعام ثم يأتي بعد ذلك الدواء"^(١)

ولكي تصلح الكرة الأرضية للعيش فيها فقد هيا الله سبحانه وتعالى فيها كل مستلزمات الحياة واستمرارها، فكل شيء فيها بقدر موزون، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٢) ويقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^(٣)

ولنستمع إلى سماحة الشيخ يشرح لنا كيف هيا الله تعالى الأرض للإنسان لكي تكون صالحة للعيش فيها، وفي ذلك ذكرى للذاكرين، يقول: " لقد هيا الله تعالى الأرض لأن تكون قراراً للإنسان، وزودها بكل ما تحتاج إليه من ضرورات الحياة وكمالياتها ، وجهازها بما لم يجهز به غيرها من الأجرام من وسائل الحياة ، والقرآن الكريم يفتح الأبصار على ذلك إذ يقول: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾^(٤) فحجم الأرض جعله الله بمقدار، ولو كانت أصغر من حجمها لانخفضت جاذبيتها، ولتعذرت الحياة عليها أو تعسرت، فإن الضغط الجوي عليها بطبيعة جاذبيتها المعهودة هو بمقدار خمسة عشر رطلا على كل بوصة، بحيث يحمل كل إنسان من الهواء اثنين وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين رطلا، وإنما لا يشعر بهذا الحمل لتعادل الضغط من كل جانب، فمثله كمثل السابح في عمق الماء لا يشعر بثقل الماء عليه ، ولو كانت الأرض في ربع قطرها بحيث تكون في حجم القمر؛ لانخفضت جاذبيتها إلى سدس جاذبيتها الحالية، وتعذر أن تمسك الماء والهواء من حولها ، ولأدى ذلك إلى بزودتها ليلا إلى حد التجمد ، وحرارتها نهارا إلى حد الاحتراق ، ولو كانت أكبر من حجمها لزداد الضغط بمقدار زيادتها ، ولبلغ ضغط الهواء

(١) سؤال أهل الذكر ٢٧ رمضان ١٤٢٤ هـ .

(٢) سورة القمر ، الآية ٤٩

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٢

(٤) سورة الداريات ، الآية ٢٠

زنة طن على كل بوصة، وتعذرت نشأة الأجسام ونموها، وامتنع وجود العقل في الإنسان، والقشرة الأرضية هي بمقدار أيضا، فلو كانت أسمك نحو عشرة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون الأكسجين، وتعذر نمو النبات، وتعذرت بالتالي الحياة على الأرض، وعمق البحر فيها بمقدار كذلك، فلو كان أعماق ببضعة أقدام عما هو عليه لانجذب إليه الأكسجين، وتوقف النبات، وتعذرت الحياة، والبحر يغمر ثلاثة أرباع مساحة الأرض وهو بمقدار ما ينظفها من الأدران، والغلاف الهوائي يقدر بخمسمائة ميل يحيط بالكرة الرضية من جوانبها، وهو يتعادل مع حجم الأرض، إذ لو كانت أصغر من ذلك لارتفع الغلاف وتلاشى، وحلت الكارثة على الأرض ومن فيها وما فيها، فإن هذا الغلاف يحمي الأرض وما عليها من الشهب التي تتقاذف في هذا الفضاء، وتنطلق في سرعة رصاص بندقية بتسعين مرة، بحيث لو مرت على إنسان لكان مرورها وحده كافيا في إهلاكه لسرعتها وحرارتها الملتهبة، ونسبة الأكسجين في الأرض بمقدار، وهي إحدى وعشرون في المائة، ولو انخفضت إلى عشرة في المائة لتعذرت وسائل الحياة، فإن الإنسان في هذه الحالة تعوزه النار التي يطبخ بها طعامه، ولو ارتفعت إلى خمسين في المائة لأدى هذا الارتفاع إلى خطورة بالغة بحيث لو لمع برق لكفت شراة منه تأتي على غابة بأسرها، ودوران الأرض حول نفسها بمقدار، فهي تدور بقدر ألف ميل في الساعة الواحدة، وبهذا يكون الليل والنهار في ظرف أربع وعشرين ساعة تستكمل فيها الأرض دورتها حول نفسها، ولو قلت هذه السرعة إلى قدر مائتي ميل في الساعة لطلال الليل والنهار، ولاشتدت برودة الليل وحرارة النهار إلى حد ألا يطيقهما الإنسان.

والمسافة بين الأرض والقمر بمقدار مائتين وأربعين ألف ميل، وذلك بقدر ما يحفظ توازن المياه في الأرض؛ لأن للقمر تأثيرا في حركة الجزر والمد، فلو كان أبعد لغارت المياه، ولو كان أقرب لفاضت على الأرض، والمسافة بينها وبين الشمس بمقدار ثلاثة وتسعين مليوناً، ولو كانت أبعد من ذلك

لتجمدت الأرض ، ولو كانت أقرب لصهرتها بحرارتها التي لا تطاق ، وما يصل إلى الأرض من الطاقة الشمسية جزء من مليوني جزء ، وهو بمقدار ما ينمي النباتات ويزود الأجسام بالطاقة الحرارية، ولو زاد عن ذلك لاشتد لهيب الحرارة في الأجسام وتأثرت النباتات، ولو كان في مكان الشمس أحد النجوم الضخمة كالشعري اليمانية، أو السماك الرامح، أو سهيل؛ لتبخرت الأرض، فإنَّ الشعري اليمانية أكبر من الشمس بعشرين ضعفاً وأقوى منها بخمسين مرة، والسماك الرامح أضخم منها بثمانين مرة، ونوره أقوى من نورها بثمانية آلاف ضعف، وسهيل أقوى منها بألفين وخمسة مائة مرة ، على أن هناك من العلماء المحدثين من يثبت أن الشعري أكبر من هذا القدر بأعداد هائلة وليس ذلك ببعيد"^(١)

هكذا سخر الله لنا هذا الكوكب للحياة ، فله الحمد و الشكر والمنة والثناء الحسن الجميل ، وإذا تجاوزنا ذلك إلى الطعام والشراب وكيف يسره الله لنا لازداد يقيننا بعظم قدر نعم الله سبحانه وتعالى علينا، يقول سبحانه: " من الضروري أن يفكر الإنسان في أمور حياته التي تعتبر من الضروريات بالنسبة إليه، ومن أهمها الطعام الذي جعله الله غذاء له، ثم لينظر الإنسان إلى هذا الطعام كم يتدرج حتى يصل إليه، ورُبَّ طعام ينبت في أوروبا أو في أمريكا أو في أقصى الأرض ثم يصل إلى هذا الإنسان، بتدرج من يد إلى أخرى ومن بلد إلى آخر. سخر الله تعالى الوسائل والأسباب المختلفة ليصل إلى هذا الإنسان، وبعد وصوله أيضا سخرت له أسباب متنوعة حتى يكون هذا الطعام صالحا للأكل، يسد جوانب الحاجة في جسده؛ فيتغذى به وينمو، ويخلق الله منه أناسي كثيرة. هذه الأمور كلها داعية للاعتبار"^(٢)

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١ / ١٤٤ - ١٤٦

(٢) المدخل العام إلى دراسة العقيدة، الشيخ الخليلي، ص ٢٣ ، وانظر العقيدة الصحيحة أهميتها وأثرها، الشيخ الخليلي، وسؤال أهل الذكر ٢٧ رمضان ١٤٢٤هـ - ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٣م

فنعم الله وآياته تحيط بالإنسان من كل جانب، حتى تلك الأشياء التي يتصور فيها ضرته، هي في حقيقة الأمر لمصلحته، ومثال ذلك : الجرائم ، يقول سماحته : " فهذه الجرائم هي في عداد المنافع ، بعد أن كان الناس لا يتصورون منها نفعاً، فقد استعين بها في كثير من ضرورات الحياة المعاصرة، كاستخدامها وقوداً للآلات وإصلاحاً للأغذية"^(١) وحتى الثعابين ونحوها من المؤذيات إنما هي تذكر الإنسان بعذاب الله وأليم عقابه ، فإن في النار - والعياذ بالله - ألواناً من العذاب لا طاقة لأحد بها ، وإذا كان لا يحتمل هذا الألم القليل فكيف به في نار جهنم ؟ ! والعياذ بالله

أرحم حياة طلحت بوزرها في حمل ذر منه إيهان القوى

لو قرصتها ذرة تألت فكيف بالنار إلى غير مدى^(٢)

وهكذا يتقلب الإنسان في بحر نعم مولاه وسيده ، فهل له أن يشكر ويعتبر؟ يقول سماحته : "ولو أنَّ نعمة من أبسط هذه النعم قوبلت بأعمال الناسك الأوَّاب الذي وقف حياته كلها على عبادة ربه ، ولم يترك شيئاً مما في وسعه من الطاعات إلا فعله، ولا شيئاً من المنهيات إلا جانبه، لذهبت تلك النعمة بهذه الأعمال كلها ، فما بالك بهذا البحر الواسع من النعم"^(٣)

فالعجب كل العجب من هذا المخلوق الضعيف المقتدر إلى الله، يعصي ربه بنعمته التي أنعمها عليه !! ألا يعتبر بمن حوله ممن فقدوا الكثير مما خوله الله إياه وأسبغ عليه؟!

وجدير بالذكر أن سماحته نوّه إلى الكثير من النعم، وإلى ما يحيط بالإنسان من آيات الله سبحانه وتعالى كالمنطق والرياح، وقد رأيت أن أشير إلى بعضها مع حضور الصورة الحسية لتكون أدعى للتأثير والاعتبار، مبتدأ بقول

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٢ / ٥٢٢

(٢) ديوان أبي مسلم البهلاني

(٣) جواهر ، الشيخ الخليلي ، ٢ / ٤٦٢

سماحته : " على الإنسان وهو يعيش هذه الحياة ويشاهد هذه الآيات أن لا يكون مشغولاً بقشرها عن لبها، بل عليه أن يتعمق بفكره فيدرك ما وراء هذه الأسرار، بحيث يدرك أن خالق هذا الوجود هو الذي اختص الإنسان بما اختصه به من المواهب، لأنه أراد أن يكون خليفة في هذه الأرض، وأراد أن يكون سيداً في هذا الكون"^(١)



﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنُفِثُ سَحَابًا فَيَنْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ

كَيْسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾



﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾



﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾



﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا الْفِرْقَانِ ﴾



﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾



﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾



﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾



﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وفي يوم القيامة يقول سبحانه عن الجبال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾



﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَدْتِهَا طَلَعُ نَضِيدٌ﴾



﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾

التفكر في الكون^(١) :

كما دعا سباحته إلى التفكير في الأنفس وما يحيط بها من الكائنات فإنه يبحث الناس على أن يفتحوا أبصارهم على ما في هذا الكون الرحب الواسع من الآيات الشاهدة على عظمته جل في علاه، يقول سباحته: " الكون كله مسرح لاعتبار الإنسان فإن كل ذرة من ذرات الكون فيها دلائل شتى على وجود الله، ودلائل متعددة على عظمته، وقدرته، وجلاله، وعلمه. فإن كل الكائنات تدل على الله تبارك وتعالى وصفاته، من خلال إن الإنسان يرى أن كل ما في الكون مصنوع حادث كان بعد أن لم يكن"^(٢)

(١) الأرقام الواردة للمقاييس هنا مقيدة بزمن كتابتها، أما الآن فقد توسعت الاكتشافات وتطورت الأجهزة فتغيرت

بعض الأرقام، ومن شاء المزيد من الدقة فليرجع إلى كتاب سباحته (برهان الحق، ص ٢٢٥ - ٢٣٨

(٢) سؤال أهل الذكر ١٥ / ربيع الأول ١٤٢٥هـ / ٢٥ / ٤ / ٢٠٠٤م وانظر حلقة ١ / رجب / ١٤٢٣هـ -

٨ / ٩ / ٢٠٠٢م) و العقل نور إلهي ٢٠٨/ج/١

وبعد هذه الدعوة المتكررة من سباحته ، فإنه يبين لنا الثروة الروحية الطائلة التي يحنيها الإنسان من خلال هذا التفكير في صفحات الكون، يقول : " إن الإنسان هو جزء من الموجودات في هذا الكون يربطه به رباط وثيق ، لأنه في الحقيقة المحور الذي تدور عليه رحاه ، والكون كله صفحات مهياة لدراسة الإنسان ، كل سطر من سطورها حافل بما لا يحصى عددا من آيات الله الشاهدة على وجوده، الناطقة بتسييحه وحمده ، فلا يكاد اللبيب الموفق يفتح عينيه على شيء يتلوه من هذه السطور حتى يمتلئ قلبه إيماناً بمبدع الكون، الذي تسيح بحمده كل ذرة في هذا الوجود، وتسجد خاضعة لجلاله وكبريائه، فلا يجد اللبيب الموفق مناصاً من التجاوب مع ذرات الكون في تسييحها، والتفاعل معها في سجودها لله وانقيادها لأمره"^(١)



﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

وليفت سماحته النظر إلى بعض هذه الآيات الكثيرة ، فأول ما يرفع رأسه إلى الأعلى يرى السماء التي "تعتقد العامة أنَّها جسم أزرق مبني كالقبة ، وما هي إلا فضاء واسع يسبح في عبابه ما لا يحصي من الأجرام الفلكية ، وهذا لا ينافي كونها طبقات لما عرف من أنَّ الفضاء يتكون من طبقات ، وقد ربط الله بين أجرامها بسنة الجاذبية التي هي أشبه بوضع لبنة على لبنة في البناء ... وبجانب ذلك فإنَّ الغلاف الهوائي المحيط بالكرة الأرضية أشبه ما يكون بالسقف المبني الواقي ، فالشهب التي تتقاذفها في أرجاء الفضاء لا تكاد تصلنا بسبب هذا الحاجز الطبيعي"^(١)

وليعتبر بهذا التناسق والترابط والتشاد ما بين أجزاء هذا الكون، ذراته ومجراته، هناك تناسق عجيب لا نشاز ولا اضطراب، ولا اختلاف ولا تصادم حتى بين مكونات الذرة التي تتكون منها العناصر فالأجزاء، ووصولاً إلى الأجرام العملاقة "فالذرة مثلا بتراكيبها بحيث إنَّ فيها نواة وفيها الكتلونات تدور من حولها وفيها من النيوترونات وغيرها ما هو مقدر تقديرا عجيبا، ذلك كله شاهد على أنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي أوجد هذه الذرة وهو الذي خلقها، فهي معربة بلسان حالها عن افتقارها إلى واجب الوجود لذاته سبحانه وتعالى الذي تجلَّى في كل موجود وجوده وغمر الكون كله شهوده"^(٢)

وعندما ينظر الإنسان أيضا إلى ما فوق هذه الذرات ، عندما ينظر إلى العناصر وكيف تتكون من هذه الذرات، وكيف تلتئم وتتحد بمشيئة الله سبحانه وتعالى، وعندما ينظر بعد ذلك إلى المركبات، وينظر إلى الأجسام وينظر إلى الأجرام الفلكية وغيرها يأخذ العجب، ويرى كيف الرباط الذي يربط ما بين هذا الكون المترامي الأطراف، الواسع الأرجاء، بحيث أنَّه مع

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٢ / ٤٢١

(٢) سيأتي الحديث عن الذرة لاحقا

هذه السعة التي تفوت مدارك البشر لا يخرج عن كونه وحدة متكاملة، كل جزء منه مكمل لبقية الأجزاء، وفي ذلك دلالة واضحة على وحدانية الله تعالى، لأنَّ وحدة نظام الكون دليل على أنه صادر عن مكون واحد^(١)

وبين ساحتها بياناً مفصلاً قدرة الله تعالى وحكمته في تدبير أمر هذا الكون، فيقول: " وإذا تجاوزنا حدود الأرض قليلاً إلى أخواتها، ككواكب المجموعة الشمسية، نجد التناسق بينها مرتبطاً بمقادير أحجامها ودورانها وطبائعها، فلكل منها حجمه الخاص ودورانها المقدر، وتأثيره الدقيق في هذه المجموعة، وهي تسعة مع الأرض تدور حول أمها الشمس ومعهن واحد وثلاثون قمراً توابع لهن، وثلاثون ألفاً من النجيمات، وآلاف من ذوات الأذنان، وأعداد هائلة من الشهب، والشمس ليست بينهن ثابتة بل هي تجري كما أخبر الله تعالى بقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾^(٢) ويقدر دورانها حول نفسها بستائة ألف ميل في الساعة الواحدة وكل هذه الأجرام تابعة لها في هذا الدوران ، ولها دوران آخر مع كل توابعها على الحاشية الخارجية للمجرة، وهي تبتعد عن هذه الحاشية بسرعة اثني عشر ميلاً في كل ثانية، وما هذه المجموعة الشمسية إلا واحدة من الملايين التي لا تحصى من المجموعات التي تنتسب إلى نفس هذه المجرة التي تقع في مجموعتنا الشمسية، وقطر هذه المجرة يقدر بمائة ألف سنة ضوئية، والسنة الضوئية تقدر بستائة مليون مليون من الأميال ، لأنَّ الضوء يقطع في الثانية الواحدة مائة ألف ميل وستة وثمانين ألف وثلاثمائة ميل (أي ثلاثمائة ألف كيلو متر) والمسافة بين الأرض والشمس سبع دقائق بسرعة الضوء ، ويمكن أن يدور الضوء على الكرة الأرضية في الحدود الاستوائية سبع مرات في الثانية الواحدة، والأرض تبعد عن مركز هذه المجرة بثلاثين

(١) سؤال أهل الذكر ، ربيع الأول ١٤٢٥هـ ، ٢٥/٤/٢٠٠٤م

(٢) سورة يس ، الآية ٣٨

ألف سنة ضوئية، وما هذه أيضا إلا مجموعة من أعداد هائلة من المجرات يقدر الفلكيون ما اكتشفوه منها خمسمائة مليون مضروبة في ((٠.٠٠٠|٠.٠٠٠|٠.٠٠٠|٠.٠٠٠|٠.٠٠٠)) من الملايين، ويقدر بالتعادل النسبي ما في كل مجرة من النجوم مائة مليار،^(١) ولا تنس أن كل ما في هذه المجرات مقدر تقديراً دقيقاً بحيث لو وقع أي خلل في شيء منها لأدى إلى اختلال التوازن العام للأجرام الفلكية فينتج عن ذلك تهاويها وسقوط بعضها على بعض؛ فيؤدي إلى تلاشي الكون وهلاك ما فيه، وذلك ما وعدنا به في الكتاب عند قيام الساعة، فالله تعالى يقول: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ أَنْتَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾^(٢) وفي هاتين الآيتين إشارة واضحة إلى سنة الجاذبية التي تربط بين هذه الأجرام وهي من إعجاز القرآن، ودلائل صدق النبوة، فإن الناس في ذلك العهد ما كانوا يتصورون الجاذبية ولا يخطر ببالهم نظامها الذي يربط بين الأجرام الفلكية، وهذه الدقة في مقادير الأشياء في هذا الكون هي التي جعلها الله عاملا في حفظ نظامه وأداء كل جزء منه مهمته، وهي واضحة في كل دقيق وجليل من طبيعة هذا الوجود من الذرة إلى المجرة، فالمجرات على كثرتها الهائلة يوجد بينها هذا التقدير الدقيق في كل شيء منها، فلو فكرنا في أبعد المجرات عنا لوجدناها مرتبطة بمجرتنا التي تنتسب إليها مجموعتنا الشمسية بحسب ما أودع الله سبحانه وتعالى في كل منها من طبائع خاصة كانت العامل المهم في التلاؤم بينها، حتى أصبح هذا الكون الفسيح وحدة متكاملة يشد بعضه بعضا، ويكمل كل جزء منه غيره، ومع أن علماء الفلك يختلفون في تقدير أبعاد المجرات بحسب ما يتسنى لهم من الاكتشافات

(١) يقول سماحته في كتابه "برهان الحق" إن أقرب مجموعة من النجوم وهي التي نراها في الليل كحويط بيضاء دقيقة، تضم حيزا مداه مائة ألف سنة ضوئية، ونحن سكان الأرض — نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة قطرها مليونان من السنين الضوئية " (

برهان الحق، ١/٢٣٠)

(٢) سورة الانفطار، الآيات ١ - ٢

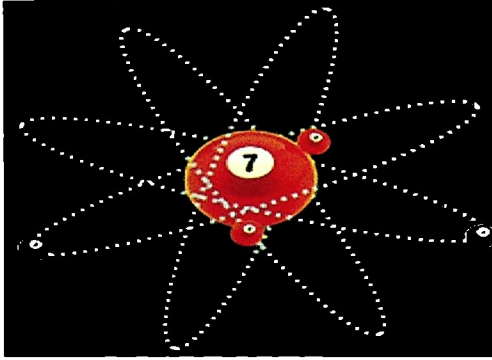
العلمية، فإنهم متفقون على وجود هذا الترابط الدقيق، وأذكر أنني منذ عشر سنين^(١) قرأت كتاباً عن الكون وجدت فيه أن أبعد مجرة يقدر بعدها عن الأرض بخمسمائة مليون سنة ضوئية، وما لبثت إلا قليلاً حتى اطلعت في مجلة (العربي) على مقال للدكتور أحمد زكي في المقاييس جاء فيه أن أبعد مجرة عن الأرض قد اكتشفت بأكبر منظار، بينها وبين الأرض نحو ألفي مليون من السنين الضوئية، ولم ألبث بعد ذلك إلا بضعة شهور حتى اطلعت على بحث آخر لأحد العلماء المتخصصين جاء فيه: أن أبعد مجرة تبعد عن الأرض بخمسة آلاف مليون سنة ضوئية، وفي هذا ما يدل دلالة واضحة أن البشر لم يكتشفوا من هذا الكون إلا زاوية صغيرة ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) وهناك نظرية يكاد علماء الكون يطبقون عليها وهي تمدده المستمر، بحيث لو قدر هذا الكون أن يبقى ألف وثلاثمائة مليون عام لصار ضعف ما هو عليه الآن، وما يدرينا إن كانت هذه النظرية صادقة أن تكون الإشارة إليها في قول الحق سبحانه ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٣)

وإذا كنا نقف حائرين عندما ندرك الدقة في الأجرام الفلكية الهائلة بحث يكون كل واحد منها مقدرًا في حجمه ووزنه وطبعه ودورانه وطاقته والمسافة التي تفصل بينه وبين غيره، فإن الأمر يكاد يكون أعجب عندما ندرك أن هذه الدقة توجد في أدق ما يعرفه الناس وهو الذرة، فإن الذرات لها نفس السنة الكونية التي هي في الأجرام الفلكية، وحسبنا أن نعرف أن النظام الشمسي في المجموعة الشمسية هو نفسه نظام هذه الذرة المهينة التي لا تكاد تبصر حتى بأشعة المجهر، فإن الالكترونات تدور على نواة الذرة دوراناً هائلاً يقدر بملايين المرات في الثانية الواحدة، وكل ما في هذه الذرات

(١) أي من زمن تحرير هذه السطور في كتابه خواهر التفسير

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٥

(٣) سورة الناريات، الآية ٤٧



صورة للذرة ودوران الألكترونات حول النواة

الدقيقة من بروتونات ونيوترونات والكترونات مقدراً تقديراً بحيث لو زاد شيء أو نقص لأدى إلى الخلل في نظامها ، والخلل الذي يكون في الذرة يؤثر على غيرها فالأرض مثلاً، بكل ما فيها من نبات وإنسان وحيوان وهواء تتكون من عناصر هي نحو المائة، أخفها الهيدروجين وأثقلها اليورانيوم، والعناصر تنقسم إلى جزيئات ، والجزيئات تنقسم إلى ذرات، وزنة جرام واحد من ذرات اليورانيوم تقدر بألفي مليون مليون من الذرات، فما بالك بالهيدروجين الذي هو أخفها، وإنك لتمتلكك الدهشة ويستولي عليك الاستغراب إذا علمت أن عناصر كل مركب مقدرة تقديراً ، وجزيئات كل عنصر فيه محدودة بحيث لا تزيد ولا تنقص ، وذرات كل جزيء بمقدار ، ولو كانت ثم زيادة أو نقص لكانت سبباً للخلل، فسبحان من خلق كل شيء فقدره تقديراً^(١)

ويمكن الإشارة هنا إلى بعض الآيات الكونية التي تدعو إلى الاعتبار والخضوع لمن بيده الخلق والأمر، والحكم والقهر، مبتدأً ومتهماً يقول سبحانه : “ وما على الإنسان - وما هو إلا جزء من هذا الكون - إلا أن يقرأ في

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١٤٦/١ - ١٤٧

صفحات هذا الوجود آيات الله الناطقة بإحاطة علمه، وبسعة قدرته، وعظم شأنه، وجلال سلطانه، لا إله إلا هو خالق كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء، منه المبدأ وإليه الرجعى، وله الحمد في الآخرة والأولى^(١)

﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾^(٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٤﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْكَالِينِ ﴿٦﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكَ حَمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾^(٩) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿١٠﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿١١﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿١٢﴾ لِنَحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيهِهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِي كَثِيرًا ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٤﴾

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ٥٣٦

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٤

(٣) سورة المؤمنون، الآيات ١٧ - ٢٢

(٤) سورة الفرقان، الآيات ٤٥ - ٤٩

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١٦﴾
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿١٧﴾﴾

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٩﴾ لَوْ
نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٢٣﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ
نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٢٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ جَارِبًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ أَفَرَأَيْتُمْ
النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٢٦﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٢٧﴾ نَحْنُ
جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمَتْنَعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٢٨﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٣٠﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٣١﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٣٢﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سُبُلًا ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿٣٤﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿٣٥﴾
وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَعَاءً شِدَادًا ﴿٣٦﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿٣٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ
الْمُعْصِرَاتِ مَاءً تَجَاجًا ﴿٣٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿٣٩﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٤١﴾ أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٤٢﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا
الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٤٣﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٤٤﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٤٥﴾ وَزَيْتُونًا وَخَلًّا ﴿٤٦﴾
وَحَدَاقٍ غَلْبًا ﴿٤٧﴾ وَفِكْهَةً وَأَبًا ﴿٤٨﴾ مَتْنَعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمِيكُمْ ﴿٤٩﴾﴾

(١) سورة الفرقان ، الآيات ٦٢، ٦١

(٢) سورة الواقعة الآيات ٦٣ — ٧٤

(٣) سورة النبأ ، الآيات ٦ — ١٦

(٤) سورة عبس، الآيات ٢٤ — ٣٢

ب بالتفكر في حوادث الدهر ونوائبه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى
وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴾^(١)

إن التفكر في صروف الدهر، ونوائب الزمان ، على مر العصور فيه عبرة
وأى عبرة لكل ذي قلب؟! وهو أسلوب تربوي رفيع في شحذ الهمة، وإيقاد
العزيمة في السير على المنهج الرباني لتوقى الشرور والمصير المظلم لكل من
حاد عن ذلك النهج السوي، وفيه جني الثمار الروحانية الياضعة التي تدفع
بالإنسان إلى السير الحثيث في تحقيق مرضاة رب العالمين، وذلك بالاستمساك
بجبله المتين، والاهتداء بنوره المبين .

إن ساحة الشيخ - حفظه الله - كثيراً ما يرشد الناس في دروسه وخطبه
ومحاضراته إلى هذا المنهج التربوي الرائع، بل كثيراً ما يرد ذلك مقرونا بالعبر
في مجلسه وهو يحدث جلساءه بذلك ، حيث يعد سباحته موسوعة تأريخية
ضخمة . وقد جهل ذلك الكثير من الناس - تحوي من قصص البشر وسيرهم
وتأريخهم الشيء الكثير، مما لا نجده في بطون الكتب، بل لم تسجله الأقلام ،
إذ الكثير منه غير مدون أصلاً .

ويمكن تقسيم الحوادث التاريخية قسمين :

أ- قصص الماضين الغابرين

ب- الحوادث المعاصرة

(١) سورة يوسف ، الآية ١١١

أ- قصص الماضيين الغابرين

يقول سبحانه: " إِنَّ فِي مِصَافِرِ الْقُرُونِ الْغَابِرِينَ لَعِبْرَةً لِّلْمُعْتَبِرِينَ ﴿١﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢﴾ "والقرآن الكريم يشد انتباه الإنسان إلى ذلك في آيات كثيرة منها قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكِّنْهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ۗ آخَرِينَ ﴾^(٣) فكم من قرون مكن لها في الأرض أعظم التمكين، واستخلفها الله سبحانه وتعالى في الأرض لينظر عملها، فعمرت الأرض أكثر مما عمرت الآن، وكانت لها السيادة، وكان لها طول العمر، ولكن الله سبحانه وتعالى أخذها بذنوبها، فأصبحت عبرة للمعتبرين يقول سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴾^(٤)

ويقول سبحانه في موضوع آخر:

"ففي مصير القوم الذين ظلموا أنفسهم وانقلبت عاقبتهم إلى سوء عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، فكم من أحد منهم كان يحيل إليه أنه ينطح السماء بقرنيه، ويطأ الجوزاء بنعليه، وإذا به ينقلب إلى مصير فيه عبرة للمعتبرين ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾^(٥)، كما كان لفرعون وقارون وهامان وغيرهم من الأمم التي بادت، وعاد وتمادى وقوم لوط وأصحاب

(١) سورة النازعات، الآية ٢٦

(٢) سورة الأنعام، الآية ٦

(٣) سورة غافر، الآية ٢١

(٤) وحى المنابر، الشيخ الخليلي، ٩/١

(٥) سورة النازعات، الآية ٢٦

الأيكة، كل هؤلاء في مصيرهم عبرة للمعتبرين، والله تبارك وتعالى يدعو الناس إلى الاعتبار بمصير القوم الظالمين في القرآن الكريم: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ قَرَّبْنَا مَثَلَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾^(١) فإذا عندما يقرأ الإنسان قصص الأمم الماضية عليه أن يعتبر، وأن يقف وقفة المشاهد لمصيرهم ومنقلبهم وما كانوا عليه^(٢)

ويقول سباحته: "وما أحق هذه الأمة التي أنزل عليها القرآن وأكرمت بخاتم رسل الله عليه أفضل الصلاة والسلام أن تعتبر، وهي تتلو كتاب ربها بكل ما جرى على الأمم من قبلها في حال برها وفجورها، وشكرانها وكفرانها، واجتماعها وتشبتها، فإن سنن الله لا تتبدل ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾"^(٣)

ونضرب بعض الأمثلة من قصص الماضيين مما يحصل بتذكره الاعتبار، ثم نخرج على شئ مما أشار إليه سباحته، مما يشعر الإنسان بقوة الله وقهره لكل حي، وقدرته على كل شيء.

- قوم نوح عليه السلام

هؤلاء قوم نوح - عليه السلام - لبث فيهم نبيهم نوح يدعوهم إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاما، فكذبوه وسخروا منه، فأمره الله ببناء السفينة ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا

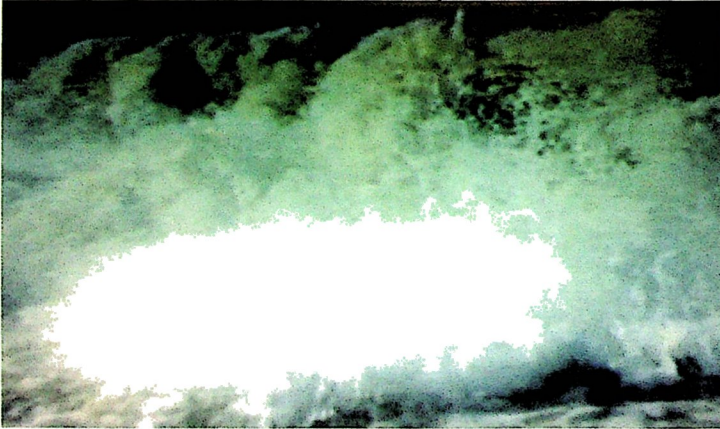
(١) سورة الأنعام، الآية ٦

(٢) سؤال أهل الذكر ٩ \ جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ - ١٦٦٢٧ \ ٢٠٠٤ م

(٣) سورة الاحزاب، الآية ٦

(٤) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢٨٦/٣

فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَأَذَّنَ اللَّهُ لِهَٰلِكَ قَوْمَهُ بِمَنْ فِيهِمْ أَمْرَاتُهُ
 وَابْنَهُ، وَكَانَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يَفُورَ الْمَاءُ مِنَ التَّنُورِ الَّذِي تَتَوَهَّجُ فِيهِ النَّارُ ﴿٣٩﴾
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
 وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾
 وَرَكِبُوا السَّفِينَةَ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ
 وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
 سَآوَىٰ إِلَيَّ جِبَلٌ يَعْصُمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا
 مَنْ رَحِمَهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ
 ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ
 وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ فَانظُرْ هَدَايَ اللَّهُ وَإِيَّاكَ إِلَى التَّصْوِيرِ الإلهِيِّ
 الْمُحْكَمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾



انظر إلى هذا المشهد لأمواج عاتية كالجبال فعلا؟ كيف يكون حال الإنسان فيها؟

(١) سورة هود، الآية ٣٨

(٢) سورة هود، الآية ٤٠

(٣) سورة هود، الآية ٤٤

فهل تتصور المشهد الرهيب، أمواج عاتية كالجبال، والأرض تمور بالماء؟ هل تسمع صخب الموج وهديره؟ وتلاطم بعضه ببعض وهو بارتفاع الجبال الشاخحة؟ ماذا سيكون حال الظالمين في هذه التيارات المائية العاتية؟! ألا تسمع الصرير والعيول والبكاء؟ ألا تشاهد التسابق نحو قمم الجبال؟ الكل يطلب النجاة لنفسه في حالة قصوى من الذعر والهلع والارتباك، وقد أحاط بهم الموت من كل مكان، ألا تراهم لا يلوي والد على ولده ، ولا أم على رضيعها؟ ولكن إلى أين الهروب؟ إلى أين الفرار؟ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم؟ لا اله إلا أنت يا ذا العزة والقهر والجبروت .

وانظر رحمي الله وإياك إلى قول رب العزة : ﴿ وَقِيلَ يَا رَجُلُ أَأَنبَأُكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾

انظر إلى كمال القدرة وعظيم القهر لكل شيء ، ثم توجه الإرادة الإلهية النافذة إلى السماء والأرض وهما في صلابتهما وضحامتها ، لقد جاء الأمر الإلهي إلى السماء أن تقلع، وإلى الأرض بأن تبلع الماء، ويسرعان في الإمتثال لأمر خالفهما سبحانه وتعالى، ألا تذكر قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾^(١)

نعم كل شيء في الوجود خاضع له ، يسبح بحمده، إلا أنت أيها الإنسان الضعيف تؤثر الانضمام إلى صف الشيطان في إعلان تمرده على الأمر الإلهي ، وكل ذرة فيك تسبح بحمده ، ولكن لا تفقه تسيحها ، أما لك في ذلك معتبر وعظة ؟ ألا تسمع قول الحق يصيح أذنيك ﴿ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢)

(١) سورة فصلت ، الآية ١١

(٢) سورة هود ، الآية ٤٤

- قصة عاد قوم هود عليه السلام :

كانت عاد تسكن في الأحقاف كما ذكر القرآن الكريم ، وكانت على قدر عظيم من القوة ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١٠٠﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿١٠١﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ ﴿١٠٢﴾ ﴾^(١) وقد أنعم الله عليها بصنوف النعم من الجنات والأنهار، فأخلدوا إلى الكفر، فأرسل الله تعالى إليهم هودا عليه السلام ﴿ وَأذْكُرْ أَحَا عَادَ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِأَلَّا حَقَّافٍ وَقَدَّ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾^(٢) فماذا كان جواب قومه على هذه الدعوة المباركة، ومحاولة العودة بهم إلى الصراط المستقيم ﴿ قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٠٣﴾ قَالَ يَبْقَوْمَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلِيَكْتُمِي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ أَبْلِعْكُمْ رَسُولِي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾^(٣) فأخذ يذكرهم بنعم الله عليهم، مبديا خوفه الشديد أن يجلب بهم عذاب من الله تعالى ، قائلاً لهم ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٠٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٠٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١١٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ﴿١١٣﴾ وَجَنَّتِ وَعَمِيونَ ﴿١١٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١١٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾^(٤)

لقد أصروا على ما هم عليه من الكفر، وتصاموا عن الآيات والنذر، حتى جاء أمر الله عز وجل بإهلاكهم، كيف يا ترى كان إهلاكهم؟ وما

(١) سورة الفجر ، الآية ٧

(٢) الأحقاف ، الآية ٢١

(٣) سورة الأعراف ، الآيات ٦٦ - ٦٨

(٤) سورة الشعراء ، الآية ١٢٨

العذاب الذي نزل بساحتهم؟ يقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِقَائِلَتِنَا مُجْحَدُونَ ﴾ (١) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْسُوتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿٣﴾ . لقد رأوا العذاب فحسبوه الغيث الذي سينهمر مخصبا بلادهم، كلا إنه العذاب ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ كَذَلِكَ نُجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣) وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يُجْحَدُونَ بِقَائِلَتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤﴾ (١)

ولربما تساعدك على تصور هذا العارض المقبل هذه الصورة لأحد الأعاصير الشديدة.



صورة لإعصار شديد فانظر إلى الظلمة الشديدة واقترب السحب من الأرض ودورانها

(١) سورة فصلت، الآية ١٦

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٢٤

نعم هبت الريح الشديدة العاتية بأمر ربها سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة ، فما أتت على شيء إلا جعلته حطاماً ، مفتتاً كالرميم ، إنك لتتخيل المشهد المرعب ، الدمار الكامل ، الحطام ، الجثث المبعثرة كأنها أعجاز نخل خاوية ، أين القوة والغترسة؟ أين القصور والدور؟ أين بطش الجبارين؟! لمن الملك اليوم؟ ومن بيده الأمر كله؟ الله الواحد القهار . وينجي الله بقدرته المؤمنين وحدهم ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^(١) ويسكت القرآن عن الحديث عن كيفية نجات نبي الله هود ومن معه من المؤمنين، فالله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى ، وها نحن نرى في عصرنا الحاضر كيف فعلت أمواج سونامي باندونيسيا وكيف ثبتت المساجد، بينما حل الدمار بكل ما حولها .



صورة لمسجد أبقاه الله بعد أمواج سونامي باندونيسيا

- قصة ثمود قوم صالح عليه السلام :

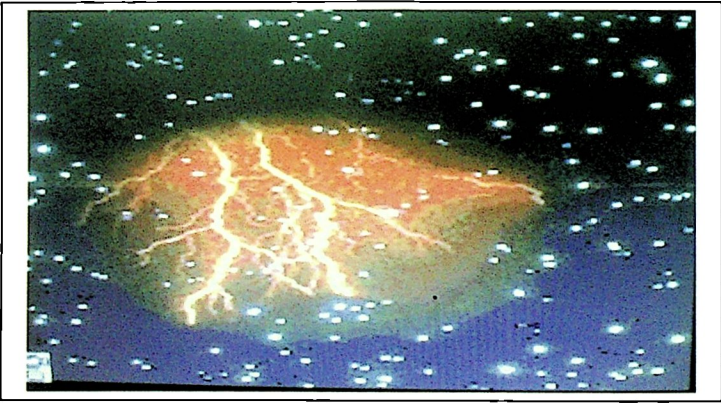
جاءت ثمود بعد عاد ، وكانت تتقلب في النعيم العظيم مع ما آتاه الله من القوة ، لكنهم كفروا وكذبوا رسولهم صالح عليه السلام، يقول سبحانه ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَيَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُنَّاءٌ أَمِينِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّةٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَخَلْجٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْجُتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بِيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥١﴾ وَأَخَذَ رَسُولُهُمْ يَعْظُمُ عَلَيْهِمْ وَيَذَكُرُهُمْ بِمَصَارِعِ عَادِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيَبْعَثُ فِيهِ اسْتِشْعَارَ نَعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَائِلًا لَهُمْ ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عِيَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُتُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَآذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٥٢﴾ وَلَكِنْهُمْ تَعْتَوَى، وَأَبُوا طَاعَتَهُ، وَاسْتَحْبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى كَمَا وَصَفَهُمُ رَبُّ الْعِزَّةِ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴿١٥٣﴾ وَطَالَبُوا صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَعْجِزَةِ ثَبُوتِ صِدْقِ دَعْوَاهُ أَنَّهُ مَرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٥٤﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٥﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٧﴾ وَبِسَبِّ طَغْيَانِهِمُ اعْتَدُوا عَلَى النَّاقَةِ فَعَقَرُوهَا؛ فَحَذَرَهُمُ نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مَغْبَةِ فَعْلِهِمْ، وَطَالَبَهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَإِلَّا نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، فَعَتَوْا وَطَغَوْا وَطَالَبُوهُ بِنَزُولِ الْعَذَابِ سَرِيعًا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٤١

(٢) سورة الاعراف ، الآية ٧٤

(٣) سورة الشعراء ، الآية ١٨٣

وَقَالُوا يَنْصَلِحُ اتَّبِنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ . فكان من جوابه لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (٧٧) . وبعد تلك المهمة أرسل الله إليهم جنديا من جنوده، إنها الصاعقة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (٧٨) ، ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ (٧٩) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْآلَاءُ إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّتَمُودَ ﴿٨٠﴾



صورة لصاعقة برقية وقانا الله شر الصواعق

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴾

ويكفي للاعتبار ما نسمعه من صوت هائل مرعب لأصوات الصواعق البسيطة في أيامنا هذه حال هطول الأمطار ، بما يخلع القلوب من مستقرها، فلله الأمر، فكيف بقوة هذه الصاعقة؟ وكيف بتلك القعقة المرعبة جداً

(١) سورة الأعراف ، الآية ٧٧

(٢) سورة هود، الآية ٦٥

(٣) سورة الفاريات ، الآية ٤٤

(٤) سورة هود ، الآيات ٦٧، ٦٨

التي هلك بها قوم صالح بأكملهم إلا من شاء الله من المؤمنين ؟ سبحانك
أمنت بك، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، وأنت على كل شيء قدير .

- قصة قارون

لقد كان قارون من قوم موسى عليه السلام ، وكان رجلاً غنياً ذا ثراء
فاحش عظيم، مما دفعه إلى كفران نعمة الله عليه، وقال إننا أوتيته على علم،
وكذب نبي الله موسى وقال عنه : ساحر كذاب، ونصحه قومه نصحاً كثيراً،
فلم يصح سمعه لشيء من ذلك أبداً ، إنه الكبر والطغيان، وهكذا شأن
الإنسان. ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِيظْفَى ﴾ ﴿١﴾ أن رآه أستغنى ﴿٢﴾ إلا من رحم ربي
سبحانه .

لقيد قص الله لنا خبره فقال ﴿ إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى
عَلَيْهِمْ وَأَنتَبْنَهُمْ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُمُ لَتَنُوتُوا بِالْعِصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ
لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ ﴿٣﴾ وَأَتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ
الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ
إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٤﴾ قَالَ إِنَّمَا
أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ
الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿٥﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿٦﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا
يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ﴿٧﴾ لَخَسَفْنَا بِهٖ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ
فِيهَا يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ ﴿٨﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ
تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآفُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآفَهُ لَا يُفْلِحُ

الْكَافِرُونَ»^(١) نعم لقد خرج قارون في زينته مزهواً مغروراً ، ناسياً أو متناسياً فضل الله عليه، كافراً بأنعمه، فخلب الأبصار، واستهوى القلوب، ولكن ممن كان ذلك؟ كان من أولئك السذج البسطاء الذين يريدون الحياة الدنيا، ويلهثون وراء زخرفها و بهارجها الزائفة، وفي تلك اللحظة لحظة النشوة والاعتزاز، لحظة الزهو والافتخار، لحظة الاستعلاء والاستكبار، يأتي الأمر الإلهي بنزول العذاب ، وحلول النقمة من العلي الأعلى، فخسف الله به وبداره الأرض، يا للهول! ويا لفظاعة المشهد! أين قارون المزهو المغرور؟ أين ثروته وكنوزه؟ لقد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، ويختم الله عز وجل هذه القصة المؤثرة التي يجب أن تكون عبرة لكل أثرياء العالم الذين لا يؤدون حق الله تعالى فيما آتاهم ، يختمها المولى بقوله: ﴿تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَخْرَةِ مَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَنَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢)

وفي العصر الإسلامي عبرة للمعتبرين ، فأين مدائن كسرى؟ وأين مناعة القسطنطينية؟ بل أين ذهب الرومان بعد منعتهم ببلاد الشام يقول سماحته : "لو وقف أحد على مدينة جرش الرومانية ونظر وضعها لقال: إن من كان فيها لا يخاف جيشاً يحيط به ، ولو جاءت الطائرات من أعلى والدبابات من أسفل فضلاً عن أن يأتيه بالسيف والرمح، بماذا استطاع المسلمون القلة أن ينجروا أولئك الرومان من هذه المدائن، ويجلوهم منها مع حصانتها وقوتها، فضلاً عن كثرة عدد الرومان وكثرة من عندهم من الجيوش الأخرى. فبماذا استطاعوا أن يتغلبوا عليهم؟! إنهم تغلبوا عليهم بالإيمان بالله سبحانه وتعالى"^(٣).

(١) سورة القصص ، الآية ٧٦

(٢) سورة القصص، الآية ٨٣

(٣) أثر المعنويات في الإسلام



صورة لآثار مدينة جرش بالملكة الأردنية



صورة أخرى لآثار مدينة جرش بالملكة الأردنية

نعم إيمان هؤلاء وطاعتهم لله عز وجل، وكفر أولئك وظلمهم، تلك سنة الله التي لا تتبدل، وكم هي الزلازل والبراكين التي تحل بالظالمين، وما حل بمدينة " آتسه " بإندونيسيا في منتهى العبرة والعظة، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ب. الحوادث المعاصرة

يقول سباحته: "على العبد أن يرجع إلى الله عز وجل، وأن يتدبر في هذه الأحداث التي تحدث من زلازل، ومحن، وفتن، فإنها جميعاً بسبب من معصية العبد لله عز وجل، وجرأته على انتهاك حرماته" (١)

ويقول أيضاً: "لا ريب لدى المؤمنين الصادقين أن الله تعالى وحده الذي يدبر أمر كل ذرة في هذا الكون المترامي الأطراف، ويشملها برعايته، وكل تلك الذرات والمجرات وسائر المخلوقات خاضعة مستكينة لخالق الوجود سبحانه وتعالى، تأتمر بأمره، وتستجيب لإرادته وتسبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ۗ وَلَكِنْ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، وكلها جنود لله تعالى يسلمها على من يشاء من عباده بما كسبت أيديهم، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾" (٢)

يشير سباحته إلى مرتكزين أساسيين فيما يتعلق بالأحداث المعاصرة:

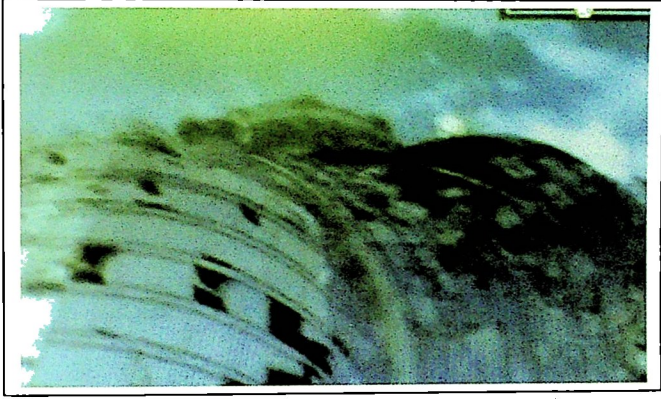
الأول: التدبر في هذه المحن ذاتها ودلالاتها على قوة الله تعالى وقهره.

الثاني: أنها نتيجة معصية العباد لله سبحانه وتعالى.

ينبغي للمسلم أن يولي هذين العنصرين عنايته الكبيرة، فلا تمر عليه الأحداث كأنها لم تكن، أو كأنها لم تطرق مسامعه، بل يتدبر تدبراً يستخلص منها العبر التي يكون لها عظيم الأثر في حياته، الروحية والسلوكية.

(١) سورة الإسراء، الآية ٤٤

(٢) سورة المدثر، الآية ٣١



مشهد لانهباء بناية ضخمة إثر هزة أرضية فليت شعري كيف الحال يوم الزلزال الأعظم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾



منظر لبركان يقف حممه بأمر الله

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾



صورة لأحد الأعاصير وانظر إلى قوة المطر والسحب المستديرة بقوة الريح



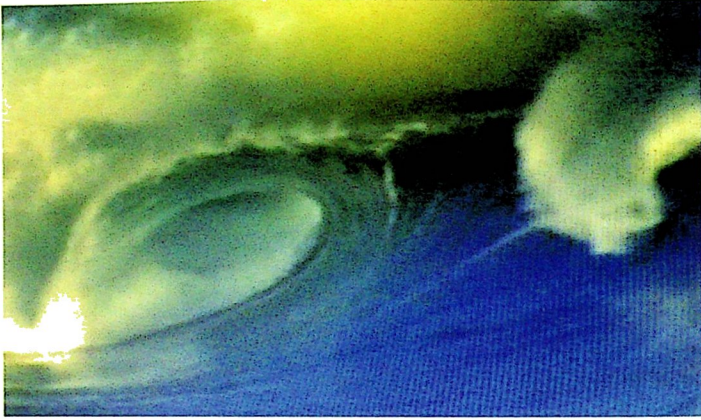
الماء يغمر المساكن بعد أحد الفيضانات



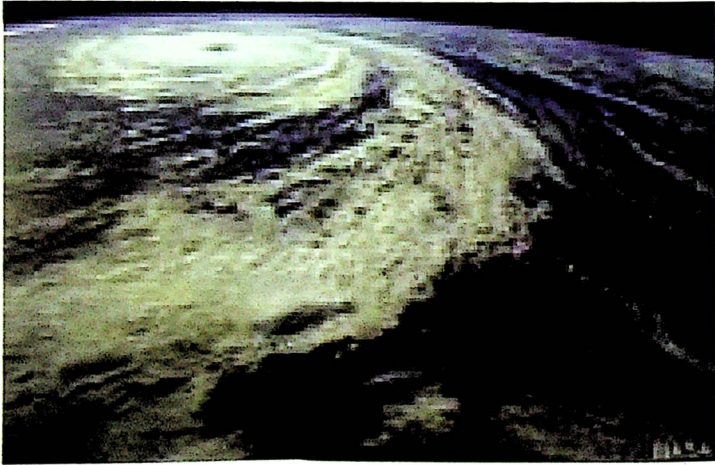
صورة أخرى رهيبة لأحد الأعاصير



صورة لبعض آثار الإعصار المداري الذي ضرب السلطنة عام ٢٠٠٧م



أمواج حلزونية مصحوبة بالنار وذلك من آيات الله الدالة على عظيم قدرته اختلاط الماء بالنار



صورة جوية للإعصار المداري الذي ضرب السلطنة عام ٢٠٠٧م وهو في بحر العرب



منظر ضحايا إحدى الكوارث من الفيضانات

ويذكر أن أكثر الأعاصير تسبباً في وفيات إعصار بنجلادش عام ١٩٧٠م، وقد تسبب حسب أقل التقديرات في ٣٠٠.٠٠٠ وفاة. وأن أكثر الأعاصير دماراً إعصار "آندرو" عام ١٩٩٢م، والذي أصاب جزر "ألباهاما"، وولاية "فلوريدا" و"لويزيانا" الأمريكيتين، والذي قُدِّرت خسائره بـ ٢٦.٥ بليون دولار أمريكي.

وتحسن الإشارة هنا إلى أن الفارق بين أمواج سونامي وأمواج البحر العادية، هو أن طاقة الأولى تستمد من حركة الأرض وليس من الرياح. ويصل طول أمواج سونامي (أي المسافة بين قمة الموجة وقاعها) إلى مئة كيلومتر تقريبا، كما أن الزمن بين إحدى موجات سونامي والموجة التالية لها قد يصل إلى ساعة كاملة، وتصل سرعة أمواج سونامي في المحيط الهادي إلى ٨٠٠ كيلومتر في الساعة. فإذا وقع زلزال في مدينة لوس الأمريكية مثلا، فإن أمواج سونامي تصل إلى العاصمة اليابانية طوكيو في زمن أقل مما تستغرقه الرحلة بين المدينتين بطائرة نفاثة. فسبحان الله العظيم، كل شيء بأمره.

بعد هذه التهيئة التي قدمتها هذه الصور ندرک تماماً بمقتضيات الإيمان بالله سبحانه وتعالى أنه هو الذي يصرف الوجود بأسره، لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بأمره وإرادته، فمن أهلك قوم نوح بالطوفان والفيضان العظيم؟ ومن أرسل الصواعق على قوم صالح؟ ومن شق الأرض لتبتلع قارون؟ ومن أرسل الريح العقيم على قوم عاد؟ أهي الطبيعة، أم دوران الفلك؟ ومن يدير الفلك إذن؟ أو لا نسمع إلى قول الحق سبحانه: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾^(١) ويقول عن المطر ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا مِثْرًا فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾^(٢) وما معنى أن ينجو الصالحون العاملون الناهون عن المنكر من غمرات العذاب؟ أهي الطبيعة العمياء؟ أم المناخات الفلكية؟ سبحانه الله! فمن أنجى العجوز وهي في قلب الطوفان ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾^(٣) أليس ذلك هو الله سبحانه؟ ومن أنجى الذين كانوا يهونون عن السوء؟ ومن أخذ الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يصنعون؟ ومن شق البحر لموسى؟ ومن أطبقه على فرعون؟ ومن أمر الحوت أن لا يؤذي يونس عليه السلام بعد أن لبث في بطنه ما شاء الله له أن يلبث؟ ومن؟ ومن؟ أليس ذلك هو الله العزيز الحكيم؟

يقول جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبِيَّةٍ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٤)

(١) سورة الرعد، الآية ١٣

(٢) سورة النور، الآية ٤٣

(٣) سورة الشعراء، الآية ١٧١

(٤) سورة يونس، الآية ٢٢

٢ - الإيمان بالغيب

مفهوم الإيمان بالغيب وأثاره الروحية

لقد سبق بيان معنى الإيمان ، أمّا مفهوم الغيب فإنه يصدق على كل ما غاب عن الحواس ، سواء اهتدى إليه الإنسان بعقله ، أو دله عليه دليل الوحي ، فيدخل في ذلك كل ما ذكره المفسرون "قيل الغيب ما جاء منه عز وجل ، وقيل : ما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار ، وقيل : الغيب كل ما حواه القرآن من أمور غيبية مثل البعث والحساب والجنة والنار ، وقيل كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدي إليه العقول " (١) . كما يدخل ما دل عليه القرآن أو تواترت به السنة من أخبار الأمم البائدة ، وأحوال الأحداث المستقبلية ، فإن الإيمان به إيمان بغير محسوس ، بل يدخل فيه التصديق بالعبادات المشروعة المعلومة من طرق الأخبار الثابتة والعمل بها (٢) .

إن الإيمان بجميع ذلك لا شك أنه ينهه النفس عن موارد الهلاك ، ويهذب فيها الإحساس بالمراقبة الدائمة ، وينمي فيها مخافة الله عز وجل ، فتسعى النفس إلى كسب الخيرات ، يقول ساحتها مبينا هذا الأثر :

"إن الإنسان يتكون من روح وجسد ، وعقل و قلب ، ومن ضمير وغرائز ، لكل ناحية منها مطالب ودوافع ، لذلك قد ينسى الإنسان أو يتناسى هذا الحق الذي فرضه الله سبحانه وتعالى عليه ، وينسى هذا الإنسان السلوك في المنهج السوي الذي يؤدي به إلى سلامة نفسه ، واستقامة أحواله ، وانسجامه مع بني جنسه ، وإلى رضوان خالقه سبحانه وتعالى في وسط هذه النوازع المتعددة ، والدوافع المختلفة ، ولكن الإيمان باليوم الآخر يجعله يستعلي على ذلك ، فيستطيع الهيمنة على نزعاته ورغباته ، والسيطرة على ميوله وغرائزه ، والتغلب على مطالب جسده وروحه المتنوعة ، فتوجه هذه المطالب

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١٣٤ / ٢ - ١٣٣

(٢) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١٣٤ / ٢

كلها في الطريق السليم، وينسق بينها بالنظام الإلهي الذي أَرادَه اللهُ سبحانه وتعالى أن يكون فيه سلامة الإنسان في معاشه، وسعادته في معاده"^(١).

ولهذا كان الإيِّان بالغيب كما يقول سباحته: "هو نقطة الافتراق بين أصحاب الفطر السليمة، والنفوس الزكية، والعقول الراسخة، والأفكار الواعية، الذين يتصلون بها وراء هذا العالم المحسوس وبين الذين تكدرت فطرهم، وأظلمت نفوسهم، واضطربت عقولهم، وانغلقت أفكارهم، فلم يفهموا تفسيراً للوجود إلا ما وقعت عليه حواسهم المحدودة"^(٢). لأنَّه حبس نفسه في مضيق المادة فلا ينظر إلى شيء إلا بمقياسه المادي، ولا يتطلع إلى ما وراء هذه المادة"^(٣).

والذين يؤمنون بالغيب "يرون أنَّ هدف الحياة أسمى من أن يكون من أجل شهوات الدنيا والتنافس على حطامها، والتناحر على منافعها، بينما الذين يكذبون الغيب لا يعرفون هدفاً في هذه الحياة إلا إرضاء العواطف المضطربة، وإشباع الغرائز المنهومة"^(٤) ولو كان ذلك على حساب الآخرين، بل ولو أدى الأمر إلى إزهاق الأرواح، وإتلاف الأنفس، للصغار والكبار، وإهلاك الحرث والنسل، وقد يؤدي عدم الإيِّان بالغيب إلى أن يحرص الإنسان كل الحرص على الكسل وترك الاجتهاد في العمل"^(٥).

وليس الإيِّان بالغيب مجرد كلمات ترددها اللسان، أو تصديق واستيعاب لا سلطة له على الجوارح والجنان، وتهذيب السلوك، بل "الإيِّان بالغيب المطلوب هو الإيِّان العميق الأثر، القوي التأثير، الذي يقود صاحبه إلى

(١) الإيمان باليوم الآخر وأهميته ٣٢ ح، وانظر جواهر التفسير ٤١١، ٢٢٩

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ١٢٦

(٣) سؤال أهل الذكر ١٩ رمضان ١٤٢٤هـ / ١٤ / ١١ / ٢٠٠٣م

(٤) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ١٢٧

(٥) الإيمان باليوم الآخر وأهميته ٣٢ ج

مناهج الخير والصلاح، ويبعد به عن مسالك الشر والفساد، وليس الإيمان التقليدي الذي لا أثر له في سلوك صاحبه، ولا تأثير له على وجدانه ومشاعره^(١) بل تكون له سلطة قوية مباشرة على التصورات والأفكار والسلوكيات، فكلما أقدم على شيء أو أراد الإحجام عنه طنّ في أذنيه نداء اليوم الآخر، فالإنسان حين يعتقد اعتقاداً جازماً أن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك ومدبر الأمر، هو مصرف الوجود، وهذا بطبيعة الحال يجعله يعتقد أن كل ما يجري في الملك والملكوت لا يخرج عن إرادة الله تعالى وتصريفه، فلذلك يكون المؤمن رابطاً بجميع تصورات هذه القاعدة - قاعدة الإيمان بالغيب - ثم مع ذلك يؤمن بأن الدنيا موصولة بالآخرة، وأن الحياة بعدها ممات، وبعد الممات حياة أخرى أبدية، ويؤمن أن العمل موصول بالجزاء إلى غير ذلك، فتكون التصرفات مرتبطة بهذا الإيمان^(٢)

ونظراً لاتساع مفهوم الإيمان بالغيب سأقصر الحديث على ما ورد في حديث جبريل من الإيمان بالملائكة والكتب والرسول وباليوم الآخر؛ لما لذلك من تأثير واضح على حياة الفرد الروحية .

الإيمان بالملائكة :

بعد أن تحدث سماحته عن القوى التي أعطاها الله تبارك وتعالى للملائكة قال : " ولئن كان هؤلاء الذين أعطوا هذه القوى^(٣) وتمكنوا بها أوتوه من فعل ما لا يتصوره الإنسان بحيث يتمكن أحدهم من نسف جانب من الأرض في أسرع من طرفة عين، فكيف بالإنسان الضعيف الذي يتعثر

(١) جواهر التفسير ٢ / ١٣٥

(٢) لقاء المؤلف بمساحة الشيخ.

(٣) ذكر النبي عليه الصلاة والسلام جبريل فقال لم أره في صورته التي خلقه الله عليها إلا مرتين رأيت منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض (سؤال أهل الذكر ٢٧ شوال ، ١٤٢٤هـ الموافق له

٢١/١٢/٢٠٠٣م) انظر الحديث في صحيح مسلم رقم ٢٨٧ ، وسنن الترمذي ٣٠٦٨

بالعبرة، ويقيد بالشعرة، أليس هذا الإنسان أولى بأن يشفق على نفسه من عذاب الله، هؤلاء الملائكة الكرام المقربون الذين أوتوا ما أوتوه من القوى والطاقات، واتصفوا بما اتصفوا به من الملكات لم تغرهم أنفسهم، فتجروا على الله تبارك وتعالى بمعصيته، وإنما هم ملازمون لطاعته سبحانه وتعالى لا يفتأون عن هذه الطاعة، يسبحونه الليل والنهار لا يفترون، فكيف والإنسان الذي يشعر بضغفه؟. سبحان الله! ما أجرأ هذا الإنسان على معصيته تبارك وتعالى مع هذا الضعف! الإنسان الذي يتردد إلى دورة المياه ليقضي حاجته كل يوم كم من مرة، والذي يتأذى من البعوضة والنملة، ومن أنفه الأشياء، فكيف يجروء على الله تبارك وتعالى فيعصيه؟! . بينما هؤلاء الملائكة الذين أوتوا هذه القوى العظيمة هم لا يفتأون عن ذكر الله، ولا يفترون عن طاعته، يسبحونه سبحانه وتعالى بالليل والنهار ويدأبون على طاعته، فعندما تحالط هذه الحقيقة فكر المؤمن ويتلبس المؤمن بها تمام التلبس، لا بد من أن يتفاعل معها؛ فيحرص أيضا على أن يكون مطيعا لله سبحانه وتعالى، مشفقاً على نفسه من عقاب الله، راجياً لثواب الله، متعرضاً لنفحات الله بالتزامه ذكر الله أثناء الليل وأثناء النهار، كما هو شأن الملائكة الذين يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون^(١) .

ويقول أيضا: " وهم مع هذا العظم يتضاءلون أمام عظمة الله، وجلين من هيئته، مشفقين من عقابه، لا يفتأون عن ذكره، ولا ينفكون عن طاعته، ... فما بال هذا الإنسان الضعيف العاجز الذليل الذي لا توازي قدراته شيئا مما أوتي الملائكة من الطاقات الهائلة يجترئ على ربه فيعصيه جهارا، كأنه لا يرجو منه حسابا، ولا يخشى من جانبه عقابا، أليس إيمانه هذا بعالم الملائكة جديرا به أن يستجيش من أعماق نفسه ما سكن من خشيته لربه، ويبعث في

(١) الإيمان مفهومه وتطبيقاته، الشيخ الخليلي، ٦٦٥ / ج

نفسه عزائم الإيثار والتقوى، حتى يتأسى بالملا الأعلى في الطاعة والانقياد لرب السموات والأرض؟! " (١)

ومن هؤلاء الملائكة من هم ملازمون للإنسان يسجلون كل شيء مما يعمله من خير أو شر، وهم الملائكة الكرام الكاتبين، كما أخبر بذلك سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٥٦﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ (٢) وفي ذلك دفع للإنسان إلى الطاعة والاستحياء من الله تعالى، ومن هؤلاء الملائكة، فإن الإنسان حين يشعر بمراقبة الملائكة الكرام الكاتبين الذين لا يخفى عليهم شيء مما يأتيه، لأن الله سبحانه وتعالى مكنهم من ذلك، ومع ذلك فإن الله تعالى المراقب الأعظم سبحانه وتعالى... جدير بالإنسان أن يستشعر هذه المراقبة الدقيقة، وأن يحرص على أن لا ينقلب الملائكة إلى الله سبحانه وتعالى إلا بصحائف بيضاء من أعماله الصالحة، وأن يستشعر عظمة الله سبحانه وتعالى الذي تحشاها هذه الملائكة على ما لها من قوة، وما جعل لها من مزايا ليست موجودة في سائر الخلق، ومع ذلك لا يفترون عن عبادة الله، وهم من خشيته مشفقون. ومع ذلك فإذا خالف أحدهم أمر الله جازاه الله على ذلك، فكيف بهذا الإنسان الضعيف " (٣). ﴿ دَعُوعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١١﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) (٥)

ويقول سماحته - حفظه الله - : " إن إيثار الإنسان بالملائكة يجب أن لا يكون صورة خيالية، تعرض للذهن تارة وتختفي أخرى، وإنما يجب أن يكون

(١) برهان الحق، الشيخ الخليلي، مخطوط، ص ٥٣

(٢) سورة الانفطار، الآيات ١٠، ١١

(٣) الإيمان وحقيقته ٢ / ج ١

(٤) سورة السجدة، الآيات ١٥ - ١٦

(٥) سؤال أهل الذكر ٢٧ شوال ١٤٢٤هـ / ٢١ / ١٢ / ٢٠٠٣م

إيماناً حياً، يتجسد في أقواله وأعماله وميوله ورغباته ومشاعره وانفعالاته، فلا أمر ما كان الإيمان بهم ركناً ركينا في بناء هيكل الإيمان" (١)

الإيمان بالكتب

من مقتضيات الإيمان بالكتب عند المسلم الحق هو التطبيق العملي لما جاء في الكتاب المعجز القرآن الكريم بحيث يكون دستور حياته، بجانب تلاوته كما أنزل، يقول سماحته: "الإيمان بالكتب يقتضي التفاعل مع القرآن، فقد قال الله سبحانه وتعالى عن بني إسرائيل ﴿أَفْتُوْمُنُونَ بَبَعْضِ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ﴾" (٢) وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ تَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَايَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣). وهكذا شأن المسلم عندما يهجر هذا الكتاب فلا يعمل بمقتضاه، ولا يعمل بهديه، ولا يتبع نوره، فمثله مثل الحمار الذي حمل أوزاراً" (٤) ويقول سماحته أيضاً: "أما الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله فهو إيمان بنور الله المنزل على صفوة خلقه للهداية إلى الخير، وتبديد ظلمات المعتقدات الضالة من قلوب الناس، ووصل هذه القلوب ببارئها تعالى، ومعنى ذلك أن الإيمان بها هو ترجمتها في واقع حياة المؤمن، فعلاً وتركاً، وقبولاً ورفضاً، إذ لم ينزل الله تعالى كتاباً منها لمجرد التلاوة، بل للتدبر والإمعان، والهداية والاتباع، وقد اجتمع ما فيها من هدى وبصائر ونور وحكمة في القرآن الكريم" (٥)

(١) برهان الحق، الشيخ الخليلي، مخطوط، ص ٥٤

(٢) سورة البقرة، الآية ٨٥

(٣) سورة الجمعة، الآية ٥

(٤) الإيمان وحقيقته، الشيخ الخليلي، ٢/ج/١

(٥) برهان الحق، الشيخ الخليلي، مخطوط، ص ٥٥

الإيمان بالرسول :

يقول سماحته : " الإيمان بالرسول مدعاة إلى العمل الصالح ؛ لأنَّ الإنسان يفكر في هؤلاء الرسل لماذا أرسلوا ؟ إنما أرسلوا لدعوة الخلق إلى الحق، ما هو الحق ؟ أهو الإيمان والعمل الصالح ؟ فإذاً على الإنسان الذي آمن هؤلاء المرسلين أن يعمل صالحاً"^(١)

وكذلك فإنَّ الإيمان برسول الله تبارك وتعالى يعني الإيمان بصفوة خلقه، الذين اصطفاهم لحمل رسالته إلى عباده، وجعلهم وعاء لنوره، وجعلهم مهبطاً لوحيه، هؤلاء الرسل الإيمان بهم يقتضي ترسم خطواتهم، وإتباع سيرهم، فالإنسان مطالب بأن يسير على هداهم، وأن لا يجرد عن مسلكهم.

فالإيمان برسول الله تعالى يعني أن يكون الإنسان أولاً معجباً هؤلاء المرسلين ؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى كرمهم وفضلهم، ورفع من شأنهم، فهم أولى أن يملكوا النفوس البشرية بالإعجاب ، ثم من ناحية أخرى هم أولى بأن يتبعوا ويقتدى بهم، ويبتدى بهديهم"^(٢)

وبعد أن ذكر سماحته في " البرهان " فضائل الرسل ومزاياهم قال : " ولئن كان جميع أولئك الرسل تجلّلوا بتلك الفضائل النورانية، فإن من آمن بهم حقيق بأن يقتبس من فضائلهم، وأن يجعلهم أسوة له في حياته، لأنهم مثاله الذي يحتذيه، وأئتمته الذين يعتز بالانتماء إليهم، لا سيما خاتم النبيين الذي رقى من درجات الخير ما لم يرق إليه غيره، فبأي قدوة يقتدي إن لم يكن هذا النبي - عليه أفضل الصلاة والسلام - قدوة لحياته، وقائدا له في منهاجه؟ .

ومن المعلوم أنَّ جميع المرسلين ضربوا أروع الأمثال في خشية الله والخشوع له وحسن عبادته، والانقياد له في أمره ونهيه، والتضحية بكل راحة

(١) الإيمان وحقيقته، الشيخ الخليلي ، ٢/ج/١

(٢) سؤال أهل الذكر ٢٧ شوال ١٤٢٤هـ / ٢١/١٢/٢٠٠٢م

في حياتهم، بل بحياتهم كلها، من أجل إبلاغ دعوة الحق وهداية الناس إليه، وإنقاذهم مما هم واقعون فيه من الكفر والضلال، والبغي والعدوان، فما على من آمن بهم إلا أن يتجرد من جميع صفاته السائئة البالية، ويجلل أزهى الحلل من صفاتهم العالية، بحيث يجرد حياته للحق استمساكا ونصرة ودعوة، ليكون إيمانه بهم حياً يتحرك في عباداته وأخلاقه وسلوكه ومعاملاته" (١)

فليحذر الإنسان كل الحذر أن يتسلل لوأذاً، أو أن يسعى إلى أحد من رسل الله تعالى مهما كان الأمر، بل عليه أن يتنصر لهم، ويغضب لله من أجلهم، فذلك من مقتضيات إيمانه بهم.

الإيمان باليوم الآخر :

وهو اليوم العظيم ، يوم البعث والنشور، يوم الحساب، يوم العرض الأكبر، يوم الجزاء، يوم يعرض الظالم على يديه، يوم الحسرة والندامة، يوم لا يجزى والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

والدخول إلى اليوم الآخر يبدأ من خروج الروح من الجسد، إنه الموت الذي لا مفر منه ولا مهرب ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (٢) فليتذكر الإنسان سكراته الشديدة، ثم حياة البرزخ بها فيها من راحة أو عذاب، ثم يكون البعث من القبور ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٣) يقول سبحانه : " الإيمان باليوم الآخر إيمان بالمتقلب بحيث يلقي كل أحد جزاءه ، وينقلب إلى مصيره، وهذا الإيمان يقتضي أن يكون الإنسان عاملاً لذلك اليوم، حاسباً له حساباً، مستعداً للقاء ربه سبحانه وتعالى فيه، عارفاً أنه سينقلب إلى حساب يتناول جميع أعماله، دقيقها

(١) برهان الحق ، الشيخ الخليلي، عظوظ ١/٥٤ ، ٥٥

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٥

(٣) سورة إبراهيم ، الآية ٤٨

وجليلها، كما أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك عندما قال : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(١). فيومئذ يعرضون على ربهم لا تخفى من أحد خافية قط مما فعل، ومما قدم وأخر، وهذا يعني الاستعداد لذلك اليوم بالحرص على طاعة الله، وتجنب معصيته^(٢)

في ذلك اليوم يتناول الإنسان كتابه إما بيمينه وإما بشماله، على حسب عمله، ويقال له : ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٣) فيا للعجب إن هذا الكتاب يحصي مثقال الذرة، مما لا يتصوره الإنسان، إنها العدالة المطلقة ﴿لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ﴾^(٤) ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥) ، ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا﴾^(٦) حينئذ يقول الإنسان يا ليتني قدمت لحياتي، ولكن هل تنفع يا ليتني؟ كلا، هي في الدنيا لا تنفع في استرجاع ما فات، فكيف في الدار الآخرة؟ ويقول الظالم : ﴿يَنْحَسِرُنِي عَلَىٰ مَا قَرَّبْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾^(٧) ولكن هل تجدي حسرتة شيئا؟ لا ورب، ولزيد من العبرة والاتعاظ، ومزيد من الدعوة إلى تصحيح المسير والإنابة إلى الله عز وجل، فإن الله سبحانه وتعالى يذكر الحساب مقروناً بانحلال نظام هذا الكون، وتهاوي أجرامه، ووقوع بعضها على بعض، وما في ذلك من أهوال فوق ما يتصور الإنسان، فالله تعالى يقول :

(١) سورة الحاقة ، الآية ١٨

(٢) سؤال أهل الذكر ٢٧ شوال ١٤٢٤هـ / ٢١/١٢/٢٠٠٣م

(٣) سورة الإسراء ، الآية ١٤

(٤) سورة غافر، الآية ١٧

(٥) سورة الجاثية، الآية ٢٩

(٦) سورة الكهف، الآية ٤٩

(٧) سورة الزمر، الآية ٥٦

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٣٦﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿٣٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٣٨﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿٣٩﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿٤٠﴾ يَوْمَئِذٍ نُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿٤١﴾ ويقول: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٤٢﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٤٣﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٤٤﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُؤُ ﴿٤٥﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿٤٦﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿٤٧﴾ يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿٤٨﴾ ويقول: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿٤٩﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٥١﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ ﴿٥٦﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿٦١﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿٦٢﴾. ﴿٦٣﴾﴾

ألا فليتذكر أولوا الألباب ، وليعتبر أولوا النهى ، فما بعد القبر دار ، إلا الجنة أو النار؟! نسأل الله السلامة والعافية .

الإيمان بالجزاء :

ونعني بذلك اعتقاد الإنسان أنه سيجازى حتما على ما قدم من أعمال في هذه الحياة الدنيا ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ زَوْفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا

(١) سورة الحاقة ، الآيات ١٣ - ١٨

(٢) سورة القيامة ، الآيات ٧ - ١٣

(٣) سورة التكويز ، الآيات ١ - ١٤

(٤) شريط وللأخرة خير وأبقى ، الشيخ الخليلي ،

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٣٠

(٦) سورة البقرة ، الآية ٢٨١

كَسَبُوا وَهُوَ وَاقْعُ بِهِمْ^١ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ^٢ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٣١﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْبَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يَجْزُونَ^٣ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إنَّ هذا الإيمان (بالجنة والنار) إذا خالطت بشاشته قلب الإنسان، وسيطر على عقله ووجدانه، فإنه يعيش دائماً مع أحلام الدار الآخرة فتهدون في نظره الدنيا - مهما كانت - فلا يفكر في مصائب الدنيا ولا في نعيمها، بل يتساوى في ميزانه تبرها وتراها، وعذبا وعذابها، وحلوها ومرها، وعسلها وصابها، لأنه يفكر في الدار الآخرة، فالدنيا مهما طالت هي أنفاس محدودة، ولحظات معدودة، سوف يتجاوزها الإنسان إلى غيرها. أمَّا الآخرة فهي دار البقاء، وحسب الإنسان نعمة وسعادة ورحمة أن يتبوأ يوم القيامة جنة عرضها السموات والأرض،، له فيها ما تشتهي نفسه، وتلذذ عينيه، وحسبه عذاباً ونكدأ كبيراً، وشقاء وشرأ مستطيراً، أن يتبوأ - والعياذ بالله - ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، موكلون بعذابه، فيتساوى عند ذلك في قلبه الخوف والرجاء، وينبعث للعمل الصالح بدافع من رجائه، ويكف عن العمل السيئ بباعث من خوفه"^٣

فإذا استشعر الإنسان ذلك في جميع أحواله، سمت روحه ، وصفت نفسه، وتهدب وجدانه، وارتقى فكره، وحسن سلوكه. ولأجل تحقيق هذا الهدف، يرشدنا سماحته إلى تدبر آيات كتاب الله الكريم، الحافلة بذكر نعيم الجنة، والآيات التي تصور عذاب النار "فعلى الإنسان أن يعتبر بها، وعليه

(١) سورة الشورى، الآية ٢٢

(٢) سورة النمل، الآيات ٨٩، ٩٠.

(٣) الإيمان باليوم الآخر، الشيخ الخليلي، ٤١/ج/١ بتصرف

أن يتزود العظة منها. وعليه أن يعرف أن هذه الدار لا تساوي بجانب تلك الدار شيئاً ... وذلك يتجسد في حسن الطاعة، والانقياد لحكم الله^(١)

ويقول سماحته: " كتاب الله حافل بأوصاف الجنة، وحافل بأوصاف النار، وما على الإنسان إلا أن يتلو كتاب الله بإمعان، ويتدبره ليشهد مشاهد القيامة كأنها تترأى بين عينيه، وتتصور له بين يديه، فيحس كأنها يشاهد أهل الجنة في نعيمهم، ويشاهد - والعياذ بالله - أهل النار في عذابهم"^(٢)

وسأعرض هنا شيئاً مما نوه به سماحته من نعيم الجنة، ومن عذاب النار، أخذاً بتوجيهه - حفظه الله - بالرجوع إلى كتاب الله الكريم لتوضيح ما أشار إليه، لتكتمل به الصورة، ويكون أدعى للتأثير والتهديب .

أولاً: نعيم الجنة

لا ريب أن كل إنسان يتمنى أن يكون من سكان الجنان، خالدًا مخلدًا في النعيم، ورضوان الرب الكريم، تحفه عناية العزيز الرحيم، النبيون والمرسلون جيرانه، والشهداء والصالحون إخوانه وخلانه، تتلقاه الملائكة بالحفاوة والتكريم، وتطوف عليه بكرة وعشية بالزيارة والتسليم، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۗ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٣)

ولكن ياترى، ماذا تضم هذه الجنان بين جدرانها من النعيم؟ الذي أعده الله تعالى للطائعين من المؤمنين .

أحاول هنا تصنيف هذا النعيم قدر المستطاع على النحو الآتي :

(١) وللآخرة خير وأبقى، الشيخ الخليلي

(٢) الإيمان باليوم الآخر، الشيخ الخليلي، ٤١/ج/١

(٣) سورة الرعد، الآيات ٢٤، ٢٥

أ - عظم قدر نعيمها

يقول سماحته في ذلك "الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ يبين ذلك حيث يقول عليه أفضل الصلاة والسلام: " لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها"^(١) فالوضع الذي يضع أحدنا سوطه - أي عصاه - في هذه الجنة، هو خير من هذه الأرض وما فيها من أنواع الثروات المختلفة، والأموال والمتع وكل ما في هذه الدنيا، والنبى ﷺ يصف أيضا هذه الجنة ببلاغة النبوة، فيقول: " فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" في هذه الجنة مما أعده الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ما لا عين رأت، أي لم تكتشف عين مثل ما في الجنة، ولا أذن سمعت، أي ولم تسمع أذن بأوصاف متع وعطاء وخير مثل ما في الجنة، ولا خطر على قلب بشر نعيم كنعيم الجنة"^(٢)

ب - سعتها:

يقول الله سبحانه وتعالى واصفاً سعة الجنة ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

تلکم هي سعتها، وأبعادها، قد ندرك بعقولنا القاصرة عرض الأرض بما فيها من اليابسة والبحار والمحيطات، ولكن أتى لنا بتصور أبعاد السموات، وما اكتشف العلم الحديث من أبعادها إلا القليل، أو زاوية من الزوايا فحسب، وما اكتشف يدعو الى العجب، ويفوق قدرة التخيل لدى البشر.

يقول سماحته موضحاً سعة الجنة. " قد أخبر الله سبحانه وتعالى عن سعة هذه الجنة في قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

(١) سنن الترمذي ١٦٦٤، وفي صحيح البخاري " من الدنيا وما عليها " رقم ٢٧٢٥

(٢) الإيمان باليوم الآخر، الشيخ الخليلي، ٤١/١ ج

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٣٣

من الذي يستطيع أن يقدر عرض السموات والأرض؟ ومن الذي يمكنه أن يقيس أبعاد سماء واحدة من هذه السموات؟ إنَّ ذلك أمر مستحيل بالنسبة إلى قدرات الخلق، فعظم الجنة شيء لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى وحده، فهذه الجنة لا يمكن لأحد أن يقدر قدرها، وأن يعرف أبعادها، وأن يحيط بحدودها.^(١)

ويقول أيضا: "إن علماء الفلك الآن يتحدثون أن أبعد مجرة اكتشفوها تبعد عن هذه الأرض خمسة آلاف مليون سنة ضوئية، والسنة الضوئية هي ٦٠٠ مليون ميل، فالضوء يقطع ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، فلو أن إنسانا مشي بسرعة الضوء واستمر في الاتجاه إلى أبعد مجرة تبعد عن الأرض لما وصل إليها إلا بعد خمسة آلاف مليون سنة ضوئية، وفوق ذلك هناك ما يسمى بالإشعاعات التي حسبها يقول علماء الفلك أنهم اكتشفوا الأبعاد التي اكتشفوها فيها، يقدر بعدها عن الأرض بعشرين مليار سنة ضوئية، فهذه زاوية من عرض السموات الذي ذكر الله تبارك وتعالى، والذي تبين أن الجنة بمقدار عرض السموات والأرض، تلك الدار هذه هي سعتها، وبجانب هذه السعة يقول النبي ﷺ في وصفها: "لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها" أي موضع عصا.^(٢)

ج- الأشجار والأنهار والعيون:

يقول سبحانه: "لم يتكرر وصف من أوصاف الجنة كما تكرر وصف تجري من تحتها الأنهار"^(٣) فقد تكرر قوله تعالى ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٣

(٢) الإيمان باليوم الآخر / ٤١ / ج

(٣) الإيمان باليوم الآخر / ٤١ / ج

(٤) الإيمان باليوم الآخر / ٤١ / ج

الْأَنْهَرُ ﴿ ستا وثلاثين مرة، "والجنات جمع جنة وهي الحديقة ذات الشجر الملتف بعضه على بعض" (١)

"وجريان الأنهار من تحتها هو انسيابها تحت تلك الأشجار الباسقة الزاهية، وتدفقها تحت قصورها البهية العالية" (٢).

يمكنك أخي المسلم أن تتخيل تلك الصورة البديعة، والمشهد الرائع الخلاب، والرونق الجذاب "مشهد الأرض المكتظة بالشجر الذي يلتف بعضه على بعض، ومع ذلك تنساب المياه من تحت تلك الأشجار صافية رقاقة" (٣)

فيا للروعة، ويا للبهجة، ويا للسعادة والسرور "إن جريان الماء بين المروج الخضراء مما يضاعف بهجة النفس وقرّة العين، وسرور خاطر، فما بالك إذا كانت المروج من حسن الشكل، وبديع المنظر، بحيث لم تر مثل حسنها عين، ولا يتصور جمالها خيال، وكانت المياه تنساب على تراب المسك والكافور، وتدفق على أحجار الدر والياقوت" (٤)

وفيها العيون الجارية النضاحة بالمياه، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿١٠٠﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿١٠١﴾ (٥)

ويقول سبحانه: ﴿وَسَقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَجْجِيلاً ﴿١٠٢﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ﴿١٠٣﴾ (٦)

(١) ، الشيخ الخليلي ، ٢ / ٤٦٦

(٢) ، الشيخ الخليلي ، ٢ / ٤٦٦

(٣) الإيمان باليوم الآخر ، الشيخ الخليلي ، ٤١ // ج

(٤) ، الشيخ الخليلي ، ٢ \ ٤٦٥

(٥) سورة الإنسان ، الآيات ٦٥،

(٦) سورة الإنسان ، الآيات ١٧ ، ١٨

إنها عيون كثيرة كما وصف الله تعالى ﴿إِنَّ الْمُبْتَقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥١﴾ ﴿١﴾ ألا تسمع - أخي المسلم - إلى خرير المياه يعزف ألحانه البهيجة، والطيور الصداحة منسجمة مع أنغام غصون الأشجار المثقلة بالثمار اليانعة، إنَّها دار الخلود، يمكنك أن تتصور تداخل أشجار السدر المخضود، والطلح المنضود، وسائر أشجار الفواكه التي لا تنقطع عنها الثمار، ذات ظلال وارفة ممتدة، تخللها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، لقد جاء في الحديث عن طريق أبي هريرة " إنَّ في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، وقرأوا إن شئتم " وظل ممدود " (٢) وظل الجنان ليس كظل الدنيا الناتج عن حجب أشعة الشمس ، كلا ، إنَّه ظل بديع يكسب المنظر روعة ونقاء، وجمالاً وبهاء، فليس في الجنة شمس ولا زمهير، وليس فيها حر ولا برد، يقول سبحانه : ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهِيرًا ﴿٥٢﴾ وَذَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ﴿٥٣﴾﴾ (٣) إنهم في تمتع دائم، بلا كلل ولا ملل ولا ضجر، يقول سبحانه عن أهل الجنة : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٥٤﴾﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٥٥﴾﴾ (٤) لقد ذهب زمان التعب والنصب في الدار الدنيا، إذن ها أنت يا أخي ما تزال على قيد الحياة فانصب تنصب عن قريب غاية الأمل .

د- مساكن الجنان :

لقد وصف الله عز وجل مساكن المؤمنين في دار الخلد وصفاً عاماً في قوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) سورة الدخان ، الآيات ٥٠، ٥١

(٢) رواه البخاري رقم ٣٢٥٢

(٣) سورة الإنسان ، الآيات ١٣، ١٤

(٤) سورة فاطر ، الآيات ٣٤، ٣٥

خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ
ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣١﴾ ووصفت بعض الآيات المساكن بالغرف، نحو
قوله عز وجل : ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ ﴿٣١﴾ وقوله: ﴿لَيْكِنَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ﴾ ﴿٣٢﴾ إنها القصور البهية الشاخمة، ناهيك
عن حسنها وجمالها وسعتها. إنها غرف من فوقها غرف، وتمن - يا عبد الله - ما
شئت من الغرف تعط ما تشاء من تلك القصور، التي لم تشيد بالإسمنت
والحجارة، إنَّها من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، فقد جاء في الحديث الشريف
موضحا قول الله تعالى ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحَيَامِرِ﴾ ﴿٣٣﴾ بأنَّ الخيمة درة
مجوفة طولها في السماء ثلاثون ميلا، في كل زاوية منها للمؤمنين أهل لا يراهم
الآخرون" ﴿٣٤﴾ وإذا كانت هذه خيام الجنة فما بالك بالقصور المؤتثة بأفخر
الأثاث وأروعها؟! ، كما سيأتي الحديث عنه بعد قليل.

سأورد هنا بعض الصور من مساكن الحياة الدنيا الفانية، وهي - لا ريب - لا
تقارن بمساكن الجنان فالبوم شاسع ، فهناك ما لا يخطر على قلوب البشر، مع
يقيني أنه لا يوجد أحد من العباد لا يرضى أن يكون جزاؤه في الآخرة مثل
هذه المساكن مع الخلود الدائم والنجاة من عذاب الله تعالى الذي لا يطاق
ولا يحتمل، كيف لا؟! وهذا عمر بن الخطاب فاروق الأمة يتمنى أن يكون
لاله، ولا عليه يوم القيامة.

(١) سورة التوبة، الآية ٧٢

(٢) سورة سبأ ، الآية ٣٧

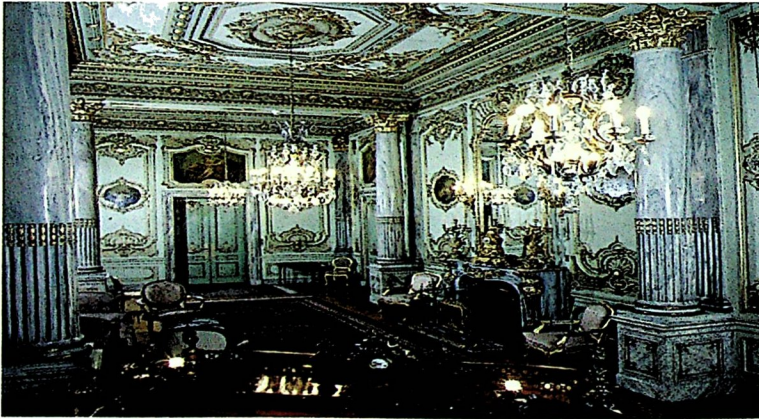
(٣) سورة الزمر ، الآية ٢٠

(٤) سورة الرحمن ، الآية ٧٢

(٥) صحيح البخاري رقم ٣٢٤٣



تصور أن هذا الممر مدخل لأحد قصورك التي تستقبل فيها زوارك في الجنة وهو من اللؤلؤ والزمرد



تصور أن هذه النقوس من الذهب والفضة والزمرد واللؤلؤ لإحدى زوايا غرف قصورك في دار الخلود والفرق بعيد جدا ، فلا مجال مطلقا أبدا لمقارنة هذا بها في دار الكرامة التي لا ينظر ببال أحد ما فيها من النعيم، وإنما الصورة للتقريب والعون على التخيل، فأرسل لفكرك العنان، وتخيل الأعاجيب، فإنك ستلقى بإذن الله فوق ما تتخيل . ستجد العجب العجائب، وكم سمعت من الذين رأوا الجنة في منامهم لا يستطيعون الوصف، ولا يملكون حال تذكر ذلك إلا البكاء، فيارب رحماك .

هـ - لباس أهل الجنة :

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿١٠٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مُخْلِوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٠١﴾﴾^(١) ويقول: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿١٠٢﴾﴾^(٢) ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مُخْلِوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٠٣﴾﴾^(٣) يمكنك أن تتخيل العبد المؤمن يبدو في هذا اللباس الأنيق الزاهي، بوجه مشرق كالقمر ليلة البدر، كما جاء في الحديث " أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون "^(٤) بقدره الواحد القهار .

و - الفراش والأثاث :

تختلف دار النعيم المقيم كلياً في أثاثها، وما يحتاج إليه أهل تلك الدار بالطبع، هل هم بحاجة إلى أدوات الطبخ والتبريد؟ كلا وألف كلا ، كل شي يأتيهم إلى فرشهم، وتدنو لهم الثمار، فأبي نعيم ونعيم هناك؟؟

يقول سبحانه وتعالى عن فرشهم: ﴿مُتَّكِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿١٠٤﴾﴾^(٥) ويقول: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ ﴿١٠٥﴾﴾^(٦) مُتَّكِينَ

(١) سورة الكهف، الآية ٣١

(٢) سورة الإنسان ،٢٠ ، ٢١

(٣) سورة الحج، الآية ٢٣

(٤) صحيح البخاري، رقم ٣٢٤٥

(٥) سورة الرحمن ، الآية ٥٤

عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ إِنهَا فَرَشُ الدِّيَاجِ النَّاعِمِ، وَالْوَسَائِدِ وَالطَّنَافِسِ الْحَسَانِ ﴿٣﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿٤﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿٥﴾ وَمَنَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿٦﴾ وَزَرَائِبٌ وَمِثْبُونَةٌ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ أَمَا أَنْتِهِمْ فَكَمَا ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿٩﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مَحْلُودُونَ ﴿١٠﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿١١﴾ لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ ويقول سبحانه: ﴿١٣﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِغَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٤﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٥﴾ و يقول: ﴿١٦﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴿١٧﴾ ويقول ﴿١٨﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٩﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿٢٠﴾ قيل الكوب هو ما لا أذن له ولا عروة، والأباريق ذوات الأذان والعرا " ﴿٢١﴾ وقد جاء في الحديث " أنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوة (العود) ورشحهم المسك " ﴿٢٢﴾ ولا ريب أن الكثير من الأثاث والآنية للزينة، وإضفاء مسحة من الرونق والجمال .

ز- الطعام والشراب :

يشير القرآن إلى بعض الأصناف من الطعام والشراب، والغالب على أسماء تلك الأصناف أنها مما يألفه الناس في حياتهم الدنيا، ويطلبون له،

(١) سورة الواقعة، الآية ١٥

(٢) سورة الغاشية، الايات ١٣—١٦

(٣) سورة الواقعة، الآيات ١٧ — ١٩

(٤) سورة الإنسان، الآيتان ١٦، ١٥

(٥) سورة الزخرف، الآية ٧١

(٦) سورة الغاشية، الآيتان ١٣، ١٤

(٧) معاني القرآن للقراء ٣ \ ١٢٣

(٨) صحيح البخاري، رقم ٣٢٤٦

ويحرصون عليه، على أن أنواعها وأشكالها وألوانها وطعومها لا يحيط بها إلا الله وحده، فما أشار إليه القرآن من طعام أهل الجنة :

- اللحم

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾^(١) فما يشتهي عباد الله من أنواع اللحوم المطبوخة أو المشوية أو المقلية بقدرة الله فهو رهن إشارتهم، ويقول سبحانه وتعالى أيضا: ﴿وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾^(٢) وتشير بعض الروايات أن الطائر يأتي إلى العبد فيقول له: جانبي الأيمن مطبوخ وجانبي الأيسر مشوي فكل من حيث شئت، فيأكل العبد ما شاء له أن يأكل، ثم يعود الطير كما كان يرفرف بجناحيه في رياض الجنة و أشجارها، فسبحان الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فقد أعد لعباده في دار كرامته ما لا يخطر ببال البشر.

- الفواكه :

وهي فواكه متنوعة عديدة، لا تنقطع في زمن من الأزمان، وليست مقيدة بمواسم كما هو الحال في الدار الدنيا، يتخير منها صاحب الجنة ما يشاء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣) لَكُمْ فِيهَا فِكْهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿^(٤)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾^(٥)، ويقول

(١) سورة الطور، الآية ٢٢

(٢) سورة الواقعة، الآية ٢١

(٣) سورة الزخرف، الآيات ٧٠، ٧١

(٤) سورة ص، الآية ٥٧

﴿وَفِيكِهِمْ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾^(١) ويقول: «وَفِيكِهِمْ كَثِيرَةٌ ﴿٣٧﴾ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾^(٢)

- الشراب :

وقد وصف الله تعالى الشراب بأنه طهور من كل أذى ، يقول سبحانه: ﴿وَسَقَلَهُمْ زَهْمٌ شَرَابًا طَهُورًا﴾^(٣) وهو ذو طعم مختلف يكون أنهاراً وعيوناً، وفي الآنية من الأكواب التي هي قوارير من فضة صفاءً وحسناً، ومن أنواع الشراب الماء الطيب الزلال الصافي، واللبن الذي لا يتغير طعمه، والخمر التي لا إثم ولا غول ولا سكر فيها، وشراب العسل المصفى، والماء الذي مزاجه الكافور لطيب رائحته، وما لا يعلمه إلا الله من عصائر الفواكه الكثيرة والمتنوعة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿٣٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٣٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾^(٤) ويقول أيضاً: ﴿إِنِ الْأَبْرَارُ يَشْرَبُونَ مِّنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٤٠﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾^(٥) ويقول: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤١﴾ بِيضَاءٍ لَّذَةٍ لِلشَّرِيبِينَ ﴿٤٢﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ ﴿٤٣﴾﴾^(٦)

(١) سورة الواقعة ، الآية ٢٠

(٢) سورة الواقعة، الآيات ٣٣، ٣٢

(٣) سورة الإنسان، الآية ٢١

(٤) سورة الواقعة ، الآيات ١٧ - ١٩

(٥) سورة الإنسان، الآيات ٥، ٦

(٦) الصافات ، الآيات ٤٤ - ٤٧

ح- الحور العين وأوصافها :

لقد أفاض القرآن الكريم في ذكر أوصاف الحور العين، وهن نساء أهل الجنة، والحور في العين سعتها، وقيل شدة بياض بياضها، وسواد سوادها، ومنه قول الشاعر :

إنَّ العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلنا

بصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

ويصدق وصف الحور العين على جميع نساء الجنة من الصالحات المؤمنات واللاتي أنشأهن الله تعالى لإنشاء، ليحصل الأنس بين الأزواج، ويتم الاستمتاع، ويكمل النعيم ، يقول سماحته : " والإنسان يوم القيامة لا يتحول عن إنسانيته، وقد وفر الله لعباده المؤمنين في دار كرامته جميع ما يتوق إليه أنفسهم في الدنيا من متع الحياة ونعيمها، فما يؤتونه في الدنيا إنما هو بقدر هذه الحياة المحدودة، ويقدر طبيعتها المقيدة التي تختلف تمام الاختلاف عن طبيعة الحياة الأخرى المطلقة، فالفارق بين الدارين كالفارق بين البقاء فيها"^(١)

ونبدأ صفات نساء الجنة بقوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾^(٢) يقول سماحته : "ويراد به أنهن منزهات من جميع الأدناس الحسية والمعنوية مما يكون في الدنيا خاصا بالنساء، أو مشتركاً بينهما وبين الرجال، فجميع الأقدار التي تفرزها الطبيعة في نساء الدنيا أو فيهن وفي رجالها نزهت منها نساء الآخرة ، وكذلك ما يكون من لؤم الطباع مما تعد قذارته معنوية كالغل والكيد والحسد، نزه الله تعالى منه نساء الآخرة، سواء كن من الصالحات في الدنيا كما روي عن ابن مسعود^(٣) في تفسير الأزواج هنا، أو كن من الحور

(١) جواهر ٢ / ٤٧٥-٤٧٦ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥ .

العين كما قال غيره، والظاهر أن المراد بالأزواج هنا ما يعم النوعين لكمال أنس المؤمنين بهما معاً^(١) وقد تقدم الحديث أن أهل الجنة لا يمتخطون ولا يتخطون، ذلك لأن الله تعالى أبعد عنهم كل الأذى ودواعيه، وأعطاهم ما تشتهي أنفسهم، فهم أطهار حساً كما هم أطهار من الناحية المعنوية، بدليل قوله تعالى أيضاً: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾^(٢) وقد وصف الله تعالى الحور العين بقوله: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَافِ لَمْ يَطْمِئِنَّ بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾^(٣). أي لم يباشرهن أحد من قبل، وذلك أدعى لطهرهن ونقائهن؛ لكونهن طاهرات مطهرات من أصل خلقتهن.

* الحسن والجمال :

مما لا ريب فيه أن نساء أهل الجنة في غاية الحسن، ومتهى الجمال، وذروة البهاء والدلال، وجوه مشرقة وضيئة كأنهن الشمس في رابعة النهار ليس من دونها حجاب، لهن عيون حور تفتك بالقلوب لولا أن الله تعالى قضى أن من في الجنان لا يموت فيها ولا يشقى، بشعر طويل فاحم تسرحه لهن الوصائف من الحور العين بأمشاط الذهب، أجسادهن كأنهن بيض مكنون، تفوح منهن الروائح الزكية كأنهن فتائل عطر من روائح الجنة التي توجد من مسيرة كذا وكذا من السنين، فله ما أطيب العيش وأسعده، وما أهنأه وما أرغده، إقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَافِ عِينٌ﴾^(٤) كأنهن بيض مكنون^(٥). وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾^(٧) كأمثل اللؤلؤ المكنون^(٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ

(١) جواهر ٢ / ٤٧٤ - ٤٧٥

(٢) سورة الحجر، الآية ٤٧

(٣) سورة الرحمن، الآية ٥٦

(٤) سورة الصافات، الآيتان ٤٨، ٤٩

(٥) سورة الرحمن، الآية ٥٨

(٦) سورة الواقعة، الآيتان ٢٢، ٢٣

إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾، والعُربُ جمع مفرد لها عُروبٌ وهي المرأة الغنجة المتحبية إلى زوجها^(٣٨) وقيل: الأتراب، أي في سن الثالثة والثلاثين^(٣٩) وهو سن الفتوة والحوية والشباب، وفوق ذلك فإنهن قاصرات الطرف فلا ينظرن إلى غير أزواجهن، وقد أَلَّفَ اللهُ بين القلوب، وجمعها في ظلال الحب والأنس الذي لا يتكرر.

وتساءل الكثير من النساء أينطبق وصف الحور العين على النساء الصالحات في الجنة؟! ولعمري إذا كانت الأحاديث النبوية تنص على أنَّ الرجل في صور القمر ليلة البدر، فإذا عسى أن تكون زوجته من النساء الصالحات؟ وفي النص القرآن: ﴿كَأَنَّهنَّ اللَّيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(٤٠)، وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾^(٤١)، وقوله عز من قائل: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾^(٤٢) ما يدل على مكانتهن من الحسن والجمال، والطهارة والنقاء، وقد أشارت بعض الروايات عنه ﷺ أن الحور العين يكن وصائف للمرأة الصالحة، يخدمنها ويرفعن مروطها وأذيالها من السندس والحريير، تلك المروط التي تجرها غنجا ودلالا في دار النعيم، ولئن اشتهدت المرأة الصالحة في جنان الخلد أن تضاهي الشمس في ضيائها، إلى ما وراء ذلك مما لا يخطر بالبال من صفات الحسن والجمال، فإن الله تبارك وتعالى يعطيها سؤالها. أو ليس هو القائل سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

(١) سورة الواقعة، الآيات ٣٥ - ٣٧

(٢) معاني القرآن، الفراء ١٢٥/٣

(٣) السابق بالصفحات نفسها

(٤) سورة الرحمن، الآية ٥٨

(٥) سورة الصافات، الآية ٤٩

(٦) سورة البقرة، الآية ٢٥

تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ ، والقائل : ﴿ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ﴿٣٢﴾ فسيحانه لا يعجزه شيء أبدا .

ولئن كانت المرأة في الدنيا تحب أن تبدو جميلة، فقد أعطها الله في دار كرامته من الحسن والجمال ما لا يتصور، كما أعطى زوجها جمالا عظيماً، ويعطيان من القوة على اللقاء الزوجي ما الله به عليم، يقول سباحته : "وجاءت أحاديث عن رسول الله ﷺ في بيان أحوال نساء الجنة منها الصحيح ومنها الحسن، ومنها دون ذلك، وهي صريحة في أن الاتصال بين الزوجين يتم يوم القيامة على نحو ما يكون في الدنيا، وإن كان أكمل في اللذة، وأبعد عن الأذى" ﴿٣٣﴾ وفي بعض تلك الروايات أن العناق يدوم أكثر من أربعين عاماً، ولم لا يكون ذلك، فالحياة دائمة لا انقطاع لها، والنعيم مستمر، ورزق الله ماله من نفاذ .

الوصف الجامع للنعيم الجنة :

يقول سباحته : " لقد وصفها الله سبحانه وتعالى بأوصاف شتى تدل على ما فيها من النعيم المقيم، من تلکم الأوصاف التي تعد من أجمع أوصاف الجنة ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾ فما من شيء تشتهي النفس الإنسانية، وتفتح عليه إلا وقد أعدها الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين، كما جاء أيضا وصفها بأنها ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُى الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ

(١) سورة فصلت ، الآية ٣١

(٢) سورة الزمر ، الآية ، ٣٤

(٣) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٢ / ٤٧٥

(٤) سورة فصلت ، الآية ٣١

الْأَعْيُنُ ﴿١١﴾ فما من شيء يسر الناظرين إلا وهو في الجنة ، وما من شيء يميل إليه القلب إلا وهو في الجنة" ﴿١٢﴾

ويقول عز وجل: ﴿وَهُمْ فِي مَا اسْتَهْتُمْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ هُمْ فِيهَا مَشَاءُونَ وَعِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿١٤﴾ ويقول عز وجل: ﴿هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ ﴿١٥﴾ وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٧﴾

تؤكد هذه الآيات على حقيقة أن العبد الصالح يعطى كل ما تشتهي نفسه ويعطى كل ما يشاء ويرغب ويتمنى. إنه فضل الله الكبير المتعال، فاطلب ما شئت وكما يحلو لك تعط ، وماذا عساك أن تتمنى والله عز وجل قد أعد لك ما لم يخطر على بالك القاصر، فالله يعلم خطرات الأنفس ، وما تخفي الصدور .

هذا وقد قال ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرءوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ﴿١٨﴾ . وقد أخفى الله سبحانه وتعالى عنا الكثير من النعيم الذي تقر به الأعين ، ربما لتشويقنا

(١) سورة الزخرف ، الآية ٧١

(٢) الإيمان باليوم الآخر ، الشيخ الخليلي ، ٤١ / ج

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٢

(٤) سورة الشورى ، الآية ٢٢

(٥) سورة الفرقان ، الآية ١٦

(٦) سورة النحل ، ٢٠ ، الأيتان - ٢١ .

(٧) صحيح البخاري ٣٢٤٤

إلى دار الكرامة، فنعدل من مساراتنا المنحرفة، ونحث السير إلى بلوغ دار الخلود، وتحقيق مرضاة الكريم المنان، وقد يضاف إلى ذلك علمه جل شأنه عدم قدرة عقولنا البشرية القاصرة في هذه الحياة الدنيا على تصور ذلك النعيم العظيم، فلا طاقة لعقولنا على التخيل، إذ هو فوق طاقتهم المحدودة، أضف إلى ذلك أنه لا توجد لغة تعبر عنه لأنه غير موجود بالدنيا أصلاً.

حاول أن تتخيل نعيم الجنة

يمكنك الآن أن تسترخي قليلاً، غَضَّ من طرفك، واسمح لبصيص من الضياء أن يتسرب إلى مقلتيك لتسبح في حلم من أحلام اليقظة الوردية، تخيل أنك في جنة الفردوس، يا للروعة والجمال، وجهك يشع بالنور كالقمر ليلة البدر، وأنت في غاية الوضاعة والنضارة والحسن والجمال، وفي قمة السعادة والحبور، وذروة البهجة والسرور، تلبس ثياباً من السندس الأخضر الموشى بالحرير، وعليك لحاف من الإستبرق، تفوح منك روائح المسك، وفي معصميك أساور من الذهب تلمع لمعان الكواكب الدرّية، لا شعر في جسدك إلا لمة الرأس إلى شحمة الأذنين، فاحماً كثيفاً مرجلاً لامعاً، وشعر الحاجبين كأنها خططا بقلم، ها أنت تمشي الهوينى في ظل ممدود مسيرة ألف عام، تحت أشجار كثيفة، شديدة الاخضرار من أشجار الفواكه المتنوعة شكلاً وألواناً وأحجاماً، تتدلى في غصونها النضرة، تكاد تلامس رأسك، وبعضها على جانبيك، تناديك " خذني يا عبدالله"، تنساب من تحتها المياه الرقراق الصافية، تهب عليك نسائم لطيفة تداعب ثيابك السندسية، فتحدث أصواتاً خفيفة تشبه الأهازيج، يطرب لها الفؤاد، محملة براوائح زكية، يملأ عبق شذاها الآفاق، وها أنت تسير على ضفاف نهر من لبن لم يتغير طعمه، تزين ضفتيه حشائش الزعفران والأشجار الباسقة، والقصور المنيفة، وغير بعيد عنك في الناحية الأخرى نهر من عسل مصفى، تترقرق مياهه محدثة أنغاماً عذبة تلذ النفس وقعها، وطيور زاهية الألوان تجوب سماءك، تهزج

بالتسبيح والتحميد لذي الجلال والإكرام، تعرض نفسها عليك، فجانبتها الأيمن مطبوخ وجانبتها الأيسر مشوي . إن كان لك رغبة إلى الطعام فهي رهن إشارتك حيثما كنت وفي أي وقت تشاء، ولا تنس أن تلتفت على يسارك، ألا ترى تلك العين الضخمة نضاجة بالمياه العذبة الصافية ، نعم هاهي المياه الرقراقة تنساب على لآلئ من الدر والياقوت، وبُدر من الذهب والفضة والزبرجد الأخضر، إنَّها ترسم لوحة بديعة تأخذ بمجامع القلوب، ها أنت قد اقتربت من قصرك المنيف الذاهب في عنان السماء، إنَّها غرف كثيرة من فوقها غرف مبنية بقدرة الواحد الأحد.

فيا لجودة البناء! ويا لجمال المنظر!غرف من اللؤلؤ، وغرف من الياقوت ، وغرف من الذهب، وغرف من الزبرجد مزخرف أحسن زخرفة في الوجود، تتعانق من حوله الأشجار الباسقة بثمارها الدانية، وطيورها الصداحة، وتجري من تحتها الأنهار، وها هي الملائكة الكرام تتلوا بالبشر والسرور، والحفاوة البالغة والتكريم، يقولون لك : ﴿سَلِّمْ عَلَيْنَا بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ فتسبح الله وتحمده على ما أعطاك وأولاك ، فيقولون لك : هذا ملكك مسيرة ألف عام، يا الله لك الحمد والمنة، وها أنت تدخل القصر المشيد، فهناك زوجتك تنتظرك منذ مدة، وهي في أحرَّ ما تكون من الشوق إليك ، والحنين إلى رؤياك، ولك في قصرك أزواج كثيرة، وفي قصور أخرى نعيم وأزواج مطهرة آخر، ناهيك عن حسنهن وجمالهن الرائع، وضياء شديدة، وصفاء عظيم، وجوههن كالشموس، يرسلن على ظهورهن وأكتافهن خصائل الشعر الطويل الكثيف الفاحم، في سواده الحالك، يضعن على رؤوسهن تيجان بديعة الشكل من الذهب، مكللة بدرر تتخالف فيها الأضواء، فكل درة تعكس طيفاً مختلفاً في لونه ومقدار نوره، إن ابتسمت إحدى الحور أضواء القصر كله، واكتست وجنتها وضياء وبريقاً، وكساها البشر حسناً على حسن، وبدت أسنانها في انتظام بديع، كأنهن الدر المنظوم، بريقاً ولمعاناً وانتظاماً، تكسبها الشفاه اللماء روعة وجمالاً فوق ما هي عليه

من الحسن والجمال، وأجسادهن أنعم من الديباج، تكاد الحوراء تدوب في لحظتها غنجا ودلالا، يرفلن في أثواب الحرير والإستبرق، متعدّد الألوان والأشكال والنقوش، يسحبن ذبول ثياهن على أرض القصر، يلبسن من الحلي والأساور ما لا يستطيع وصف جماله وحسنه إلا الخالق العظيم.

ها هي زوجتك قد أقبلت إليك كأنّها شمس الضحى ليس دونها حجاب، ترفل في ثياب السندس والحرير، الذي تأخذ بذبوله بعض الوصائف من الحور العين، وزوجتك مرسلّة ذوائبها على كتفيها فيزداد وجهها وضاءة وحسناً رائعاً، وفوق رأسها تاج من الياقوت مكلل بالجواهر، تتخلله درر من الذهب والفضة، تعكس شتى الألوان، وقد ارتجت جنبات القصر بأريج عطرها الفوّاح، ونفح طيبها الذي يكاد يسلب العقل لولا حكم الله أن لا نصب في الجنان، تمشي الهوينى ومن حولها وصائفها من الحور العين اللاتي كن يؤانسنها في غيبتك، ويظفن عليها بصحائف الذهب المليئة بشتى صنوف الطعام، وأكواب الشراب، إنّها مقبلة إليك فرحة جذلي، تكاد تسبقها خطواتها إليك من شدة البهجة بمقدمك الميمون، والسرور بوصولك المبارك، تزيدها اللهفة غنجاً ودلالاً، قد علاها البشر فكساها ضياء وبهاء وجمالا على جمال، وها أنتما تعتنقان عناقاً حاراً بعد شوق وفرقة وحنين، ويفتح لكما الولدان المخلدون أبواب المجلس ريثما تهدأ الأشواق قليلا لتذهبا سويا بعد ذلك بالتجوال في أجنحة القصر، وغرفة المنيفة، وها هو المجلس سعته مسيرة فرسخين، تستقبل فيه إخوانك الصالحين من سكان الجنان، وقد صففت فيه الوسائد والطنافس، بطائنها من إستبرق، مزود بالموائد، وما شاء الله أن يكون فيه من نقوش الذهب والفضة والزينة الفاخرة، وأنواع الأثاث الذي يخلب العيون، ولا تظن أن تلك الأضواء تنبعث من المصابيح المثبتة في السقف، كلا بل هي صفائح من الذهب، وصفائح من الفضة في لمعانها وبريقها، وهاهم الولدان المخلدون، قد أقبلوا كأنّهم لؤلؤ مكنون، يطوفون عليكما بصحاف من الذهب وآنية من الفضة ﴿وَأَكْوَابُ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾

قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ ﴿٣﴾ . فيتناول كل واحد منكما ﴿كَأَسَا كَانَ مِرْآجُهَا
زَجْجَبِيلًا﴾ ﴿٣﴾

الآن قبل أن تصعد إلى أجنحة القصر مع زوجك النورانية، استيقظ يا أخي ، افتح عينيك، اعركهما بلطف براحتيك قليلا ، أين أنت الآن ؟ أين زوجتك التي كنت تعانقها قبل قليل؟ أين ذهبت عنك؟ أين الحور العين والولدان؟ أين الصحف والأكواب؟ انظر إلى ملابسك هل هي من الحرير والإستبرق؟ هل ثمة عطر ينفخ من أعطافها وأردانها؟ ماذا تشاهد؟ جداراً كالحلأ؟ لا عليك، قم قليلا أزح الستارة وافتح النافذة ! أين الأشجار الباسقة؟ والأنهار المتدفقة من اللبن والعسل المصفى؟ أين القصور والطيور؟ ماذا تشاهد؟ لا شيء ! لا عليك، فأنت ما تزال في الدار الدنيا، وتلك الدار تحتاج إلى ثمن ، والحور العين تطلب مهراً، ولكنه ميسور على من يسره الله عليه . هل تريد ما كنت تحلم به قبل قليل إرادة صادقة؟ سل نفسك بأمانة ، نعم؟ إذا عاهد نفسك من هذه اللحظة بأن لا تعصي الله أبداً ، ما استطعت، وأن تؤدي جميع الواجبات ، وتتعهد نفسك باستمرار دون كلل ولا ملل، حتى لا يستفزها الشيطان ، وتخدعها حباثته، ويجمع بها الهوى، واحذر كل الحذر من الوقوع في المهينات والسخافات، فلا يراك الله تعالى إلا حيث أحب، وما هي إلا لحظات ستمر سريعاً جداً حتى تصل إلى هناك، يقول سماحته : " وكفى سعادة أن يفوز الإنسان برضوان الله، وما يترتب عليه من حياة الخلد والنعيم المقيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، في مقابل أن قيّد نفسه عن شهواتها، في فترة قصيرة لا توازي شيئاً بجانب حياة الأبد" ﴿٣﴾

(١) سورة الإنسان ، الآيات ١٥، ١٦

(٢) سورة الإنسان ، الآية ١٧

(٣) جواهر ٣ / ١٥٥ .

* عذاب النار والعباد بالله :

لقد بين الله لنا طرفاً من العذاب الشديد الأليم الذي لا يطاق ولا يحتمل مما أعده الله للعصاة والكافرين، إنَّها نار حامية، إنَّها لظى، نزاعة للشوى (للجلد)، وإذا كان الإنسان لا يحتمل لفح حرارة الشمس في الحياة الدنيا فأتى له باحتمال السموم والحميم، والعذاب الشديد، من السلاسل ومقامع الحديد، يقول عز وجل: ﴿بَيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ۝١١٠ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝١١١﴾ ، ويقول: ﴿وَفِي الْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١١٢﴾ ويقول: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١١٣﴾ أسأل الله السلامة والعافية، وأن يباعد بيننا وبين العقاب، وأليم العذاب، وأن يعتقنا من النار بمنه ورحمته وفضله، وسأعرض لشيء مما ذكره الله تعالى من عذاب النار في كتابه الكريم.

• الصراخ والخصام :

يخبرنا المولى جلت قدرته أن أصحاب النار يختصمون ويتشاجرون إضافة إلى صراخهم الدائم، وشهيقهم وزفيرهم المستمر من شدة العذاب، يقول سبحانه وتعالى عن خصامهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝١١٤﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَخْنُ صَدَدْتُمْ عَنْ أَهْدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ۝١١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا

(١) سورة الحجر، الآيات ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة الحديد، الآية ٢٠.

(٣) سورة فاطر، الآية ١٠.

الْأَعْلَلُ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾ ، ويقول:

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَضِيٌّ مَعَكُمْ لَا مَرْحَاتٍ بِهِمْ إِيَّاهُمْ صَلَّوْا النَّارَ ﴾ (٣١) قَالُوا بَلْ
 أَنْتُمْ لَا مَرْحَاتٍ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئْسَ الْقَرَارُ ﴿٣٢﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ
 لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَدَابًا ضَعْفًا فِي النَّارِ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا
 نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٣٤﴾ أَخَذْتَنَاهُمْ سَخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٣٥﴾ إِنْ
 ذَلِكَ لِحَقِّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ ﴿٣٦﴾ ويقول سبحانه: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ
 فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ
 عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ (٣٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ
 قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٣٨﴾ ويقول: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرَّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
 نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ
 تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ (٣٩) ، ويقول: ﴿فَأَمَّا
 الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (٤٠)

* لباس أهل النار :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ ﴾
 (٤١) ، وقال سبحانه : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (٤٢)
 سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٤٣﴾ وإذا كان أهل الجنة
 يرفلون في الحرير وأساور الذهب، فهؤلاء يأتون مكبلين بالسلاسل
 والأغلال يلقون في مكان ضيق جدا، يقول عز وجل : ﴿ إِذِ الْأَعْلَالُ فِي

(١) سورة سبأ، الآيات ٣١ - ١٣٣

(٢) سورة ص ، الآية ٥٩

(٣) سورة غافر ، الآيات ٤٧ ، ٤٨

(٤) سورة فاطر ، الآية ٣٧

(٥) سورة هود ، الآية ١٠٦

(٦) سورة الحج ، الآية ١٩

(٧) سورة إبراهيم الآيات ١٠٨ ، ١٠٩

أَعْتَقِيهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٣١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٣٢﴾ ،
 ويقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْقَوَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٣٣﴾
 لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ ، وقال سبحانه عن أوتي
 كتابه بشماله يوم القيامة ﴿ خذوه فَعَلُوهُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلْوَهُ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ
 ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٦﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا
 لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ ﴿٣٧﴾ . هذا ما يلف أجسادهم من
 الحديد والثياب النارية، والعياذ بالله .

* الطعام والشراب :

إذا كان أصحاب الجنة يتلذذون بفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما
 يشتهون، فأهل النار ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿١﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي
 مِنْ جُوعٍ ﴾ ﴿٢﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَالِكَ حَمِيمٌ ﴿٣﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا
 مِنْ غَسَلِينَ ﴿٤﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِفُونَ ﴾ ﴿٥﴾ ، والضريع : "شيء في النار
 كالشوك مرٌّ متنن ، والغسلين : ما يسيل من صديد أهل النار ودمهم من
 الجروح والحروق، ويقول سبحانه في وصف طعامهم أيضا : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ
 أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٦﴾ لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٧﴾ فَمَا لُؤُنَ مِنْهَا
 اللَّبْطُونَ ﴿٨﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٩﴾ فَشَرِبُوا شَرِبَ أَهْلِيمٍ ﴾ ﴿١٠﴾ وقال
 سبحانه في وصف شجرة الزقوم : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿١١﴾ طَعَامٌ الْأَثِيمِ

(١) سورة غافر، الآية ٧١-٧٢

(٢) سورة الفرقان، الآية ١٣

(٣) سورة الحاقة، الآيات ٣٠ - ٣٢

(٤) سورة الإنسان، الآية ٤

(٥) سورة الغاشية، الآيات ٦-٧

(٦) سورة الحاقة، الآيات ٣٥ - ٣٧

(٧) سورة الواقعة، الآيات ٥١-٥٥

﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ (١) كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿ (٢) والمهل هو : النحاس المذاب الذي تنهى حره، فهو يجرجر في البطن كغلي الحميم، أي كغليان الماء الشديد الحرارة، وقال سبحانه في وصف هذه الشجرة وثمرتها : ﴿ أذَلِكَ خَيْرٌ نُّزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴾ (٣) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿ (٤) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿ (٥) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿ (٦) فَأَيُّهُمْ لَّا يَكُونُ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونِ ﴿ (٧) ثُمَّ إِن لَّهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿ (٨) ثُمَّ إِن مَّرَجَعُهُمْ لَأَلَى الْجَحِيمِ ﴿ (٩). وشبه الثمرة برؤوس الشياطين لظفاعة شكلها، وقبح منظرها مع ما تحتويه من المرارة الشديدة، ويقول تعالى في وصف طعامهم أيضا : ﴿ إِن لَدَيْنَا أَنكَالًا وَحَجِيمًا ﴾ (١٠) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿ (١١) يغص به أكله. قال ابن عباس : " شوك من نار يعترض في حلقهم لا يخرج ولا ينزل " (١٢) ، وإذا أكلوا من ذلك احتاجوا إلى الشراب، ولا شراب إلا من الحميم، ذلك الماء الذي يغلي من شدة حرارته فيقطع الأمعاء ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (١٣) أو من الماء الصديد ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ (١٤) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿ (١٥) ،

فلا إله إلا الله ما أشد العذاب في جهنم ، ﴿ إِيَّا الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (١٦) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿ اللهم أعذنا منها يا أرحم الراحمين.

(١) سورة الدخان ، الآيات ٤٣-٤٦

(٢) سورة الصافات ، الآيات ٦٢-٦٧

(٣) سورة الزمل، الآية ١٢

(٤) صفوة التفسير ٣ / ٤٦٧

(٥) سورة حمد، الآية ١٥

(٦) سورة إبراهيم ، الآيات ١٥-١٧

* صنوف العذاب :

تلك الثياب التي قطعت من النار لأهل النار، ومع أنهم مكبلون في الأصفاد، ومع الجوع الشديد الذي يلجأون معه إلى أكل الزقزم والصديد والقيح، ومع العطش الشديد الذي يلجأون معه إلى شرب الحميم، مع كل ذلك فهناك الكثير من ألوان العذاب وضروب النكال ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا﴾ (١٢) و«طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا» (١٣) ومن ألوان هذا العذاب ما حكاه الله تعالى في سورة الحج في قوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (١٤) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿وَهُمْ مَقْمُوحُونَ مِنْ حديدٍ﴾ (١٥) كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٦) ، فانظر وقاني الله وإياك عذاب النار كيف تكون ثيابهم نارية، ثم يصبُّ فوق رأس العاصي الماء الحار المغلي الذي ينصهر به ما في بطنه، وينسلخ جلده، فيبدل الله له جلداً آخر ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (١٧) ثم فوق ذلك يضرب في رأسه وسائر جسده بمقامع وسياط من الحديد، وفي الحديث "إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينقذ فينقذ إلى الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان" (١٨).

فيهمون عند ذلك بالخروج من شدة الغم وعظيم الكرب، فيعادون فيها من جديد ليدوقوا ألوان العذاب. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ﴿١٢﴾ طَعَامٌ لِلْأَثِيمِ ﴿١٣﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿١٤﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿١٥﴾ خَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿١٧﴾﴾

(١) سورة المزمل، الآيات ١٢، ١٣

(٢) سورة الحج، الآيات ١٩ - ٢٢

(٣) سورة النساء، الآية ٥٦

(٤) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح غريب، سنن الترمذي ٧٠٥/٤

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١﴾ هذه أوصاف رهيبة خطيرة ، الشجر الذي يطعمونه هو شجر الزقوم، يغلي في البطون كغلي الحميم ، له ثوران عظيم - والعياذ بالله - يقول سياحته : يقول سبحانه : ﴿ هَذَا نَحْوُ حَصْمَانٍ آخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿٦﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٧﴾ وَهُمْ مَقْمَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٨﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ . هذا الذي يصبُّ على رؤوسهم من الحميم تنصهر به أعضاؤهم والعياذ بالله ، وبجانب ذلك لهم مقامع من حديد تقمع به رؤوسهم ، وما أدراكم ما تلکم المقامع ؟ ﴿١٠﴾ . وأين المهرب؟ هيهات، فهناك ملائكة موكلون بعدابهم ﴿ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ ﴿١١﴾ ، وهي مؤصدة عليهم مقفلة الأبواب، والنار بنفسها تجرهم بألسنتها، وتقلهم وتهوي بهم في قاعها، إنها تكاد تنقطع من الغيظ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا الْقَوَا فِيهَا سَمِعُوا هَا شَمِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿١٢﴾ تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿١٣﴾ ، بل إنها من قبل أن يلقوا فيها وهم بعيدون عنها يسمعون زفيرها من شدة الغيظ على العصاة ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا هَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ ﴿١٤﴾ ، أي " سمعوا صوت لهيها وغليناها كألغضبان إذا غلا صدره من الغيظ، وسمعوا لها صوتا كصوت الحمار وهو الزفير " ﴿١٥﴾ ، وهي دائمة التوقد ، لا يفتر لهيها " ، ﴿ وَقُودُهَا

(١) سورة الدخان ، الآية ٤٣

(٢) سورة الحج ، الآية ١٩ - ٢٢

(٣) الإيمان باليوم الآخر ، الشيخ الخليلي ، ٤١ / ج

(٤) سورة التحريم ، الآية ٦

(٥) سورة المللك ، الآية ٧

(٦) سورة الفرقان ، الآية ١٢

(٧) صفوة التفسير ٢٥٦ / ٢

النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴿١﴾ قيل : " هي حجارة الكبريت لتمييزها بين الأحجار بسرعة الاشتعال، وشدة الحرارة، وكثرة الدخان، وnten الرائحة، والالتصاق بالأبدان، وهو قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما" (١) ، وذلك جزاء الذين عملوا السيئات ولم يتوبوا ، مصرين على ما هم عليه ، يقول سبحانه : " الذي يأتي بالسيئة يجزي مثلها، ولكن ما أدراكم ما هو الجزاء ، إنها الجزاء ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْلًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٢) وقد جاء وصف عذاب النار في آيات شتى ، وكلها تدل على أَنَّ هذا العذاب لا يطاق، والله تعالى يقول: ﴿ هَذَا نَارُ جَهَنَّمَ خَاصِمَانِ اَخْتَصِمُوا فِي رَيْبِهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ عَنْهُمْ أَسْبَابُ الْمَآءِ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ اَلْحَمِيمُ ﴿٦٠﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٦١﴾ وَهُمْ مَقْمُوعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٦٢﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٣) هذا العذاب لا يمكن لأحد أن يطيقه مهما أوتي من قوة، كيف والقوة يومئذ كلها تتلاشى ، إنه عذاب فوق ما يتصور الإنسان" (٤) .. نعم صدق الله العظيم القائل : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ اَلْعَذَابُ اَلْأَلِيمُ ﴾ (٥)

فاعتقنا يا أرحم الراحمين من عذاب الجحيم، إنك جواد كريم، غفور رحيم، عفو حلیم، برحمتك يا أرحم الراحمين، يارب العالمين .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٤

(٢) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٤٤٩ / ٢

(٣) سورة التحريم ، الآية ٦

(٤) سورة الحج ، الآيات ١٩ — ٢٢

(٥) وللآخرة خير وأبقى، الشيخ الخليلي ، ٢٥٠ / ١

(٦) سورة الحجر ، الآية ٥٠

إياك والأمانى الفارغة

إياك أخي المسلم أن تغتر بالأمانى الفارغة ، إياك ثم إياك . فعندما تصل هناك فلا رجعي ، ولا عودة ، فتزود الزاد الكافي من هذه الدار ، ولا يغرنك ما قيل من أمانى الشفاعة لأهل الكبائر فلا يدخلون النار ، أو أنهم يدخلونها أياما معدودة ثم ينقلبون إلى النعيم ، كلا إنها الشفاعة بزيادة النعيم أو التعجيل بدخول الجنة للطائعين ، فلا يشفعون إلا لمن ارتضى ، كيف يجعل الله الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ أم كيف يجعل المتقين كالفجار؟ وهو الذي لا يظلم أحدا من خلقه سبحانه جل شأنه ، مما يدل على أن دعوى الشفاعة للعصاة غير مجدية ، فكل إنسان رهين عمله .

يقول سماحته : " وهذه كلية من كليات العقيدة الإسلامية الحقبة ، جاء بها القرآن في آيات متعددة ليثبت أن الإنسان يومئذ رهين عمله ، ولم يجن إلا ما زرع ، وهو بذلك يقطع حبال الآمال على الكسالى الذين يمتنون أنفسهم الجنى من غير غرس ، والراحة من غير نصب ، فيعطون أنفسهم هواها ، فلا يصدونها عن حرمة ، ولا يكلفونها واجبا ، أملين السعادة بشفاعة الشافعين ، وبمجرد الانتماء إلى الدين " وعقيدة الإسلام التي جاء بها القرآن والسنة الصحيحة الثابتة ، إنما تقوم على اعتبار استقلال كل فرد في التكليف ، فلا ينفع فاسدا صلاح غيره ، كما لا يضر صالحا فساد غيره ، ومن هنا كان كل أحد مطالباً بإصلاح نفسه ، وتقويم انحرافها ، وحملها على الخير والنأي بها عن الشر " (١) وإن عقيدة الخروج من النار عقيدة يهودية المنشأ وقد حذرنا الله تعالى من إتباع مسلك اليهود ، وأن لا نتمنى أمانهم ، يقول عز وجل : ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ (٢) فإلنا والقول بأن عذاب

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٢٠٩ / ٣

(٢) سورة النساء ، الآية ١٢٣

الآخرة مؤقت كما قالت اليهود، ونحن نعلم ما لها من آثار سلبية في الدنيا والآخرة، يقول سياحته: "وإذا كانت عقيدة توقيت عذاب الآخرة جرات اليهود على ما جرأتهم عليه من نبذ الكتاب، وانتهاك الحرمات، وتعدي الحدود، فإن الذين تلقفوها من هذه الأمة أخذوا بحظ وافر من ذلك كله، فكم من حرمة ارتكبت، أو محرمة أبيحت، وحقيقة طمست تحت مظلة اعتقاد العفو عن الكبائر بعدم دخول النار مطلقاً، أو تعذيبهم عذاب مؤقتاً ينقلون بعده إلى النعيم المقيم؛ فيتساوون مع البررة المتقين في المنزلة والثواب، فيا الله ما هذه المصيبة في الدين؟ أين عقول هؤلاء من قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَارِ﴾^(١)

ولا يغرنك أبدا ما تمسكوا به في دعواهم أن الله تعالى ينجز وعده ويخلف وعيده، وقد عدوا ذلك من سيئات الحلم، وسعة الإحسان، ويتعقب سياحته هذه الدعوى بالقول: "لو كان الأمر كذلك فإن الله تعالى لا يخلو حال الوعيد إما أن يكون عالماً بأنه لن ينجزه، وإنما توعد بها توعد به لمجرد الردع، والكف عن المخالفة، وهذا هو الكذب بعينه، وهو غير لائق بأصحاب الشيم والإباء من البشر، فكيف يليق برب العالمين، وإما أن يكون غير عالم بها سيحدث من موجبات الإخلاف وإنما انكشف له من بعد ما كان منطويا عنه من قبل، فرأى الإخلاف أولى من الإنفاذ، وهو - كما ترى - يستلزم لا محالة الجهل، وبدو البدوات، تعالى الله عز وجل عن ذلك"^(٢)

فاستعد أخي المسلم ما دمت على قيد الحياة، وتزود بزاد التقوى، واعلم أنك إذا صرت إلى تلك الدار، ولم يكن لك زاد من الصالحات، وعرفت

(١) سورة ص، الآية ٢٨

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٥١٢/٣ ص ٢٨ وانظر الحق الداغ ص ٢٢٦

(٣) جواهر ٢٨١/٣

الحقيقة ، وبان لك الرشد، ورأيت بأَم عينيك ما رأيت من الهول العظيم، وعلمت ما قضى الله به عليك والعياذ بالله أن ترد تلك الموارد - فلن ينفعلك ساعتها الندم، ولا العُض على الأيدي أسفا وحسرة، هيهات لا رجعى ولا عمل، ولا تصحيح مسير، ولا توبة ولا شفاعة، فأنت وعملك، هذا منطق العدالة، فخذ الأهبة من الآن، فلا قدرة لك على عذاب الله مهما أوتيت من قوة حيث لا قوة، ولا طاقة لك أيضا بالحرمان من النعيم الدائم ، فأى العذابين أشق عليك؟؟ ألا تحسم أمرك الساعة الساعة، وتحاسب نفسك وتعاهدها ألا تقدم بأي حال من الأحوال على معصية العزيز العظيم الجبار، الذي لو شاء أخذك بغتة في سهوك وهوك، فما أنت بمعجز له سبحانه، ولا تغرنك طاعتك، ولا يخذعنك عملك، فاحذر كل الحذر من مكائد الشيطان، فهيهات هيهات أن تدخل الجنة بعملك، إنما تدخل الجنة برحمة الله ومنه وفضله، فتقرب إلى العظيم الخليل بصنوف الطاعات، وعليك بتقوية صلتك به سبحانه ما استطعت إلى ذلك سبيلا، عسى أن يتقبل الله منك طاعتك، وصالحات عملك، ويمن عليك بالرحمة والرضوان إنه جواد كريم.

الفصل الثاني

وسائل التربية الروحية العملية

وسائل التربية الروحية العملية

توجد وسائل عملية عديدة لتنمية الجانب الروحي والرفقي به إلى الأوج الشامخ، وكل تلك الوسائل تدخل في مفهوم العبادة، وذلك لشمول هذا المفهوم لكل أفعال الإنسان وتركها إذا كان ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى.

سأتبع هنا الأسلوب نفسه الذي عمل به سماحته من بيان مفهوم العبادة العام، ثم أتعرض لبعضها بشكل خاص، مبيناً أثرها في البناء الروحي للإنسان، وأبدأ بالعبادات المفروضة بعد توضيح المفهوم.

١ - العبادة بأنواعها

يقول سماحته: "العبادة أوسع مدلولاً مما يظنه كثير من الناس من أنها منحصرة في الصلاة والصوم والحج، وهذا الذي تدل عليه الآيات والأحاديث الشريفة فمن الأحاديث: قال رسول الله ﷺ: "في كل ذي كبد رطبة أجر"^(١) وهو دليل على أن الإنسان يتقرب إلى الله سبحانه بالإحسان حتى إلى البهيمة العجاء.

ويقول عليه أفضل الصلاة والسلام: "في بضع أحدكم صدقة..."^(٢)

فانظر كيف يكون العمل الفطري الذي يلبي به الإنسان داعي الغريزة عبادة يؤجر عليها"^(٣)

ويقول سماحته أيضاً: "والعبادة هي مطلق الخضوع والانقياد بحيث يشعر الإنسان من أعماق نفسه بهيبة المعبود، وعظمته وجلاله، ويشعر بخوف من هذا المعبود، خوف يمتلك وجدانه ومشاعره، ويقود إلى طاعته، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين، إذ الأعمال الصالحة داخله ضمن

(١) صحيح البخاري، رقم ٢٢٣٤، وصحيح مسلم، رقم ٢٢٤٤

(٢) صحيح مسلم، رقم ١٠٠٦، ٥٣

(٣) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢٥٠/١

العبادة ، الدليل على ذلك أن رسول الله ﷺ تلا ﴿ أَتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(١) في حديث عدي بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعتة يقرأ في سورة براءة ﴿ أَتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه^(٢) فإذا العبادة الواجبة لله تعالى هي طاعته المطلقة، والشهادة عهد لله أن يعبده الإنسان كما يحق لجلاله^(٣)

وقال أيضاً: " وعبادة الله تعالى تعني الخضوع المطلق لله سبحانه وتعالى، خضوع الروح والجسد، والقلب والعقل، وجميع الحواس والمشاعر لله سبحانه وتعالى، هذا الخضوع يكون بتحكيم أمر الله، واتباع هداه وبالإعراض عن نبيه، وبالوقوف عند حدوده"^(٤)

أثر العبادات الروحي

يشير سباحته في كثير من المواطن إلى الأثر الروحي العميق للعبادات بصورة إجمالية، وبصورة تفصيلية أحياناً، فالعبادة تعني الإعتاق من الخضوع لغير الله، وإذا كان الأمر كذلك فإنها تمد الإيمان بطاقة روحانية كبيرة، يقول سباحته: " وقد جعل الله سبحانه عباداته المتنوعة وقوداً روحانياً للإيمان"^(٥) لأنها " ذات أثر عميق في الإصلاح النفسي والاجتماعي، وتنوير

(١) سورة التوبة ، الآية ٣١

(٢) سنن الترمذي رقم ٣٠٩٥

(٣) الجملة، الشيخ الخليلي ، ص١٤، ١٥، وانظر العبادة وأثرها، الشيخ الخليلي ، ص٢٣، عوامل تقوية الوحدة ،

الشيخ الخليلي ، ص١١.

(٤) الحساب والعدل الإلهي، الشيخ الخليلي ، ص٢٣

(٥) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١٩٧/٢

الفكر، وتهذيب الأخلاق، وإمداد العقيدة بالطاقات التي تمكنها من الهيمنة على العقل والقلب، والروح والجسم، والعواطف والغرائز^(١)

فالإنسان بخلقته العجيبة بحاجة إلى تلبية متطلبات فطرته مما يجعله ينطلق إلى هذه الحياة التي هل محل الكثير من الأكدار النفسية التي تنقص من وقوده المعنوي، وتخفف من سموه الروحي، لذا تأتي العبادات هنا لإمداده بالوقود اللازم للتحليق في آفاق الروحانية، فيتطهر قلبه من الأذناس وتزكو نفسه، وتقوى صلته بخالقه، يقول سماحته في هذا المعنى: " إنَّ الله سبحانه وتعالى من فضله جعل لعباده أسبابا للخلاص من كدرات هذه النفس، وما يربن على هذا القلب، وذلك من خلال تلكم العبادات التي شرعها للعباد، فإن كل عبادة من هذه العبادات تؤدي إلى تزكية النفس وتطهيرها وتخليصها من آثار معاصي الله تعالى، فالله عز وجل ناط العبادات جميعا بالتقوى بحيث جعلها الغاية منها، عندما قال عز من قائل: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(٢)

بعد بيان الدور الروحي بشكل عام لسائر العبادات سأخص كلا من الصلاة والزكاة والصيام والحج بحديث خاص يبين أثر كل عبادة من هذه العبادات في التربية الروحية.

أثر الصلاة في التربية الروحية

يبين سماحته أثر الصلاة في تهذيب النفس، وتغذية الروح في مواضع كثيرة جدا، وأقتصر على ثلاثة مواضع منها يكمل بعضها بعضا، يقول سماحته: " والصلاة هي إمام الأعمال البدنية وأقواها في تهذيب النفس،

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ١٤٠/٢

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١

(٣) تطهر القلوب، الشيخ الخليلي، ١/٤٨٠

وتقويم السلوك، وأجداها في إمداد العقيدة، لما فيها من التذكير بالله وسلطانه وإحسانه"^(١)

ويقول: "إنَّ الصلاة أثرها كبير في تزكية النفس وتصفية الروح وتجريد الإنسان من سلطان الشهوات الذي كثيرا ما يسيطر عليه، فالله سبحانه وتعالى شرع في هذه الصلوات من الأذكار ما يجيي القلب، ويوقض الضمير، ويفيض على النفس البشرية من الأنوار الربانية ما يجعلها تهتدي بعد ضلالها، وترشد بعد غيها، وتغفل بعد غفلتها، فكل كلمة من الكلمات التي تقال في الصلاة تسكب في حس الإنسان شعورا بعظمة الله سبحانه وتعالى، وبحكمه من أمر ونهي، ووعد ووعد، لتكون هذه النفس يقظة مستعدة للقيام بأوامر الله، ولا ريب أنَّ الإنسان عندما يخوض غمار هذه الحياة يتكدر بما يلاقه، وعندما يأتي إلى الصلاة يظهر نفسه من آثار هذه الأكدار، فتعود في كل مرة من المرات الخمس صافية نقية، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "أرأيتم لو أنَّ على باب أحدكم نهرا جاريا غمرا ينغمس فيه كل يوم خمس مرات، أيبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا، يارسول الله، قال: ذلك مثل الصلوات الخمس"^(٢) فالصلاة تطهر أعماق الروح"^(٣) ويقول في موضع آخر: "إنَّ عبدنا الله تبارك وتعالى بحق كما فرض علينا أن نعبد عاشت الروحانية، فالصلاة في اليوم والليلة خمس مرات تقوى جانب الروح، وتشع في باطن الإنسان نور الإيمان، تذكر بالله وبالיום الآخر، وتذكر بنعم الله تبارك وتعالى، فما من كلمة يقولها المصلي في صلاته إلا وفيها الدواء النافع لروح الإنسان، لباطن الإنسان، لعقل الإنسان، لقلب الإنسان"^(٤)

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ١٦٢/٢

(٢) صحيح البخاري، رقم ٥٠٥، وصحيح مسلم، رقم ٢٨٤، ٦٦٨

(٣) تطهير القلوب، الشيخ الخليلي، ٤٨٠/١

(٤) الدين الخلق، الشيخ الخليلي

إن تركيز سماحة الشيخ - حفظه الله - في النص الأخير على عبادة الله يحق كما فرض علينا تدفعني إلى الإشارة في موضوع الصلاة بالذات إلى أن الله تعالى فرض علينا إقامتها لا تأديتها، كما تنص على ذلك الآيات القرآنية، فمع الخشوع الذي سأتناوله بالحديث بعد قليل ومع توفية الأركان حقوقها، فمن الواجب على الرجال خاصة أن يؤديوا الصلاة في الجماعة، حيث ينادى بها، ولا يصلوا منفردين من غير عذر شرعي، وهذا ما ذهب إليه سماحته في فتواه في صلاة الجماعة، مربيا هذا الجيل على الجد والاجتهاد والتمسك بأهداب السنة المطهرة، يقول سماحته: "والقول بوجودها على الأعيان هو الذي اطمأن إليه قلبي، وسكنت إليه نفسي، واعتمدته في العمل والفتيا، واقتصرت عليه في مجال الدعوة، وذلك لاعتضاده بكثير من الأدلة"^(١)

إن الصلاة إنما تؤتي ثمارها المرجوة من التزكية النفسية، والتطهير القلبي، إذا كانت قائمة على عمودها موصولة بروحها وهو الخشوع "فإن الخشوع في الصلاة هو روحها، إذ الصلاة بدونه هي بمثابة الجسم الذي خلا من الروح، والجسم إن كان خالياً من الروح فإنه لا حراك له ولا إحساس له، ولا أثر له، ولذلك كانت صلاة كل أحد بحاجة إلى أن يكون فيها خاشعاً، ولذلك نيط الفلاح بالخشوع كما في قوله تبارك وتعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾"^(٢) وفي الحديث الذي أخرجه الإمام الربيع رحمه الله من رواية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام قال: لكل شيء عمود، وعمود الدين الصلاة، وعمود الصلاة الخشوع، وأكرمكم عند الله أتقاكم"^(٣).

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢٠٢/٣

(٢) سورة المؤمنون، الآيات ١-٢

(٣) سؤال أهل الذكر ٦/ محرم ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣/٣/٩م

كيف يتم الخشوع؟

ولأهمية هذا الموضوع وضرورته لكونه متعلقا بعمود الدين فإني أنقل هنا كلام سماحته النفيس في كيفية تحصيل الخشوع في الصلاة من كتابه جواهر التفسير، يقول سماحته: " وبالجملة فإن الأدلة متضافرة على أن الصلاة الصحيحة المقبولة عند الله هي الصلاة المصحوبة بالطمأنينة والسكينة، المقترنة بروحها ومصدر سلطانها وهو الخشوع، وبدون ذلك لا يكون لها على النفس سلطان، ولا في الحياة أثر، فإنها تعد ميتة لا تغني شيئا ولا تحيي قلبا، وإذا أردت أن تعرف حقيقة ذلك فأمعن فكرك فيما تقوله في صلاتك مستحضرا معانيه، مستشعرا عظمة الله المعبود الذي أنت واقف بين يديه، تجد كل كلمة تلفظ بها دافقة بمعنى حيوي يسري في نفسك كما تسري الروح في جسمك، وأول ما تنطق به التكبير، وبه تدخل في صلاتك، وهو يسكب في نفسك شعورا بأن كل ما في الوجود وإن عظم شأنه وعلا قدره عند الخلق هو صغير حقير بجانب كبرياء الله و عظمته، إذ ليس من المعقول أن يقارن بين الخالق و المخلوق، وبين القديم والحادث، وبين الباقي والفاني، فالمخلوق مهما أوتي من قوة أو سلطان فهو نسبي في حدوده لا يوازي شيئا بجانب قوة الله المطلقة، وسلطانه المهيمن على الوجود، وإذا استشعرت هذه الحقيقة كان لها أثر نفسي عليك؛ لأنك إما أن تكون من ذوي القدر والمكانة عند الناس بمنصبك، أو مالك، أو جاهك ووجاهتك، وإما أن تكون من الذين تتجاوزهم الأنظار، ولا زنة لك عند الناس لضعفك المادي، ولضعفة قدرك بينهم.

فإن كنت من الصنف الأول، كان نطقك بتكبير الله عز وجل كافيا في تنبيه قلبك الغافل، وإيقاظ بصيرتك النائمة بأنك لا مزية لك على غيرك من الناس، فأنتم جميعا متساوون في الضعف، والفقر، والذلة والمسكنة أمام الله، وليس ما أوتيته مما تظنه أو يظنه غيرك مزية لك وعلواً لقدرك إلا ابتلاء من

الله تعالى مالك الملك، ذي الطول والحول الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويهب النعمة من يشاء، ويسلبها ممن يشاء، وله ما آتى وما نزع، ويده ما وهب وما سلب، فيكون لك من ذلك دواء لغرورك، وكبح لشرورك، لأنك تستشف بهذا الشعور عيوبك المتنوعة، سواء ما كان خاصا بك، أو ما كان مشتركا بينك وبين الناس، وتدرك أنك واحد من العباد المفتقرين إلى الله لا مزية لك بينهم، ولا فضل لك عليهم إلا بقدر ما تتقي ربك، وتتقرب إليه بالتذلل والخضوع، والخشية والخشوع، وذلك ينافي ما أنت فيه من الغرور والاستكبار، والتطاول على الناس بما ابتلاك الله به.

وإن كنت من الصنف الثاني، كان شعورك بما يوحيه التكبير كافيا لأن يرفع من قدرك!!، فلا ترضى أن تنزل منزلة المهانة والذلة بين الناس بسبب فقرك أو ضعفك، فإنهم مثلك، وكلكم في الضعف سواء، ولئن كان بعضهم أوتي ما لم تؤته من أسباب القوة ووسائل النعيم في الحياة الدنيا؛ فإن ذلك لا يعدو أن يكون ظلا زائلا، وخيالا عابرا، وإذا أنت تقربت إلى الله بصالح الأعمال، واستمسكت بعروة التقوى كنت أجدر منهم بالعزة، وأولى منهم بالكرامة، وهذا الشعور نفسه كفيلا بتحرير نفسك من الذل لغير الله، وجعلك تقصر خضوعك على مقام الربوبية، فما أعظم هذه التربية النفسية للمصلين، سواء كانوا من الفريق الأول أو الثاني.

وإذا شرعت في التلاوة وافتحتها بالاستعاذة عملا بقول الله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١)

، شعرت أنك تلجأ إلى حمى الله المنيع هروبا من الشيطان ووساوسه ومكائده، وفي ذلك ما يوقظ نفسك لما يريد بك الشيطان من سوء، وما يقصدك به من إضلال، فهو عدوك الذي لا ينفك عن الكيد لك؛ حتى يريديك في الجحيم إن لم يتداركك الله بلطفه، ويعصمك منه بحوله، وهذا

يقتضي أن لا يكون لجوؤك إلى الله لجوءاً قولياً فحسب، بل لجوءاً قلبياً وعملياً بحيث تستنفد طاقتك في مقاومة مكائد إبليس بالطاعات التي تؤهلك للدخول في حمى الله، أما إذا قلت ذلك بلسانك فحسب، وكان قلبك وجوارحك في قبضة الشيطان ، لم يغنك هذا القول شيئاً ، وإنما يكون مثلك مثل الأسير في قبضة العدو لا يستطيع الانفلات منه ، وهو مع ذلك يدعي بلسانه أنه هارب من ذلك الأسر، ولاجئ إلى حمى أحد الملوك ، وكيف يكون لثله اللجوء وقد أحاطت به حبال الأسر ، ومنعته من قصده قيود القهر .

فإذا نظقت البسمة استشعرت عظمة الموقف الذي أنت واقفه ، وقدر العمل الذي أنت عامله ، فإنك واقف بين يدي الله، وعامل باسمه ، ومن شأن ذلك أن يوحى إليك أنه لا اعتداد بشيء ما لم يكن الله تعالى خالصاً .

فإذا قلت ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ شعرت بفيض من نعم الله تعالى يغمر جوانبك ويملاً وجودك ووجود كل شيء، فإن كون الحمد محصوراً في الله سبحانه دليل على أنه مصدر كل نعمة ، وهذا داع إلى قطع حبال التعلق بغيره تعالى ؛ لأجل تحقيق منفعة أو دفع مضرة ، ويكون ذلك وصفه بأنه رب العالمين ، فهو مشعر بخضوع كل ما في الوجود لعزّه وسلطانه، وافتقار كل كائن إلى فضله وإحسانه ، فما من ذرة في الكون إلا وهي واقعه تحت حيطة قدرته ، معلنة بلسان حالها افتقارها إلى فضله ومنته ، وشعورك بذلك يقوي صلتك به تعالى بحيث لا ترى غيره أهلاً لأن يرجى أو يتقى، كما يستدعي أن تكون في أحوالك المتقلبة، وتصرفاتك المتنوعة تتحرى مرضاته ، وتجنب سخطه ، ولا ريب أن قلبك - في مثل هذا الموقف الذي تتجلى فيه آيات توحيده تعالى ، وتشاهد شواهد عظمته وجلاله - تغمره الدهشة وتمتلكه الهيبة ، غير أنك إذا قلت ﴿ اَلرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ ﴾ أحسست بالسكينة تسري في نفسك ، وتمتزج بدهشتك ، وبالطمأنينة تراحم الهيبة في قلبك ، فتعادل فيه كفتا الخوف والرجاء، لأنك تستشعر أن ربوبيته تعالى -

مع جلاله الباهر وسلطانه القاهر - هي ربوبية رحمة وإنعام وفضل وإحسان ، ويقوي هذا التعادل إذا ما قلت ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ واستشعرت خطورة ذلك الموقف الذي تمثل فيه بين يدي رب العالمين ، وقد تجردت من كل ما حولته في الدنيا ، وقطعت جميع علائقك بأحبابك ونصرائك فيها ، لتعرض عليك أعمالك السيئة والحسنة فلا يخفى منها خافية ، وأنت بين الجنة والنار ، أولهما عن يمينك والثانية عن شمالك ، لا تدري إلى أيهما منقلبك والله بك محيط لا مهرب لك عنه ، ولا نصير لك دونه ، وفي شعورك بهذا تقوية لعزائم الخير في نفسك ، وكبح لعزائم الشر التي يملئها عليك هواك .

فإذا قلت ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، أحسست بتضاعف الهيبة ، لأنك انتقلت إلى خطاب الله تعالى خطاب الحاضر ، ومضمون الخطاب نفسه يستلزم منتهى الخضوع والوصول إلى أقصى حد في التواضع ، لأن معنى خطابك تقديم عبادتك إليه تعالى وهو غني عنك وعنهما ، وإنما هي وظيفتك التي لأجلها خلقك ، ورفع قدرك بها بسط لك من نعمه ، وسخر لك من خلقه ، فقيامك بها إنما هو شرف لنفسك ، ومنفعته عائدة إليك .

وهذا الخطاب منك يقتضي عدة أمور ، منها صدق المقال ، وإخلاص السريرة ، وتعظيم المقام ، والاستمرار على الخضوع المطلق للمعبود ، وطاعته الدائبة ، والعطف والرحمة بعباده . فإن الله علمك في هذا الخطاب أن تشرك نفسك مع غيرك من عباده العابدين ، ولم يعلمك أن تخاطبه بصيغة فردية ، التي تقتضي استقلالك عنهم ، وفي هذا ما يقتضي وحدة الأمة المؤمنة القائمة بعبادة ربها ، ووحدة عامة في الشعور والإحساس ، وفي القول والعمل ، وفي المبادئ والأهداف ، وفي الآلام والآمال -

فإذا قلت وإياك نستعين شعرت بقيمتك عند خالقك ، إذ لم يجعل بينك وبينه وسائط تستعين بها في طلب محبوب ، أو أتقاء مخوف ، كما أنه لم يجعل بينك وبينه وسائط تعبدها دونه ، فالعبادة والاستعانة خاصتان به تعالى ،

وذلك فيما لم يجعل الله التعاون فيه بين الناس من سنن كونهم ونواميس حياتهم ... وفي شعورك بهذا تخليص لك من التثبث بالأوهام ، كالضراعة إلى الموتى في القبور ، أو إلى الأشجار والأحجار ، أو العيون والأنهار ، أو الجن والشياطين ، في طلب فكاك من معضلة أو وصول إلى هدف .

فإذا قلت ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، شعرت أنك أمام طريقين :

طريق الهداية والاستقامة المؤدي إلى نعمة الله تعالى بالتوفيق والفوز بالرضوان، وهو الذي وفق الله لسلوكه عباده الصالحين من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا .

وطريق الضلال والانحراف المؤدي إلى غضب الله وعقوبته، وتتشعب منه مسالك لا تحصى، كلها ملتوية مطموسة المعالم، وهو طريق الفريق الآخر الذي نكب عن صراط الحق، وتعرض لغضب الخالق سبحانه .

وفي هذا الشعور ما يدعو إلى التبصر في مسالك الحياة والدؤوب على اتباع الحق، واجتناب الباطل ، ويدعو إلى الترابط المديد بين أهل الحق، أسلافهم وأخلافهم، فلا تخرج أجيالهم عن كونها حلقات متواصلة في سلسلة واحدة .

وهكذا شأن الخاشع في صلاته في كل ما يتلوه من القرآن وما يكرره من تكبير وتسبيح وتعظيم، وجميع حركاته من قيام وعود وركوع وسجود . فإذا أدى صلاته على هذا النحو خرج منها طاهر الروح، زكي النفس، نقي الوجدان، مرهف الحس، مهذب الأخلاق .

فإذا خاض من بعد غمار الحياة وكاد يتلوث من جديد بدخانها وغبارها، عاد إلى هذا المعين الفياض فارتمى فيه وتطهر من أوضاره، وتخلص من

أكداره، وهكذا تتكرر العملية في اليوم واللييلة خمس مرات، فضلا عن الرواتب والنوافل.

وقد صور رسول الله ﷺ هذا الأثر النفسي للصلاة وتطهيرها باطن الإنسان من الأرجاس المعنوية في صورة المحسوس المألوف - وهو الطهارة الحسية - حيث قال ﷺ : أرأيتم لو أن على باب أحدكم نهرا جاريا غمرا ينغمس فيه كل يوم و ليلة خمس مرات أبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس ، وهو مثل أراد به ﷺ إفهام العقول وتقريب المعاني، فإن النفس ألف للمحسوس وأدرك لحقيقته، وإلا فستان بين نقاء الظاهر ونقاء الباطن، وطهارة الجسم وطهارة الروح^(١)

بهذا تتحقق المنفعة وتؤتي الصلاة ثمارها اليانعة، فيخف إليها المصلي، ويرتاح بها المتعب، ويهش إليها المنهك، فيسمو ويسمو، وكأنه يسبح في الملاء الأعلى، وإنما لكبيرة إلا على الخاشعين.

الهاتف المتنقل وأثره على الخشوع في الصلاة

ولأجل عموم الفائدة وتحقيق الخشوع ، والحفاظ على قدسية الصلاة حرصا على جني ثمارها، أنقل فتوى سباحته في فتح الهواتف المتنقلة أثناء الصلاة، ففي جواب على سؤال عن تأثير الهاتف المتنقل على الصلاة من حيث الصحة والفساد، قال - حفظه الله: " ، ما دام هذا الإنسان تعمد أن يأتي بشاغل يشغله في صلاته فإن هذه الصلاة تتأثر بذلك، لأنه تعمد أن يأتي بشاغل ، وهذا الشاغل يتنافى مع قدسية الصلاة ، يشغله عن الخشوع ، بل نفس هذا الشغل من النوع الذي لا يجوز في المساجد لكونه موسيقى .

وأنا أعجب كيف يغفل هذا المصلي الذي يأتي إلى المسجد أن يغلق الهاتف النقالم ؟ أنا سافرت بنفسي كثيراً في أنحاء مختلفة وبطائرات متنوعة ، ولم

أسمع في يوم من الأيام في الطائرة هاتفاً نقلاً ، لأنهم جميعاً ينهون بأن إغلاق الهواتف النقالة ضروري في الطائرات، لثلاث تشوش على الاتصالات، فهناك يحافظون على مصلحتهم الدنيوية ، وهي مصلحة هذه الطائرات ، يحافظون على سلامتهم في الدنيا ، ولا يحافظون على سلامتهم في العقبى ، عندما يأتون إلى مساجد الله هم أولى بأن يحترزوا ، وأولى بأن يغلقوا هواتفهم ، ولكن مع ذلك لا يباليون بذلك .

وهذه الهواتف النقالة تشغل أصحابها وغيرهم ، فصاحب الهاتف عندما يسمع هذا الاتصال لا بد من أن يكون مشغولاً به من أين جاء الاتصال ، ولا بد من أن يفكر كثيراً في قصد هذا المتصل لأي غرض اتصل به، لا سيما التجار فإنهم مشغولون بتجارتهم ، وهم دائماً يحسبون حساباً للأرباح التي يجرزونها أو الأعمال التي يقومون بها ، فلذلك تشغلهم الهواتف النقالة ، وكذلك صاحب أي عمل من الأعمال يشغله عمله، فإذا ما جاء الهاتف النقال اشتغل بذلك وأصبح لا يفكر في أمر صلاته بقدر ما يفكر في مضمون هذا الاتصال ، ومع ذلك لا ينحصر شر الهواتف في شغل هؤلاء عن صلاتهم فحسب، بل هذه الهواتف تشغل المصلين؛ لأن كثيراً منهم يمتعضون منها، فيتألمون منها وأنا واحد منهم ، أنا إن سمعت هاتفاً في الصلاة أتأثر كثيراً لأنني أرى أن هؤلاء الذين يحملون هذه الهواتف ويتركونها شغالة غير مغلقة عندما يدخلون في المساجد إنها هم في الحقيقة يعتمدون أن يلهوا الناس عن الصلاة، وأن يلهوهم عن ذكر الله فلذلك أتأثر بهذا ، فإذا تنصب على هؤلاء اللعنات من كل جانب ، فإلهم ولهذا الأمر ، ما إلهم لا يتبهنون ، هذه مصيبة من المصائب نسأل الله تبارك وتعالى السلامة منها ، ونسأل الله أن يهدي هذه القلوب إلى الحق وإلى طريق مستقيم"^(١)

الزكاة والإنفاق في سبيل الله وأثرهما الروحي

الزكاة ركن من أركان الإسلام فرض يجب على من توافرت فيه شروط الوجوب، وهي بقدر معلوم حدده الشارع الحكيم ومن زاد فهو خير له، ومن ضاعف ضاعف الله له، وقد فرضت الزكاة على المسلمين في مرحلة مبكرة من تأريخ الإسلام " وهي مأخوذة من زكا الزرع إذا نما، ومن زكا الشي إذا طهر، فهي نماء للمال لأنها سبب لحلول البركة فيه، كما أنها نماء لنفس المزكي لأنها توفر أخلاقه الحميدة، وتضاعف حسناته، وتقيه شرور الدنيا والآخرة، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَيُرِي آلَ صِدْقَتِ ﴾^(١)

وهي تطهير للمال وصاحبه كما نصَّ عليه قوله تعالى: ﴿ خذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^(٢) وذلك لأنَّ النفس البشرية جبلت على حب الاستزادة من الأموال، فإذا تركت وما جبلت عليه تأصلت هذه الجبلت فيها، فاستعصى علاجها، وتعذر استئصالها، فتسعى إلى توفير المال ولو على حساب الغير، وقد جعل الله إيتاء الزكاة وسيلة من وسائل علاجها^(٣)

وإذا كان أثر الزكاة الواجبة واضح جلي في تطهير النفس من أدران الشح، فإنَّ الإنفاق الطوعي الذي يؤتيه الإنسان في الخير برحابة صدر، طيبة به نفسه هو أدعى إلى تطهير النفس من الشح والأثرة، فتترفع النفس عن الدنيا، وتسمو الروح عن جاذبية الحطام والتراب، ويحث سباحته على الإنفاق في سبيل الله، لمعالجة شح النفوس، وحب الاستبداد بالثروة، وصولاً إلى الأوج الشامخ من الاستعلاء على مطامع النفس وجموحها، يقول: " والإسلام بما شرعه من الإنفاق يعالج النفس البشرية التي من طبعها حب

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٦

(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٣

(٣) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ١٩١/٣

المال، والرغبة في الاستكثار منه، فإنها إذا أرسل لها العنان في هذه الرغبة تجاوزت كل الحدود، واستخفت بكل الواجبات الأسرية والاجتماعية، وأصبح همها الوحيد ما تكسبه من مال تستكثر به على الآخرين، ولن تبالي في هذه الحالة في الوطاء على كل القيم والفضائل، وقطع جميع الشائج والأواصر، ما دام في ذلك تحقيق لرغبتها الجامحة، وإرواء لظمئها الملتهب، وفي مثل هذه الحالات تنضب العواطف وتغور مشاعر الرحمة، ويغلظ الإحساس في الإنسان، وتستعر البغضاء والعداوات حتى بين الأقرباء الأذنين، فلا والد يعطف على ولده، ولا ولد يوقر والده، كما هو الشأن السائد في المجتمعات التي تعبد المادة، وتقصد الثروة، وفي هذا الإنفاق علاج لهذا المرض الفتاك، فهو يرهف الحس، ويفجر مشاعر الرحمة وعواطف الإحسان بين ذوي القربى خاصة، وسائر الناس عامة.

والله تعالى قدير على إغناء كل أحد حتى يستقل بمصالحه عن غيره، ولكنه أراد بما طبع عليه النفوس من الاحتياج إلى الغير، وأمر به من التعاون بين الناس تربية الضمير الإنساني، وتمتين العلاقات بين أفراد الجنس البشري، وإنما انحراف الناس عن هذا المنهج المستقيم الواضح هو السبب في وجود العداوات في القلوب، وتأجج الأحقاد في الصدور، وتحول الإنسان إلى سبع ضار لا يبالي بمن يفتك به ما دام ذلك يحقق رغبته، وليس شي أسرع في اشتعال نار الفتنة بين الناس من حب المال، فكم من ولد استعجل وفاة والده، أو قريب استطل حياة قريبه فسقاها السم الزعاف، أو استخدم أية وسيلة في القضاء على حياته، وما الغاية من ذلك إلا حيازة تركته والتنعم بشروته^(١)

وبهذا الكلام النفيس يتضح جليا الأثر الروحي والتطهير النفسي الحاصل من اعتياد الإنفاق في سبيل الخير ابتغاء وجه الله، إنه انتصار ساحق

على النفس التي لا تلبث أن تلقي الزمام لصاحبها، وتسلم له قيادها بعون الله وتوفيقه. وما أجمل تلك الدرر التي نظمها الشيخ أبو الحسن الندوي ببراعه الملهم مصورا ما يفعله حب المال والثروة من السيطرة الكاملة على النفس، وما يفرضه من التوجيه السلبي للسلوك، يقول: " وقد اعتاد العرب - لأسباب كثيرة وبتأثير من الحضارة الغربية - حياة الترف والدعة والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة والإسراف والتبذير والاستهانة بهال الله في سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة، وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة الترف والتبذير جوع وعري وفقير فاضح، يرى الناظر مناظره الشائنة في عواصم البلاد العربية؛ فدمع العين، ويحزن القلب، ويتكس الرأس حياء وخجلا، فبينما هنالك رجل عنده فضول الثياب وزائد الطعام والشراب، لا يعرف كيف يستهلكه، إذا وبدوي لا يعرف قوت يومه وكسوته، وبينما أمراء العرب وأغنيأؤهم على سيارات تباري الريح وتثير التقع، إذا بفوج من النساء والأطفال عليهم ثياب سوداء قد أصبحت خيوطا من طول اللبس، يعدو لأجل فلس أو قرص، فما دامت المدن العربية تجمع ما بين القصور الشائخة والسيارات الفاخرة، وبين الأكواخ الفقيرة والبيوت المتداعية الضيقة المظلمة، وما دامت التخمة والجوع يزخران في مدينة واحدة فالباب مفتوح على مصراعيه للشيوعية والثورات والاضطراب والقلق، لا تقفها دعاية ولا قوة، وإذا لم يسد النظام الإسلامي في بلاده بجماله واعتداله، يحل محله نظام جائر بعسفه وقهره، عقاب من الله كردّ فعل عنيف"^(١)

فإذا أردت أخي المسلم تزكية نفسك وتحريرها من حب المال واللهاث خلف الحطام الزائل، فما عليك إلا أن تحملها على ممارسة الإنفاق في سبيل الخير، فكلما وجدت فيها شحاً فلا تطعه، وخاطبها قائلاً: " كلا يانفس، لن أطيعك أبداً، سأقدم بعض هذا المال على رغم أنفك، فإنها يعدك الشيطان

(١) ماذا خسّر العالم باخطاط المسلمين ط٧، ص٢٨٧، نقلا من جواهر التفسير ١٨٦/٢

الفقر، والله يعذك مغفرة منه وفضلاً" وحاول أن تجعل لك برنامجاً للصدقة ، في جدول تعده سابقاً، ليعينك ذلك على محاسبة نفسك، وعاهدها على اقتطاع جزء من دخلك لا يدخل في حسابك أبداً، قدمه الآن وانسه تماماً تجده غداً في ميزان حسناتك.

الصوم وأثره الروحي

لقد فرض الله سبحانه وتعالى على عباده صيام شهر كامل في كل عام ، وهو شهر رمضان المبارك، " لأجل تربية الضمائر وتقوية الملكات، ولأجل تهذيب النفس ولأجل ترقيق الشعور، ولأجل تنوير الأرواح"^(١)

ويوقض جانب الإحساس لدى الإنسان بتذكره عند الجوع حال البؤساء والفقراء والمساكين؛ فترق أحاسيسه ومشاعره تجاههم، ويفيض عليهم بما آتاه الله تعالى من خير"^(٢) فيحصل الارتقاء بالنفس من جانبين:

الأول : من ثمرة الصيام نفسه، بكف النفس عن الانجراف وراء شهواتها من الطعام والشراب ونحوه، فتقوى بها إرادة الإنسان.

والثاني: من حيث الصدقة والإنفاق في سبيل الله ، وقد تقدم الحديث عن آثار الإنفاق الروحية.

كذلك الصيام هو " سبب للتقوى ، فهو مطهر للقلب لما يعود به النفس من البعد عن معاصي الله سبحانه وتعالى، فإنَّ الصائم بصيامه تقوى إرادته على شهواته، ويستطيع أن يهيمن على نفسه، بل الصيام في جوهره الكف عن محارم الله، فالنبي ﷺ يقول: " ولا صوم إلا بالكف عن محارم الله"^(٣) ، ويقول

(١) رحي المنابر ، الشيخ الخليلي ، ١٧٠/١

(٢) السابق ١٥٧ /١

(٣) رواه

: " من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه"^(١)

وعندما يتعود الإنسان ذلك يطهر نفسه من آثار المعاصي ورجسها، فتكون هذه النفس طهوراً بمشيئة الله سبحانه"^(٢)

هذه الثمار جميعها تستطيبها النفس الإنسانية وتستلذها حين يكون أداءها للصيام على الوجه الشرعي الذي أمر الله به، وليس مجرد فطم النفس على الطعام والشراب، ثم تسرح في ارتكاب معاصي الله سبحانه وتعالى، وفي شرح كيفية الصيام المطلوب وما يحققه من نتائج، ويخلفه من آثار يفيض سماحة الشيخ في إيضاح ذلك وبيانه فيقول: " الصيام هو فطمٌ لهذه النفس عن ملذاتها، الطعام والشراب والوطء الجنسي، كل هذه الأمور تدعو إليها فطرة الإنسان، ولكنه عندما يكون في عبادة الصيام يمنع النفس منها. وقد يكون في خلوة بحيث لا يطلع عليه أحد من الناس، قد يكون مرخياً على نفسه الستر فلا يطلع أحد من الناس على أمره، ومع ذلك بين يديه لذيق الطعام وبارد الشراب، وهو في النهار القائظ، وفي الجوع الشديد، فيتحمل أذى الجوع، ويتحمل مشقة الظمأ من أجل أن يصبر حتى يؤدي هذه الفريضة على النحو الذي أوجبه الله تبارك وتعالى عليه، محتسباً أجره عند الله سبحانه وتعالى.

ومع هذا كله فإنَّ الصيام أيضاً لا يعني الكف عن الأكل والشرب فحسب، بل هو فطم للنفس عن شهواتها وملذاتها جميعاً. شهوة الجنس أيضاً هي داخلة ضمن المفطرات الكبرى، والصائم يمنع نفسه من ذلك، وقد يكون في خلوة مع أهله وكل منهما في ميعة الشباب، وفي زهرة العمر، وكل منهما تدعوه الرغبة إلى الآخر، ولكن يمنع كل منهما عن الآخر حاجز التقوى

(١) صحيح البخاري، رقم ١٨٠٤

(٢) تطهير القلوب، الشيخ الخليلي، ١/٤٨٠

الذي يفصل بينه وبينها. وبجانب كل ذلك فإنَّ الصيام ضبط لهذه النفس عن كل معاصي الله سبحانه وتعالى، بحيث يمنع الإنسان جوارح جسمه كلها عن معاصي الله، ولكل جارحة من الجوارح رغبة، فالعين رغبتها النظر والأذن رغبتها السماع، والأنف رغبته الشم، وهكذا، ولكن الإنسان في صيامه عليه أن يمنع نفسه من ذلك كله عندما تكون هذه الرغبة فيما لا يجوز له شرعا، فعليه أن يمنع عينه من الامتداد إلى كل ما يتنافى مع قدسية الصيام من المحذورات، فعليه أن لا ينظر بها إلا إلى مباح، عليه أن يحبس عينه من النظر إلى محاسن النساء، وإلى كل ما يشغل هذه النفس عما هي متوجهة إليه وما هي مشغولة به؛ وعليه أن يمنع أذنه من الإصاخة إلى ما حرم الله من قول الزور الصادر من الغير، وعليه أيضا أن يمنع أذنه من سماع الأصوات الشيطانية الملهية عن ذكر الله من غناء وزمر، وغير ذلك؛ وعليه بجانب ذلك أن يضبط لسانه، واللسان شهوته الحديث، وقد يتعدى الإنسان حدود الجائز عندما يكون غير متكيف وفق أمر الله سبحانه وتعالى في مخاطباته، قد يتعدى حدود الجائز فيقع في عرض هذا، ويتناول ذك بالذم والقدح، ويسيء إلى ذلك، ويشير إلى ذلك في كلامه إشارة لمز ونبز، ولكن هو في صيامه يمتنع من ذلك كله ليتكيف وفق أمر الله سبحانه وتعالى، وهذا يدعو الإنسان إلى أن يتزود هذا الزاد من التقوى في سائر العام، وأن يصبر على ضبط هذه النفس ومنعها من الوقوع في محارم الله تعالى في أي حال من الأحوال، فإنَّ المسلم مطالب بأن يمنع لسانه من قول الزور، وأن يمنع أذنه من سماع الزور، وأن يمنع عينه من الامتداد إلى محارم الله سبحانه وتعالى، وأن يمنع كل جارحة من جوارح جسمه عن موقعة شيء من معاصي الله في أي حال من الأحوال، ولكن مدرسة الصيام هي التي تمكّن الإنسان من ذلك، ولذلك نيط الصيام بالتقوى وجعلت التقوى هي الغاية منه^(١)

(١) محاضرة في ستار، الشيخ الخليلي، بعنوان الصبر، وانظر هذه المعاني في سوال أهل الذكر ١٧ / رمضان/

ولا يعني ذلك أن يكون الالتزام بتلك الآداب والانضباط بتلك القيود خاصا بالشهر الكريم، بل في كل حالات الصيام فهي ملازمة له في أي وقت كان، وبما أن الصيام يحوي هذه الثروة الروحية فلا ينبغي للمسلم التفريط فيه، بحيث تمر عليه سائر أيام العام دون أن يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بصيام بعض الأيام على الأقل ذات الليالي البيض ، ذلك لمن أراد لروحه السمو، ولقلبه الطهارة، بله الثواب العظيم من المولى الكريم سبحانه وتعالى.

الحج وأثره الروحي

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام وهو فرض على من استطاع إليه سبيلا، وذلك لما له من آثار روحية عظيمة، حين يتذكر الإنسان في تلك العرصات الطاهرة منقلبه إلى الله تعالى يوم القيامة، بعد أن ارتدى ثوب الإحرام، هناك يتساوى الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والعظيم والحقير، وناهيكم بيوم عرفة، وما تنزل فيه من الرحمات، وما يكون فيه من الخيرات والبركات، هناك حيث تسيل العبرات، ويذيب القلوب الخوف من رب الأرض والسماوات، فيجللها برد الرجاء للرحمة والغفران، والقبول والرضوان.

إن يوم عرفه لمشهد عظيم يذكر الإنسان بمشهد يوم الحساب، وقد اجتمع فيه الأولون والآخرون لقضاء رب العالمين.، يقول سماحته في إحدى خطبه بعرفات: " ما أعظم هذا المشهد في هذا اليوم العظيم الذي اجتمعت فيه هذه الحشود من بقاع الأرض، يحذوها أمل المغفرة، ويحفرها رجاء الغفران، وما أشبهه بمشهد يوم القيامة عندما يقف الناس بين يدي الله سبحانه ، وقد تخلى عنهم كل شيء ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ

زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا^٤ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١١١﴾^(١)

وحين يتذكر سحاته هذا الموقف العظيم ينخرط في البكاء الحاد، فما من خطبة خطبها بعرفة إلا وغلبه فيها البكاء من خشية الله، ولذا ترى خطبه بعرفة قصيرة جدا. فلله أنت يا حلية الأيام.

ويوضح سحاته ثمار هذه العبادة، وما ينبغي للحاج أن لا يغفل عنه وهو يؤدي مناسك هذه الشعيرة قائلا: " الحج من العبادات التي تغرس روح التقوى في نفس الإنسان، وتثمر في سلوكه تقوى الله تبارك وتعالى، بحيث يكون هذا الإنسان حريصاً على اتباع أمر الله ، فعندما ينقلب إلى الحج عليه أن يقلب صفحته من الشر إلى الخير، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشد، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن النفرة من إخوانه إلى التآخي معهم ، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن كل شر إلى كل خير .

ويؤمر الإنسان أيضاً وقد أكرمه الله سبحانه وتعالى بالوفادة إلى ربه سبحانه في تلكم الأماكن المقدسة أن يحرص على تذكر الانقلاب إلى الله تعالى في الدار الآخرة ، وأن يزن جميع تصرفاته وأعماله بموازين الحق التي أنزلها الله سبحانه وتعالى x ليكون مستعداً للانقلاب إلى ربه تبارك وتعالى، وهو نظيف الجيب، طاهر القلب والنفس، نقي السلوك، بعيد عن معاصي الله، مستمسك بحكم الله تعالى المتين، ناهج صراطه المستقيم ، وبهذا كان الحج ينفي الأوزار، ينفي المعاصي كما جاء الحديث عن النبي ﷺ " تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٤

(٢) وحي المنابر ، الشيخ الخليلي ، ٣٠٧/١

والفضة" (١)، وفي الحديث عن النبي ﷺ " والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" (٢)، فعلى الإنسان أن يحرص على أن يكون حجه مبروراً، وعلامة بره أن يعود خيراً منه عندما ذهب" (٣) كما عليه في حجه أن يتذكر ما كان عليه السلف الصالح من تضحية في سبيل الحق من لدن إبراهيم عليه السلام ومروراً بمحمد ﷺ وصحبه الكرام" (٤)

٢. النوافل وأثرها الروحي

لقد تبين لنا من هذا العرض أن العبادات المفروضة من الصلاة والصيام والزكاة والحج، هي من أكبر الوسائل وأعظمها في تهذيب النفوس وتركيبتها، وتقوية الإيمان، وتربية الروح على الخوف والرجاء لله سبحانه، وعلى الإنسان أن لا يقتصر على ما هو واجب، بل عليه أن يتنفل ويزيد من القربات صلاة وصياماً وصدقة وحجاً وعمرة، ليكون رصيده وافراً من الحسنات والثواب بإذن الله تعالى، وتقوى صلته بالله عز وجل، ويصبح قلبه متوجهاً إلى الحق فإن " الإنسان إذا توجه قلبه إلى الحق تفاعلت الأمور كلها معه، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يجعل بينه وبين ذلكم القلب الطهور النقي صلة، وقد جاء في حديث الرسول ﷺ الذي يرويه عن ربه سبحانه وتعالى: " ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها " وما معنى ذلك إلا أن الإنسان يكون موفقاً من قبل الله سبحانه وتعالى في جميع تصرفاته وفي جميع أعماله فيسخر الله له الوجود" (٥)

(١) سنن الترمذي، رقم ٨١٠، وسنن النسائي، رقم ٢٦٣٠، وسنن ابن ماجه، رقم ٢٨٨٧

(٢) صحيح البخاري، رقم ١٦٨٣، وسنن الترمذي، رقم ٩٣٣

(٣) سؤال أهل الذكر ٢٤ / شوال ١٤٢٣ هـ - / ٢٩ / ١٢ / ٢٠٠٢

(٤) وحي المنابر، الشيخ الخليلي، ١٥٨/١

(٥) تطهير القلوب، الشيخ الخليلي، ١/٤٨٠

٣- الإخلاص في العمل وأثره الروحي

كل العبادات من القربات والطاعات وأداء الواجبات لا قيمة لها ولا أثر لها في النفس إذا تجردت من الإخلاص التام لله تعالى، وبسبب هذا القدر من الأهمية والمكانة للإخلاص كان سماحته كثيراً ما ينبه الناس على ضرورة تجريد أعمالهم من كل الشوائب وتخليصها من كل الأقدار، وربما ألقى محاضرات خاصة تناقش هذا الموضوع بالذات، ولكن السؤال ما هو الإخلاص؟ وكيف يتحقق؟ وما القوادح التي تقدر فيه، يقول سماحته: "الإخلاص هو روح العبادة والعمل، والعمل إن تجرد من الإخلاص كان أشد تنناً، وأقبح مظهراً من الجثة التي تفقد الروح، ذلك لأن قيمة العمل إخلاصه، وقد عرف بأنه تصفية الأعمال من شوائب القصد بها غير وجه الله تعالى، وقيل هو سر بين العبد وربّه، وقد جاء في الكتاب العزيز ما يدل على أن الإخلاص هو روح هذا الدين، وجوهره وسره، وعدم الإخلاص هو الشرك الخفي، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١﴾ وهذا ما عناه أبو مسلم:

وجرد على الإخلاص جدك في التقى ففوقك بالشرك الخفي خبير" (١)

ولا ريب أن للإخلاص دوراً عظيماً جداً في تزكية النفس، وصقل الروح، وتهذيب الوجدان، وارتقاء المشاعر، وتطهير القلوب من جميع الأدناس والأرجاس، لأنه كما قيل روح العمل التي بها يحيى، وقلبها النابض بالحياة، وهو ذو ثمار يانعة دائية، يجنيها الإنسان في الدار الدنيا وفي العقبى ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٢)

يقول سماحته مبيناً آثار الإخلاص في تزكية النفوس: "أمر الإنسان في أعماله كلها بأن تكون هذه الأعمال خالصة لوجه الله، لا أن يريد بها شيئاً مما

(١) الإخلاص، الشيخ الخليلي، ٢/٢١

(٢) سورة الأعلى، الآية ١٧

يريده الناس في هذه الحياة الدنيا من التوصل إلى السمعة والشهرة، والثناء المنتشر بين الناس، ولا إلى شيء من المكاسب الدنيوية المادية أي لا يتوصل الإنسان بعمله إلى مكسب مادي، ولا إلى مكسب معنوي، بل الأعمال تكون كلها خالصة لوجه الله، يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْوَأُ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١) أي مخلصين له الطاعة فلا يشرك الإنسان في عمله أحداً من الناس بحيث يريد أن يتقرب إليه مع الل،ه أو منفعة من المنافع بحيث يعمل ذلك العمل من أجل تلك المنفعة، وأن الأعمال كلها يجب أن تكون خالصة لوجه الله، لذلك كان إخلاص الطاعة في كل العبادات أي كل القربات التي يتقرب بها الإنسان إلى الله تعالى أمراً لا بد منه حتى يتزكى هذا الإنسان^(٢)

ويقف الشيطان اللعين للإنسان بالمرصاد، محاولاً جهده أن يفسد عليه عمله، باذلاً كل طاقاته لبث الوسوس في نفس الإنسان، وتحريك مشاعره وأحاسيسه من حيث الإعجاب بعمله، أو الاغترار بما يقدمه من جهود وأعمال خيرية، وينفث فيه الرغبة الجارحة في لفت نظر الآخرين، ومن ثم ثناؤهم عليه، أو تقديرهم لشخصه، واحترامهم لهم، أو يستغل ضعفه الفطري من حيث حب المال والجاه، فيقول له لو عملت كذا وكذا من الخير لكان أدعى إلى أن تعطى المنصب الفلاني، أو توهب شيئاً من المكافآت المادية، والحطام الزائل، أو سيقدمك الناس عليهم، أو أحياناً يصل الأمر إلى تسهيل أمور خطبة فتاة معينة يهواها قلبه، أو تمنناها نفسه، فيلبس المسوح ثم ينكشف عنها عن جوهر ذئب شرس، أو يتوصل بعمله إلى تقريب الوالي أو الحاكم وتوليته شيئاً من المناصب إلى ما وراء ذلك من المنافع الدنيوية التي لا تلبث أن تضمحل وتزول وتتلاشى وتذهب ذهاب أمس الدابر، ومن هنا كان على الإنسان أن يكون أشد ما يكون احتراساً من فساد عمله، ومن

(١) سورة البينة، الآية ٥

(٢) تزكية الأنفس، الشيخ الخليلي، ١/٢٧٣

دخول الشيطان الرجيم إلى قلبه، فيغلق عليه جميع المنافذ، سائلا المولى القدير أن يعينه على ذلك.

يقول سماحته: " إن القلب يقع بين جزر ومد ، تطغى عليه مؤثرات نفسية ومؤثرات أخرى فيتزعزع ويتزلزل، وطبيعة الإنسان الضعف، الإنسان ضعيف جدا ، وإنما عليه أن يعتصم بالله ، ولذلك الله تبارك وتعالى أمر أن يفزع الإنسان إليه مستعيذا بالله سبحانه وتعالى من الشيطان الرجيم يقول عز من قائل: ﴿وَأَمَّا يَتِرْعَنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴿٢﴾، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا يَتِرْعَنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ (٣)، فالإنسان مأمور أن يلجأ إلى ربه سبحانه وتعالى مع إحساسه بمثل هذه المؤثرات التي تطغى على نفسه" (٤)

ولابد من التعرّيج هنا باختصار على مرضين خطيرين يذهبان بالأعمال ، ويعملان باستمرار على تفريغها من مضامينها، ويقضيان على روحها قضاء تاما ، وهما الرياء والعجب ، ومن هنا أتناول توجيهات سماحته في اتقاء الإصابة بهما، وسبل العلاج لمن ابتلي بهما.

التخلص من الرياء وأثره السلبي:

يقول سماحته : " إن الرياء في الأعمال يرجع إلى فساد الفطرة، وإلى انطماس البصيرة، ذلك لأنّ العاقل يرى أن الكون مسخر بأمر الله، فالله وحده هو المقدم والمؤخر فيه، وهو الذي يوجد المعدوم، ويعدم الموجود فيه ، والله وحده هو الذي يبسط النعماء، ويدفع الضراء، والله تبارك وتعالى

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٠، ٢٠١

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٦

(٣) سؤال أهل الذكر ٣ رمضان ١٤٢٤هـ - ٢٩/١٠/٢٠٠٣م

وحده هو الذي يحقق للإنسان مطالبه ويستجيب دعاءه ، ويعطيه سؤله . فلماذا يتعلق بعمله عندما يعمله لغير الله تعالى ، وهو القادر عليه والمتفضل عليه بصنوف النعم"^(١)

وإذا كان الإنسان يرائي بعمله ، فليسأل نفسه من يرائي يا ترى؟

" فإن كان يرائي الناس فماذا عسى أن يفيدته الناس إن عمل من أجلهم؟ الناس كلهم لا يملكون لأي أحد نفعاً ولا ضراً، على أن كل أحد منهم فان، ماذا عسى أن يفيد هذا العامل من إعجاب هذا الإنسان الفاني لعمله؟ أو ليس أولى له أن يعمل لوجه الله تبارك وتعالى الباقي الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا ريب أن العاقل يدرك أن المصلحة إنها هي في أن يعمل ذلك لوجه الله تبارك وتعالى ، لا من أجل الناس، وما قيمة الناس؟ الناس كلهم مهما كانت أقدراهم ، ومهما كانت منازلهم، ومهما كان شأنهم في هذه الحياة، إنها هم عباد لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فضلاً عن أن يملكوا لغيرهم ، فلا يحق أن يعمل لأي أحد منهم، إنها العمل يجب أن يكون لله سبحانه وتعالى"^(٢)

وعلى الإنسان أيضاً أن " يفكر أن جميع الناس مهما أحبوه و أكنوا له التقدير بسبب ما يرون من عمله، لا يفيدونه شيئاً، ولو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء كتبه الله عليه، على أن عمله إنها ينقلب وبالا عليه إن عمله من أجل الناس، وإنها ينفعه إن أخلصه الله سبحانه، والله أغنى الأغنياء عن الشرك ، لذلك لا يتقبل الله عملاً أشرك فيه غيره"^(٣) .

(١) الإخلاص ، الشيخ الخليلي ، ٢١/١

(٢) سؤال أهل الذكر ٣ رمضان ١٤٢٤هـ - ١٢٩٠/٣١١٠٠٣٠٠٣م

(٣) الدين الخلق ، الشيخ الخليلي ، المعهد

ويقول سباحته مؤكداً على تلك المعاني، ومبيناً ما يمكن أن يستأصل به الإنسان داء الرياء قائلاً:

"لو أن أهل السماوات والأرض اجتمعوا على الثناء على أحد من الناس، وهو عند الله تعالى مرفوض لما أفاده ذلك شيئاً، ولو أنهم اجتمعوا على ذمه والقدح فيه، والخط من شأنه، فإن ذلك لا يضره عند الله تبارك وتعالى إن كان مقبولاً عنده سبحانه، وعلى هذا فعلى العبد أن يتبغى بعمله وجه الله تبارك وتعالى لأجل مصلحة نفسه، إذ مصلحة نفسه إنما تناط بالإخلاص لله تعالى، والإنسان يدرك أن الذي خلقه فسواه هو الله سبحانه، وهو القادر عليه، فلماذا يتعلق بغيره فيبتغي بعمله غير وجه الله؟ ﴿قَتِيلَ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ ﴿٧٠﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٧١﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٧٥﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٧٦﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٧٧﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٧٨﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٧٩﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٨٠﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٨١﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٨٢﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٨٣﴾ وَفَيْكِهِةً وَأَبًّا ﴿٨٤﴾ مُتَعَا كَرْمًا وَلَا نَعْمِ كَرْمًا ﴿٨٥﴾"

فإذا كان يدرك أن الله تعالى هو الذي بسط له هذا الخير كله، وهو الذي خلقه وطوره من طور إلى طور، حتى اكتمل خلقه وصار على ما هو عليه، وهو الذي نمى مواهبه، وبسط له في الرزق، وهياً له هذه الأسباب، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً، فكيف يبتغي الثناء من الناس أو يبتغي المثوبة من الناس، ويترك إخلاص العمل لله سبحانه وتعالى؟! ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَمَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦١﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٦٢﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٦٣﴾"

(١) سورة عبس، الآيات ١٧ - ٣٢

(٢) سورة الانفطار، الآيات ٨٤ - ٨٥

فالإنسان خلقه الله تبارك وتعالى هذا الخلق، وأبدعه هذا الإبداع، وصنعه هذه الصنعة، وصوره هذا التصوير، ومع ذلك يريد بهذا العمل غير وجه الله تبارك وتعالى.

إن الله تبارك وتعالى عندما أمر عباده بعبادته ذكرهم نعمه عليهم، يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾^(١) فالذي يراني في عمله؛ إنما جعل الله سبحانه وتعالى أندادا، لأنه رأى غير الله تعالى أهلا لأن يتقرب إليه بذلك العمل، مع أن الله لا يرضى أن يكون ذلك العمل إلا خالصا لوجهه الكريم، ففي هذا ما ينفع العباد في تطهير سرائرهم، وجعلها خالصة لله تبارك وتعالى، وتركية أعمالهم بالإخلاص^(٢)

ومن أنواع العلاج الناجع لداء الرياء هو كتمان العمل عن أعين الناس يقول سماحته: " جاء فيما روي عن لقمان كيفية علاج آفة الرياء ، بحيث لا يتبغى بعمله إلا وجه الله، ويتجرد في جميع أعماله من شوائب الرياء وطلب أغراض الدنيا، وذلك أن لقمان أوصى ابنه بأن يخلص لله جميع أعماله، فسأله ابنه عن طريق ذلك، فقال له: كتمان العمل . فقال: وإن كان إظهاره واجبا؟ فقال له: إن كان إظهاره واجبا فاجتهد في إخلاص هذا العمل لله سبحانه وتعالى، وإن كان إظهاره غير واجب فاستعن على إخلاصه لله تعالى بكتمانه.

ولذلك كان السلف الصالح حريصين كل الحرص على كتمان أعمالهم التي يتقربون بها إلى الله تبارك وتعالى - من غير الفروض - عن الناس، أما الفروض فإنها تظهر، إذ كتمانها يؤدي إلى سوء الظن بالناس، فالنوافل ينبغي

(١) سورة البقرة، الآيات ٢٢، ٢١

(٢) الإخلاص، الشيخ الخليلي، ٢١/٢

أن تكون مكتومة، وقد كان السلف يحرصون على كتمان النوافل، وإخفائها عن أبصار الناس، وإيعادها عن مسامعهم، فكانوا عندما يتهجدون يتهجدون في الخفاء، وعندما يتصدقون - صدقات النفل - يتصدقون في السر، ويحرصون على كتمان ذلك حتى عن أولئك الذين يتصدق عليهم، لئلا ينالوا منهم جزاءً أو يسمع لهم ذكر بين الناس، والعامل يحرص كل الحرص على منفعته، ومنفعة الإنسان إنها تتوقف على الإخلاص^(١)

-التخلص من العجب والغرور :

وهما خلقان دينيان ذميان، يولدان في نفوس الآخرين الكراهية للمعجب بنفسه أو بعمله أو بما آتاه الله تعالى ، ويولدان النفور منه، والاشمئزاز والتقزز من مخالطته، لأنه يعمل على احتقار الآخرين والاستهانة بأقدارهم، والتعالي عليهم ، وبذلك تنشأ في نفس من أصيب بهذا الداء البغيض حالة من الدناءة الخلقية، والمرض النفسي ، يستحق بذلك غضب الله عليه، وأن يفعل به كما فعل بأشباعه من قبل . يقول سباحته عن هذا المرض :

" إذا كان الإنسان يحس بعجب في نفسه فعليه أن يفكر في مصدر عجبه، هل هو معجب بعلمه؟ فإن كان كذلك، فعليه أن يقارن بين ما يعلمه وما يجله، يجد إن ما يعلمه لا يوازي شيئاً بجانب ما يجله ، ولا يعلم من الحقائق إلا ظواهرها، والله تعالى وحده المحيط بكل شيء، على أن هناك الكثير الكثير من البشر يفوقونه علماً ومعرفة ، وأن العلم لا قيمة له إن لم يكن لوجه الله فإنه عباده ، فربما كان علم الإنسان وبالاً عليه إن لم يقصد به وجه الله تعالى .

(١) الإخلاص ، الشيخ الخليلي ، ٢١ / ١

وإن كان معجباً بعمله فعليه أن يعلم أن روح العمل الإخلاص فبدون الإخلاص لا قيمة لذلك العمل الذي يعمله ، وإن كان معجباً بهاله فعليه أيضاً أن يدرك أن المال إنما هو عرض زائل ، وأن من الناس من يفوقه مالاً بكثير وقارون كان أكثر منه مالاً ، حتى أن الله تبارك وتعالى وصف أمواله بقوله : ﴿وَأَتَيْنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاحِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾^(١) ، وهذه الأموال كانت وبالاً عليه ، فقد خسف الله به وبداره الأرض ، فماذا عسى أن تكون قيمة هذا المال ، وهناك الكثير من الكفرة يفوقونه في كثير من الأموال . والمال وبال على العبد إن لم يتصرف فيه تصرفاً حسناً ، كما يقول الشاعر :

النار آخر دينار نطقت به والهم آخر هذا الدرهم الجاري
والمرء بينهما إن لم يكن ورعاً ماذا يكابد بين الهم والنار

وليس من الورع أن يعجب بهاله
والمال ما ليس به افتخار
لأنه إن لم يزك نار

والفقر من المال شعار الصالحين .^(٢)

أما الغرور فيقول سماحته في سبيل علاجه : " ثم إن كان الإنسان أيضاً مغروراً بعمله ، أو مغروراً بعلمه ، أو مغروراً بهاله ، أو مغروراً بمنصبه ، أو مغروراً بأي شيء مما خوله الله في هذه الحياة الدنيا ، فعليه أن يدرك أن ذلك إنما هو خيال عابر وظل زائل . الدنيا كلها لا تساوى شيئاً . فإلهه وللإعجاب بها أوتي في هذه الدنيا من علم ، أو ما صدر منه من عمل ، وما أوتي به من مال ،

(١) سورة القصص ، الآية ٧٦

(٢) الدين الحق ، الشيخ الخليلي

أو ما أوتيه من جاه، أو ما أوتيه من منصب، أو أوتيه من جمال، أو أوتيه من أي شيء من هذا القبيل؟! . هذه حلية معارة لا تلبث أن تسترد ، فلذلك على الإنسان أن يستبصر، وأن لا يغتر بشيء من ذلك" (١).

وأذيل هذه المعاني ببعض الآيات التي قالها أبو مسلم ناصر بن سالم الرواحي في هذا المعنى أيضا :

ففوقك بالشرك الخفي خبير	وجرد على الإخلاص جدك في التقي
به تنضر الأعمال وهي بذور	واخلص مع الجد اليقين فإنه
فللورع الدين الحنيف يحور	وبالرتبة القصوى من الورع التبس
كمين الأعادي فالشجاع حذور	وكن في طريق الاستقامة حاذرا
على حرب قطاع الطريق قدير	يجوز طريق الاستقامة حازم
لخصمك حرب بالبور تغور	مراصدها شتى وفي كل مرصد
بعزم يفرض الخطب وهو حسير" (٢)	فلا تخش إرهاقاً وساور ليوثها

تذكر أخي المسلم أن الإخلاص يحقق لك فوق ما ترجو، فوق ما تتصور، فوق ما تتوقع ، فوق ما تأمل ، ولا تغتر بثناء الناس عليك فكثير منه دجل وتمويه ، ومجاملات فارغة، وهي فارغة حتماً من الثواب ، ومثل ذلك الثناء قد يفسد عليك عملك، ويجرمك من الثواب، فتكون ممن خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، وأعلم أن الذي يثني عليك وعلى عبادتك، أو يطريك أو ما شابه ذلك، إما أن يكون ممن يجب أن يثني عليه فهو يريد أن ينقلك إلى رتبته الدنيئة ، وإما أن يكون ممن لا يجب ذلك وإنما يريد أن يولد في نفسك حب الخير، ويشجعك عليه ، كما هو حال المريين من العلماء المخلصين ، وسيكرهك وتصغر في عينيه إن رآك معجبا مرأيا مغرورا

(١) سؤال أهل الذكر ٣ رمضان ١٤٢٤هـ - ٢٩ / ١٠ / ٢٠٠٣م

(٢) ديوان أبي مسلم ص ٢٠٧

بعملك ، فاحرص على أن لا تحمل ذلك الثناء على غير محمله ، وقل لنفسك أنا أقل من ذلك، أو لا أجد في نفسي شيئا من ذلك، فلا تغتري يا نفس، وسيري إلى ربك سيرا مرضياً .

٤- التوبة من الذنوب :

من وسائل التربية الروحية التوبة النصوح من الذنوب والمعاصي، ولا ريب أن المعصية شؤم كلها ، وهي انحراف في الفطرة، ونشاز عن سنن الكون الخاضع بأسره لذي الملك والملكوت ، والقهر والجبروت ، ونتائجها المؤلمة الوخيمة تعم الدنيا والآخرة ، ويذوق حصادها المر البر والفاجر، والمعصية وإن كانت من الصغائر فإنها تنكت في القلب نكتة سوداء ، فيتكدر صفاء القلب ، ويتلوث نقاؤه ، ويخفت لمعانه وبريقه ، وإن بقى عليها العبد مصرا تحولت إلى كبيرة من الكبائر والعياذ بالله ، ولا يفتأ الشيطان الرجيم يزين للإنسان المعاصي ، ويهون عليه اقترافها ، مستغلا الطبيعة التي فطر عليها الإنسان من الضعف والاغترار بالدنيا وبهاجها، يقعد له بكل صراط، يعده بمغفرة الله تعالى الحليم الكريم بعد اقرار الذنوب، قائلا له: إنها صغيرة وتغفر باجتنايب الكبائر، أو أنك ستتوب سريعا عاجلا، وأن الله غفار لمن تاب وعمل صالحا، ولا يزال يخادعه ويمنيه ويوسوس له ، ويهون عليه العواقب، فإما أن تدركه العناية فينجو، أو تحتاحه الغواية فيردى، والعياذ بالله .

يقول سماحته: " وإذا كان هذا العدو الماكر الشيطان الرجيم عليه لعنة الله استطاع بأساليبه الخبيثة أن يوقع صفى الله آدم عليه السلام في حبال المعصية حتى فكه الله منها ، فما بالكم بذرية آدم عليه السلام الذين يندر منهم من يتفطن لمكائده ويتبته لمداخله. فاللييب يكون حذرا في جميع أوقاته ، فطنا في

كل حالاته، يراقب الشيطان بعيني الخائف الوجل ، لا يدري من أي ثغرة يلج عليه ، وفي أي حال يفضي إليه ^(١).

على الإنسان قبل أن يقدم على المعصية أن يتفكر مليا في عواقبها ، وليعلم أنها لذة عاجلة فانية إذا انتهى زمنها فكأنها لم تكن أبدا ، ذهبت لذتها وبقي أثمها وحرجهما النفسي، وبقي دفع ضريبتها ، وأداء ثمنها، وليتذكر جيدا أن الثمن غالٍ باهض، ربما استمر يدفعه طول حياته، ولربما حمل من عقبه ومجتمعه أيضا سداد ذلك الثمن من بعد حياته، حينئذ يقول : يا ليتني ما ارتكبت ، ليتني ما فعلت ، لقد عطلت عقلك ونداء ربك ، واتبعت هواك ونداء الشيطان ، فلا تنفعك ياليتني شيئا، فإياك إياك و الإقدام على المعاصي.

من الآثار المترتبة على المعاصي

يشير سماحته إلى بعض الآثار المترتبة على المعصية والناجئة عنها ويوضح شيئا من النتائج المرة الكثيرة التي تخلفها المعاصي ، ففي ذلك تربية للنفس ، وزجر لها عن الانسياق وراء الشهوات ، والانصياع لداع الهوى ، فمن هذه الآثار السلبية:

١- فساد القلب وظلمته، وخواء الروح وانهيارها، فيصبح بذلك الإنسان أسيراً للمعاصي والعياذ بالله، وقد يدركه الموت على ذلك فيخسر الدارين، يقول سماحته : " ومن المعلوم أن القلب يتأثر بمعاصي الله ويفسد بها ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(٢)، وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم من طريق أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا أذنب العبد الذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع وتاب

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٣ / ١٢١

(٢) سورة المطففين ، الآية ١٤

واستغفر صقل، وإن هو عاد زادت حتى تملأ قلبه، فذلکم الران، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١) فهذا دليل على أن القلب يتأثر بالذنب .

ونحن نرى أن الله سبحانه وتعالى بين أن النجاة لمن جاء بقلب سليم، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٢) كذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى وعد الجنة من جاء بقلب منيب، فذلک ينبغي للإنسان أن يحرص على تنظيف قلبه وإبعاده من أثر المعاصي، وذلك بتوبته من كل معصية، فإن وقع في معصية سارع إلى التوبة والإقلاع عن الغي الذي كان عليه، حتى تتحول صفحته من السواد إلى البياض ومن الظلمات إلى النور، لتكون صفحة بيضاء مشرقة بإذن الله تعالى^(٣)

٢- انطماس نور البصيرة، وانطفاء ضياء العقل، فيحس العاصي بالبلادة، وتعمي عليه الكثير من الأمور العقلية، على العكس من الإنسان الصالح الذي يتفتق ذهنه بالابتكارات، ويدرك الكثير من الأمور ذات الأعماق البعيدة، يقول سماحته: "ومن المعلوم أن معصية الله تبارك وتعالى تسبب عمى البصيرة، وانطماس الفطرة .. فتعمى بصيرة الإنسان عن الحق بسبب استثثار نفسه لشهواتها، وانغماسها في معاصي الله تبارك وتعالى. ومن المعلوم أن المعاصي كلها شر وفساد، وكلها منافية للفطرة، ومفسدة لها"^(٤).

(١) مسند أحمد رقم ٧٩٣٩، وسنن الترمذي رقم ٣٣٣٤، وابن ماجه رقم ٤٢٤٤

(٢) سورة الشعراء ٨٨ - ٨٩

(٣) سؤال أهل الذكر ٢٨ / رمضان / ١٤٢٤هـ - ٢٣ / ١١ / ٢٠٠٣ م / وتطهير القلوب ٤٨٠ //

(٤) منهج إصلاح المجتمع، الشيخ الخليلي، ١٠٤ / ج

ويقول عن الإنسان المنحرف عن طريق الاستقامة بأنه : " يتوالى عليه خذلان الله سبحانه وتعالى ، فيسلبه نور الفطرة باستجابته العمى على الهدى"^(١).

٣- الحرمان من العناية الإلهية، والولاية الربانية، فلا يكاد ينجو من مشكلة حتى يقع في أخرى ، ولا يكاد يتخلص من أزمة أو ضائقة حتى ينزلق في أخرى ، تضيق به الدنيا على سعتها ، حتى تصبح كأنها في نظره أضيق من راحة الكف، ويضيق صدره كأنه يصعد في السماء، يقول سماحته: " إن الاسترسال في العصيان، والاستسلام لمطالب الشيطان، يؤديان إلى الهبوط في دركات المعاصي، وحضيض الضلال، حتى يجرم صاحب ذلك من عناية الله "^(٢)

وإن حرم من العناية فمن ذا الذي ينصره من دون الله ؟ كلا ليس له ولي من بعده .

٤- الشعور بالقلق والاضطراب النفسي من جهة، وعداء الكون له من ناحية أخرى، وكأنه يعيش وحيداً فريداً ينظر إلى الكائنات من حوله فيراها باهتة اللون، تسير في اتجاه معاكس ، يحس إحساساً جلياً بالنشاز الذي بينه وبين الكون بأسره، يقول سماحته : " فإذا هذا الكون بأسره يسبح بحمد الله ويخضع ساجداً لجلال الله عز وجل، لا تخرج حركة ذرة من ذراته عن أمر الله سبحانه وتعالى . فإذا أطاع هذا الإنسان ربه واستجمع هذه الخصال التي جعلها الله سبباً لنجاته من الخسران، كان هناك تألف وتوائم بينه وبين حركة هذا الكون . أما إن كان أمره بخلاف ذلك ، وذلك أن يشد هذا الإنسان على نظام الكون، بحيث يتمرد على ربه ويتكبر على طاعته سبحانه

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ٣٨٤

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ٢٥١

وتعالى، فلا ريب أنه يحصل نشاز واضطراب بين حركته وحركة هذا الكون^(١)

وهذا النشاز حاصل في جانبين: الأول بين الإنسان ونفسه، والثاني بين الإنسان والوجود من حوله، أما الأول فالمعصية يحصل عدم التواؤم بين حركتي الإنسان الاختيارية والاضطرابية، فجسم الإنسان تعد خلاياه بملايين الملايين، وكل خلية تتحرك بحسب سنة الله فيها، فإذا انقاد هذا الإنسان وأدعن لربه وعبده حق عبادته حصل الانسجام التام ما بين هذه الحركات الطبيعية في جسمه، وحركته الاختيارية التي ينساق إليها مختاراً طاعة مولاه^(٢)

أما إذا عصاه وقع الاختلاف والنشاز والاضطراب، فالخلايا أشياء مخلوقة تسبح الله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾^(٣)، فالعاصي يحمل هذه الخلايا وهي تسبح لله على ارتكاب المعصية حال تسبيحها، وهي لا تفر عنه، أليس ذلك نشازاً كبيراً؟! .

وكذلك عدم التواؤم مع الكون بأسره، بنجومه ومجراته، بأشجاره وأحجاره وحيواناته، الكل يضحج بالتسبيح لله، وذلك الإنسان العاصي يدور في فلك آخر، فلك التمرد على أوامر الله تعالى .

٥- إفساد مصالح الناس وخبراتهم، ونزول السخط الإلهي على الجميع من المقترفين والصامتين، يقول سماحته: " فالمعصية لا تلبث أن تحول المنافع إلى مضار، والمصالح إلى مفاسد، خصوصاً عندما تنفسي في أوساط الناس، ولا تجد لها مقاوماً، فلا تقف آثارها عند المرتكبين لها، بل تشمل الساكنين

(١) تفسر سورة العصر، الشيخ الخليلي،

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ٢٤٨، ٢٤٩، العبادة وأثرها، الشيخ الخليلي، ص ١٨

(٣) سورة الإسراء، الآية ٤٤

عنها ، فيعم الجميع سخط الله المفضي إلى هوان الدنيا وعذاب الآخرة، والعياذ بالله، أولم يستمعوا إلى قول الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١) ﴿وَإِذْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢).

ومن ذلك الفساد الذي يعم الناس فساد زروعهم، وانحباس المطر عنهم، بل فساد خيرات البر والبحر على السواء، والإنسان العاصي المجاهر ليس فاسداً في نفسه، بل مفسد لغيره حتماً، وبطريقة مباشرة ، أما فساده في نفسه فواضح جلي ، أما كونه فاسداً في نفسه، مفسداً لغيره فيتجلي ذلك في الأمور الآتية :

(أ) إفساد ذريته ومن حوله من أفراد أسرته بطريقة القدوة، فإنهم يسرون على نهجه، ويقتفون أثره حين يهون عليهم ارتكاب المعاصي باقترافه لها باستمرار، على مسمع منهم ومرأى .

(ب) إفساده الناس من حوله، كالأصحاب والأقران، وذلك بطريقة القدوة أيضاً، وبيث الأخلاق الدنيئة في أوساطهم باستهانتهم بالمعاصي .

(ج) إفساد المجتمع عموماً بتكثير سواد العاصيين، فهو وذريته وخلانته، يشكلون مجتمعاً فاسداً مصغراً وبيئة متعفنة، يتهاوى إليها العصاة والفجرة، ويفجرون فيها، فيفسدون الأمة بذلك .

(د) إفساده مصالح الناس ومعايشهم، وخيرات البلاد، وإفساده الحرث والثمار، بسبب انتهاك حرمانات الله، فالمعصية شؤم تعم بها البلوى، ويتبع ضررها الضرب في جحره ، والسملك في بحره .

(١) سورة المائدة ، الآيات ٧٨ ، ٧٩

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي ، ١٠ / ٢

٦- الإصابة بالأمراض العصبية والنفسية والعضوية، فحتى الجسد يتأثر بالمعصية، ولو بطريق غير مباشرة، فضلاً عما تحلّفه بعض المعاصي من أمراض فتاكة كمرض الإيدز ونحوه، فالعصاة والكفرة الذين لا يعبدون الله تعالى " تتناهم الأمراض العصبية والأمراض النفسية نتيجة البعد عن ذكر الله تعالى"^(١)

وربما نجد في كلام الكسيس كارل شيئاً من التوضيح والشرح لهذا الإجمال مما تحلّفه المعصية من أمراض، يقول في كتابه (تأملات في سلوك الإنسان) كما نقله عنه سعيد حوى :

" إن الخطيئة انتهاك إرادي أو غير إرادي لقوانين الحياة، وقوانين الحياة صرامة صرامة قوانين اختلاط الغازات، وسقوط الأجسام، ولما كان انتهاك هذه القوانين لا يعاقب عليه إلا بعد مضي زمن وقوعه، وبطريقة خفية فإن الإنسان لم يدرك بعد فداحة النتائج التي تترتب على الخطيئة، فكل خطيئة تؤدي إلى اضطرابات عضوية أو عقلية أو اجتماعية، وهي اضطرابات لا يمكن علاجها على وجه العموم، وإذا كانت التوبة لا تشفي تليف الأنسجة لدى السكر أو الأمراض العصبية لدى أولاده، فإنها تعجز أيضاً عن إصلاح الاضطرابات الناجمة عن الحسد والإسراف الجنسي، والغيبة، والنميمة، والبغضاء، كما أنها كذلك تبعد الشقاء عن الشواذ الذين يولدون لأبوين مصابين بالعيوب، فالخطيئة تؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى التدهور و الموت، التدهور للجاني نفسه، أو للوطن أو للنوع، ولهذا يجب على كل فرد أن يكون قادراً على التمييز بين الخير والشر "^(٢).

يتبين من ذكر تلك الآثار السيئة الناجمة عن اقرار المعاصي أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا مخلص إلا التوبة النصوح، التوبة التي تتوافر بها شروط

(١) العباداة وأثرها، الشيخ الخليلي، ص ١٨

(٢) المولدات الفطرية، سعيد حوى

التوبة الصحيحة ، فهي التي تجلو القلب بعد كدره ، وتغذي الروح بالإيمان والصلاح ، فإن الفلاح والسعادة منوطان بسلامة القلب ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾^(١) . والقلب السليم هو القلب الذي لا يشاب صفاؤه بكدر المعاصي ، فإن من استمر على معصية ربه سبحانه وتعالى لا يكون قلبه سليماً . وقد حذر الله سبحانه وتعالى من الاستمرار على المعاصي حتى يفوت الأوان ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْنِ رَبِّ إِنِّي تَبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾^(٢) . وقد بين الله تبارك وتعالى أن غفرانه يكون للتائبين فقال : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾^(٣) ، وليس غفرانه تبارك وتعالى للمتأدين الموسوفين للتوبة من حين إلى حين . فالواجب على الإنسان أن يتعجل التوبة عندما يقع في المعصية فوراً ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(٤) أي يتوبون توبة سريعة عاجلة ، فقلب الإنسان مثله كمثل الثوب ، فالثوب عندما يصيبه الدنس ويهمل ويتراكم عليه الدنس ، ويبقى من العسير أن ينظف فيما بعد ، وكذلك القلب عندما يهمل ولا يتعجل الإنسان في صقله بالتوبة النصوح يكون هكذا شأنه ، وإما إن تعجل صاحب الثوب في تطهير ثوبه وتنظيفه بمجرد ما يصيبه الدنس يمتحي ذلك الأثر منه . فلذلك دعا الله تبارك وتعالى عباده أن يتعجلوا التوبة^(٥) ..

ويقول ساحتها أيضا :

(١) سورة الشعراء ، الآية ٨٩

(٢) سورة النساء ، الآية ١٨

(٣) سورة طه ، الآية ٨٢

(٤) سورة النساء ، الآية ١٧

(٥) التوبة إلى الله ، الشيخ الخليلي ، ١/٣٣٧

” لقد وصف الله سبحانه وتعالى عباده المتقين بأنهم يسارعون إلى التوبة عندما يظلمون أنفسهم أو يقارفون شيئاً من الفواحش. فالله سبحانه وتعالى يعد جنة عرضها السموات والأرض للمتقين ، ويصفهم بما يصفهم من الأوصاف ، ومنها هذا الوصف الكريم، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعِطَى وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ .

ونجد أن الله تعالى بين لنا في كتابه الكريم أن التوبة التي تكون مقبولة عنده هي توبة المسارع إليها. لأن توبة المسارع إلى استغفار الله تبارك وتعالى والإنابة إليه، ومحاسبة النفس تأتي على أثر المعصية، فالإنسان يتأثر بالمعصية تأثراً خطيراً جداً، لأن قلب الإنسان سرعان ما تغطي عليه آثار المعصية السوداء حتى ترين عليه عندما يكون غير متدارك لنفسه .

ولينظر الإنسان في كلا الحالين ، حال التوبة والرجوع إلى الله ، وحال اقتراف المعاصي والإصرار عليها، فإنه يرى أن من تاب إلى الله فإنه يقتدي بأبيه وصفيّ الله آدم إمام التائبين - عليه السلام - ومن أصر على معصية الله سبحانه، فإنه اقتدى بإمام المصيرين، وهو إبليس عليه لعنة الله، فليُنظر الإنسان أي القدوتين خيرا له (١٣٥)

(١) سورة آل عمران الآيات ١٣٣ - ١٣٥

(٢) التوبة ، الشيخ الخليلي ، ١ / ٣٣٧

شروط التوبة

والتوبة ليست دعوى يدعيها الإنسان، إنها هي انتقال من حال إلى حال، من الانحراف والضياع والتهيه، إلى الاستقامة والاهتداء، ولتحقيق ذلك لا بد من أن تتوافر في التوبة الشروط الآتية :

١- الندم : على الإنسان أن يندم ندماً شديداً على ما وقع منه من معاصي الله تبارك وتعالى، بحيث أنه يتمنى أن لو استقبل من أمره ما استدبر حتى يكون لم يأت تلك المعصية " فالتوبة الندم " ومعنى ذلك أن الندم على رأس أركان التوبة جميعاً كما أن " الحج عرفة " لأن الوقوف بعرفة هو رأس أركان الحج . فمن لم يندم لا يكون تائباً بحال من الأحوال ، إذ لا يدفع الإنسان إلى بقية أركان التوبة إلا الندم.

٢- الإقلاع عن المعصية : فالمستمر على معصية الله تعالى ليس تائباً منها ، إنما التائب هو التارك لمعصية الله .

٣- عقد العزم ألا يعود للمعصية كما لا تعود الألبان إلى الضروع التي خرجت منها ، أي أن يكون في قرارة نفسه، أنه لن يعود لتلك المعصية .

٤- الاستغفار : وهو أن يطلب الإنسان المغفرة من ربه سبحانه وتعالى، ولا يكون ذلك باللسان فحسب ، بل يكون بصدق بحيث يكون تابعا من أعماق القلب ، يجلو هذا القلب ويصفيه. ولذا كان ﷺ يدأب على الاستغفار. وقد أسقطه كثير من العلماء ، وقالوا لا يجب ، إلا أننا نجدناه واجبا بدلالة القرآن ، لأن آيات كثيرة من القرآن تدل عليه ، فالله تبارك وتعالى حكى الأمر بالاستغفار عن أنبيائه نوح وهود وغيرهما ، وأمر به في مواضع عدة من كتابه ، والأمر للوجوب ، ما لم تصرفه قرينة عن الوجوب ، وهذا الأمر نيظ به ما يدل على أنه واجب ، إذ نيظت به السلامة والفوز ، وهدد من لم يأت به بخلاف ذلك .^٣

٥- رد المظالم إلى أصحابها : فإن كان قد أخذ مال أحد فعليه أن يرد الأموال إلى أصحابها، وإن كان أصاب عرضاً لأحد فعليه أن يتخلص، وذلك على نوعين:

(أ) إما أن يكون بنحو غيبة أو قذف أو نحو ذلك .

(ب) إما أن يكون بانتهاك عرض بارتكاب فاحشة في أحد ، أو سفك دم أحد ، أو اعتدى على نفس بجرح أو نحوه، فعليه أن يتخلص من ذلك .

وإن كانت المعصية في تضييع الفرائض فعليه الإتيان بالفرائض التي

أضاعها"^(٣)

فإذا توافرت هذه الشروط مع صدق النية والإخلاص ارتقت التوبة بروح الإنسان إلى الأوج الشامخ من الشفافية الإيمانية ، وأضاءت في جنبات نفسه أنوار الإيمان ، وتطهر قلبه من سائر الأدران ، فصفاً وزكياً، وتسامياً عن الانحطاط إلى درك إغصاب مالك الملك، العزيز الجبار قتملاً السعادة جوانب حياته .

٥- التقوى :

كلمة التقوى هي كلمة جامعة في ذاتها ، وهي مبتغى كل مسلم وهدف كل مؤمن ، وصفة يسعى الجميع إلى الاتصاف بها . فماذا نعني بالتقوى ؟

حقيقة التقوى

التقوى تدل على الاجتناب أي اجتناب ما يسخط الله تعالى " وذكر اللغويون أن الوقاية فرط الصيانة، ومن هذا المعنى أخذ علماء الشريعة تعريف التقوى، فقالوا إنها صيانة الإنسان نفسه مما يوجب العقوبة من فعل

أوترك^(١) فهي من حيث الدلالة اللغوية " تدل على التخلي ، ومن حيث الدلالة الشرعية تدل على التخلي والتخلي^(٢)"

ويتضح أن للتقوى في الشرع شقين ، شقاً سلبياً وهو ترك ما نهى الله عنه ، وآخر إيجابياً وهو فعل ما أمر الله به ، ولا بد من الجمع بينهما للاتصاف بحقيقة التقوى الشرعية^(٣)

وقد وردت تعاريف كثيرة للتقوى مروية عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن بعدهم ، أنقلها كما أوردها سماحته في تفسيره :

" أخرج الإمام أحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال : تمام التقوى أن يتقي العبد حتى يتقي من مثقال ذرة حين يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما ، يكون حجابا بينه وبين الحرام ، وروي مثله عن جماعة من التابعين وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة أن رجلا قال له ما التقوى؟ قال : هل وجدت طريقا ذا شوك؟ قال : نعم ، قال : كيف صنعت؟ قال : إذا رأيت الشوك عدلت عنه ، أو جاوزته ، أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى " . وذكر القرطبي أن عمر سأل أبياً - رضي الله عنهما - عن التقوى فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك؟ فقال : نعم ، قال : فماذا صنعت فيه؟ قال : تشمرت وحذرت . قال : فذاك التقوى . ونظم معنى هذه الإجابة ابن المعتز في قوله :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١١٢/٢

(٢) سؤال أهل الذكر ٣ من شعبان ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٠٠٢/١١/٦م وأنظر الطريق إلى التقوى ، الشيخ الخليلي ،

١/١٠٣

(٣) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١١٦/ ٢

لا تحقرن صغيرة إنَّ الجبال من الحصى

وذكر أبو السعود عن عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - أن التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما فرض . وعن شهر بن حوش : " المتقي من يترك ما لا بأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس " ، وعن أبي يزيد : أن التقوى هي التورع عن كل ما فيه شبهة . وعن محمد بن حنيف : أنه مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى . وعن سهل : المتقي من تبرأ من حوله وقدرته . وقال بعضهم : التقوى ألا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . وقال ميمون بن مهران : لا يكون الرجل تقيا حين يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح ، والسلطان الجائر . وقال بعض الحكماء : لا يبلغ الرجل سنام التقوى إلا أن يكون لو جعل ما في قلبه في طبق ، فطيف به في السوق لم يستح ممن ينظر إليه ، وقيل : التقوى أن تزين شرك للحق ، كما تزين علانيتك للخلق " (١)

صفات المتقين

يقول سباحته "علينا أن نستلهم حقيقة التقوى مما وصف الله به المتقين في كتابه : كقوله في وصفهم : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٢) (٣)

وسأضع هذه الصفات في نقاط مقرونة بمكان ذكرها من الآية :

القرآن	الصفة
﴿ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾	الإيمان بالله تعالى
﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾	الإيمان باليوم الآخر

(١) - جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١١٥ / ٢

(٢) - سورة البقرة ، الآية ٣

(٣) - جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١١٣ / ٢

﴿وَالْمَلَائِكَةَ﴾	الإيمان بالملائكة
﴿وَالْكِتَابَ﴾	الإيمان بالكتاب
﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾	الإيمان بالرسول والنبیین
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾	الإيمان بالغيب
﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾	إقامة الصلاة
﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾	إيتاء الزكاة
﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾	الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾	الوفاء بالعهد
﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾	الصبر
﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾	كظم الغيظ
﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾	العفو
﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾	التوبة والاستغفار من الذنوب

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾	الصدق
﴿وَالْقَنَاتِينَ﴾	القنوت " الطاعة "

ومن هنا فعلى الإنسان أن يستصحب التقوى من بداية طريق حياته إلى نهايته؛ لأن حياته " محفوفة بالمخاطر ، مفروشة بالأشواك " ، فإن كل خطوة يخطوها الإنسان مهددة بكمين ، إما من غرائزه وشهواته ، وإما من عواطفه ونزعاته ، وإما من مطامعه ومطامحه ، وإما من خوفه ورجائه ، وهي طبائع موجودة في كل أحد ، وكل منها صالح لاستخدامه في الخير والشر .. والتقوى هي العامل الوحيد لضبطها ، وعدم إرسال العنان لها ، والباعث على استخدامها فيما يعود بالمصلحة على مجتمعه وأمتة ^(١)

هذا هو الدور الكبير الذي تؤديه التقوى في نفس الإنسان ، والأثر الذي ينطبع على روحه ، فتكون التقوى بذلك مصدر كل صلاح ، ومنبع كل فضيلة وأساس كل خير ^(٢)

والتقوى تستلزم صفاء الروح ، وروحانية النفس ، وزكاء الفطرة ، وطهارة اللسان ، ونقاء الوجدان ، واستقامة الأركان ، وحياة الضمير . وبهذا يتم التناسق بين المشاعر الباطنة ، والحركات الظاهرة عند المتقين ^(٣)

٦ - التحلي بالصبر :

لقد خلق الله عز وجل الإنسان وركب فيه غرائز متنوعة وأمره بضبطها بضوابط الشرع ، فإذا سار الإنسان على طريقة الاستقامة تجاذبتها أطراف

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ١١٧/٢

(٢) السابق ، ١١٨/٢

(٣) السابق ، ١٩٦/٢

عديدة، منها " النفس الأمانة بالسوء، والشيطان، والبيئة الفاسدة عن قرناء السوء وغيرهم"^(١)

وكذلك بهارج الدنيا، وهوى نفسه، ولذا كان عليه أن يتسلح بسلاح الصبر في المقاومة، فإن الصبر مفتاح الفرج بإذن الله، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)

ولذا كان الصبر ذا أثر كبير في التربية الروحية من شتى الجوانب.

يقول سماحته: " والإنسان يتحمل مسؤوليات كثيرة، فهو كما تعلمون خليفة في هذه الأرض، والخلافة في الأرض تعني تكليف الإنسان منهجه وفق أمر الله، وذلك أمر يقتضي الصبر والمصابرة . فالله سبحانه وتعالى فرض فرائض، وحد حدوداً، وحرّم وألزم النفس تحمل هذه الأمانة ، وهذه الأمانة أمانة ثقيلة، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(٣) فالإنسان مسؤول عن هذه الأمانة الكبيرة ومطالب بأن يتحملها بجدارة، وأن يقوم بواجباتها وتكاليفها بصبر، وهذا أمر يقتضي حبس النفس على مكارهاها

النفس كما علمنا تدعوها دواع عديدة إلى شهواتها، وتدفعها دوافع متعددة إلى نزواتها، النفس البشرية واقعة بين تجاذب وتدافع، ما بين الغرائز الملتهية، والضرورات المختلفة، والحاجات المتنوعة، والإنسان مع سلوكه مسلك هذه الحياة لا بد له من أن يتدرع بالصبر، وهو يواجه لأواء الحياة، ويواجه مشاق هذه التكليف، ويواجه عنث المواجهات المختلفة"^(٤)

(١) معالم الاستقامة ، الشيخ الخليلي

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

(٤) محاضرة سماحة في سنن بعثوان الصبر

والإنسان يحتاج إلى الصبر بقدر ما يحيط به من أزمات، وما يكتنف حياته من مصاعب ومتاعب، تتطلب منه التضحيات والتحمل والتجلد، وذلك حسب الزمان والمكان الذي يعيش فيه، وما ابتلاه الله تعالى به، وبقدر المحنة تكون المنحة والعطاء من العلي الأعلى، وقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثلة في الثبات والصبر أمام التحديات من أجل مرضاه الله تعالى، فكم من الناس شردوا، وكم من أناس قتلوا، وكم من أناس دفنوا وهم أحياء ما صددهم ذلك عن دينهم "وقد جاء في الحديث عن الرسول ﷺ في ذكر أحوال الأمم السابقة، أن أحدهم كان ينشر بالمناشير من رأسه إلى أسفله، وهو مع ذلك صابر، ووصل الأمر بالمتقدمين الذين كانوا يواجهون أعداء الله سبحانه وتعالى بصبرهم وجلدهم وإيمانهم وثباتهم أن أحدهم كان ينشر بالمناشير، ولكن مع ذلك كله لا يمنعه ذلك من مواصلة طريقه حتى يلتقى الله سبحانه وتعالى على ما هو عليه من الإيمان واليقين والصبر والاحتساب" (١)

وليتذكر الإنسان دائماً أنَّ الحياة الدنيا إلى زوال، فغناء بسيط في الدنيا خير من العناء الدائم في الآخرة، فما الدنيا بدار خلود، وما نيل الخلود منها بمستطاع.

٧- التلاوة مع التدبر

لا ريب أنَّ القرآن الكريم كتاب هداية للناس، فهو شفاء ورحمة للمؤمنين، وهدى للمتقين، وقد سماه الله تعالى روحاً كما في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (٢) وذلك "لما يشتمل عليه من أسرار غيبية، ولأنه تحيى به الأرواح كما تحيى به الأبدان" (٣)

فإن كلمات القرآن مشاعل هداية ، لمن شاء الاقتباس والاهتداء " كل ما في الكتاب العزيز من توجيه للإنسان بأوامر صالحة ، أو نهي عن فساد، إنما في ذلك تزكية للنفس"^(١). وتربية للروح، وتهذيب للضمير .

إنَّ التلاوة المطلوبة ليست تلك التلاوة المصحوبة بشتى الأنغام والأصوات ، العارية عن التدبر ، والحالية من التأمل فتلك لا أثر لها في النفس ، ولا ثمره لها في الروح ، يقول سماحته : "الإنسان يؤمر أن يقرأ القرآن قراءة المتدبر، المتأمل الواعي، المدرك لمعانيه، المتدبر لأمثاله وحكمه، ووعظه وإرشاده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وقصصه وأمثاله؛ ليتزود من ذلك زاد الإيمان وزاد التقوى ، هكذا يؤمر الإنسان ، فالله تبارك وتعالى أمر بترتيل القرآن الكريم عندما قال ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾^(٢)، خطاباً للنبي ﷺ وهو وإن كان خطاباً للنبي عليه أفضل الصلاة والسلام إلا أن الأمر بذلك ينطبق علينا ، هو خطاب لأمته أيضاً من خلال شخصه صلوات الله وسلامه عليه ، وكذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ لِيَتَقَرَّأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْثٍ ﴾^(٣)

معنى المكث الترسل والتأني وعدم الإسراع فالإنسان يؤمر أن يتدبر القرآن، كيف والغاية من قراءته الانتفاع به وتدبره ، الله تعالى يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ . أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ويقول سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٤). وقد سماه الله روحاً في قوله سبحانه: ﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(١) الإيمان مفهومه وتطبيقاته ، الشيخ الخليلي ، ٦٥/ ح

(٢) سورة المزمل : الآية ٤

(٣) سورة الإسراء ، الآية ١٠٦

(٤) سورة محمد ، الآية ٢٤

فهكذا ينبغي للإنسان أن يتدبر القرآن، وأن يقرأه قراءة الفاهم الواعي المتقن المدرك لمعانيه وغاياته"^(١).

ويوصي سباحته بأن يغالب الإنسان نفسه، ويجاهدها من أجل أن يتلوا القرآن بعقل حاضر، بوعي وتركيز، لا أن يتلو لسانه وعقله يهيم في كل واد ويرتاد كل ناد ، أو أن يقرأ قراءة سريعة، وبين الحين والآخر يقلب الصفحات، كم بقي له عن نهاية السورة ؟ أو ينظر إلى ساعته كم قضى في التلاوة من الدقائق ؟ ما هذه بتلاوة حقا، فعلى الإنسان أن يدرك أنه في مقام التلقي عن الله مالك الملك سبحانه وتعالى. يقول سباحته: "الإنسان يطلب منه عندما يتلو كتاب الله سبحانه وتعالى أن يقبل عليه بشعور خاص ، أن يقبل عليه بشعور أنه يتلقى عن الله ، لأن ذلك هو كلام الله سبحانه ، فيستحضر في نفسه أن الله تبارك وتعالى يخاطبه بهذا القرآن ، ولذلك عليه أن يقابل هذا الخطاب بخضوع وتذلل بين يدي الله سبحانه .

ثم إن الإنسان مطالب بأن يتدبر القرآن ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢) أي ليتفكروا ، فإن ضرب هذه الأمثال من أجل التفكير والاعتاظ وإقبال الإنسان بكليته على كتاب الله. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٣).

على أن الإنسان يؤمر عندما يقبل على كتاب الله تبارك وتعالى يتلوه أن يستحضر بأنه يعالج به نفسه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ

(١) سؤال أهل الذكر ٣٠ شعبان ١٤٢٤هـ / ٢٦ / ١٠ / ٢٠٠٣م

(٢) سورة الحشر، الآية ٢١

(٣) سورة محمد، الآية ٢٤

شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣١﴾، فهو شفاء وهو رحمة للمؤمنين .

نعم هو شفاء لأن الله تعالى شفى به الصدور، ذلك لأن كل ما يتعلق بحياة هذا الإنسان حله في كتاب الله ... فعليه الاعتبار، أي أن يقرأ القرآن قراءة متدبر معتبر متعظ مدرك... عليه مغالبة ذلك، وأن يحرص على أن يعالج نفسه، ويداوي أدوائه بهذا القرآن الكريم عندما يتلوه^(١).

وحسن أن نختم هنا ببعض آيات أبي مسلم في النهل من معين القرآن حين يقول:

وخذ بكتاب الله حسبك إنه	دليل مبين للطريق خفيـر
فما ضل من كان القرآن دليـله	وما خاب من سير القرآن يسير
تمسك به في حاله السخط والرضا	وطهر به الآفات فهو طهور
وحارب به الشيطان والنفس تنتصر	فكافيك منه عاصم ونصيـر
دعيت لأمر ليس بالسهل فاجتهد	وسدد وقارب والطريق منير ^(٢) .

فكلما نابك همّ، أو صادك غم، أو أحسست بضيق، أو شعرت بقلق، فما عليك إلا أن تسرع إلى كتاب الله تعالى تتلوه بتدبر، هناك ستشعر بإذن الله كيف تفك عنك القيود ، وتنزاح عنك أغلال الهموم فتشعر بالارتياح والسعادة .

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٢

(٢) سؤال أهل الذكر / ٩ / جمادى الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٧ / ٦ / ٢٠٠٤م

(٣) ديوان أبي مسلم البهلاني، ص ٢٠٧

٨ - الخوف والرجاء والموازنة بينهما

إن مخافة الله تعالى هي منشأ كل الفضائل ، والباعثة إلى كل خير والزاجرة عن كل سوء ، وقد جاء في أحاديث الرسول ﷺ ما يدل على مكانة الخوف في الإسلام فالرسول ﷺ يقول كما أخرجه الإمام الترمذي من طريق أبو هريرة ؓ يقول عليه أفضل الصلاة والسلام : " من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة " (١)

من خاف أدلج أي : أسرع السير ، إذ من شأن الإنسان عندما يخشى من ربه سبحانه وتعالى ، وليس الله سبحانه وتعالى عدوه ، إنَّما الشيطان هو العدو ، فالذي يخشى من ربه سبحانه وتعالى أن يعاقبه عندما يتبع طريق الشيطان ، ويعلم أن الشيطان يلاحقه ، يسرع في طاعة الله عز وجل ، ويتعد عن الشيطان كثيراً حتى يكون بمشيئة الله تعالى بعيداً عن مكائد الشيطان ، فعندئذ يكون قد بلغ المنزل ، من أدلج - أي من أسرع السير - بلغ المنزل - بلغ القصد - الذي يقصده ، فهذا يبلغ بمشيئة الله القصد ثم يقول النبي ﷺ : " ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة " فالجنة لا تنال بالأمان ، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح " (٢) .

وبقدر القرب من الله تعالى ، وبقوة الصلوة به يكون مقدار الخشية ، فإنَّ الذي يجترئ على معاصي الله تعالى قد نزعت الخشية من قلبه ، ولذا تجره المعصية الأولى إلى الثانية ، و الثانية إلى الثالثة ، فيسترسل في المعصية ، بينما الذي يخشى الله تعالى إن استزله الشيطان فوقع في شيء من المعاصي ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضاقت عليه نفسه ، ولم يجد ملجأ من الله إلا إليه ، وما ذلك إلا بسبب عمق الخشية من الله تعالى ، فالنبي ﷺ هو أعظم " المؤمنين إيماناً ، وأقربهم من الله ، وأرفعهم منزلة عنده ، وأعلاهم قدراً عنده ، ولكنه مع

(١) سنن الترمذي رقم ٢٤٥٠

(٢) أمراض القلوب ، الشيخ الخليلي ، ١/٤٨٠

ذلك هو أشدهم خوفاً. النبي ﷺ يقول: " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء في الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، وددت أني شجرة تعضد"^(١)

فإذا كان النبي ﷺ مع تلك المنزلة العالية الرفيعة التي بوأه الله تبارك وتعالى إياها، يصل به الخوف من الله تبارك وتعالى إلى أن يود أن يكون شجرة تعضد! فكيف بنا نحن مع كوننا نسيح في خضم الخطايا والأوزار؟! .

فنحن أولى أن نحاسب النفوس ، ونخشى الله سبحانه وتعالى خشية تمتلك ألبابنا، بسبب ما نشعر به من تقصير في حقه عز وجل، ومن اجترائنا على انتهاك حرمة، وارتكاب معاصيه "^(٢)

وإذا كان النبي ﷺ تمني أن يكون شجرة تعضد، فكيف بهذا الذي يغرق في معاصي الله ، يمسى ويغدو في معاصي الله سبحانه وتعالى، وهو مع ذلك يدعي أنه لن تحبط أعماله بسبب أن المعصية تظل معصية، وأن الحسنه بعشر أمثالها، وهو غير ملتفت إلى أن الحسنه إنما تتقبل من المتقين لا تتقبل من غير المتقين، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾^(٤)

وعلى هذا فإن المؤمن في الدنيا لا يبارحه الخوف، لأنه الواقعي من الخوف في الآخرة ، إذ لا يجمع الله على عبد خوفين ، وفي الآيات القرآنية الواصفة

(١) كان النبي ﷺ يتأثر بهبوب الريح وكان يتأثر برؤية الغيم وكان لا يقر له قرار إذا رأى سحابة حتى تمطر"^(١) وحي المناير ٨٣/١

(٢) الخطوات العملية للشخصية، الشيخ الخليلي، ٣٩٢ / ١

(٣) سورة المائدة، الآية ٢٧

(٤) سورة ص، الآية ٢٨

(٥) أثر الإيمان بالغيب في الخوف من وعيد الله، الشيخ الخليلي، محاضرة

للمؤمنين بالخوف، والآمرة به، وفي أحاديث الرسول ﷺ ما يكفي دليلاً على أن الخوف من الله تبارك وتعالى كرجائه تعالى من أهم واجبات الدين، فبهما يستقيم أود النفس، وتنزجر عن المعاصي، وتسابق على الخيرات، وإذا كان النبيون أشد خوفاً من الله تعالى كما ثبت في الحديث، فما بالكم بسائر المؤمنين، على أن خوف كل أحد إنما هو بقدر علمه وإيمانه^(١)

هذه المخافة كما تقدم تدفع الإنسان إلى محاسبة نفسه دائماً، كما تورث فيها الاعتبار والتذكر، والانتفاع بالمواعظ والعبر، وأن لا يمر عليها أصم وأعمى، فإن الله تعالى ناط الذكري بمن يخشونه، ﴿سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى﴾^(٢)، ﴿إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَن يَخْشَى﴾^(٣)

بجانب هذا الخوف من الله تعالى فإن المطلوب من المسلم أن يوازن هذه الكفة بكفة الرجاء لثواب الله وغفرانه، فيكون الخوف واق له من عمل الشر، ويكون الرجاء حافزاً له على عمل الخير^(٤)

ويستطيع أن يقاوم تيارات الهوى، ونزغات الشيطان في نفسه، بتيار أقوى منه هو تيار الخوف والرجاء^(٥)

ويطلب من المسلم أن يعدل بين جانبي الخوف والرجاء كذلك، يقول سبحانه:

والإيمان هو الذي يجعل الإنسان يربط نفسه بخوف الله ورجائه، فيكون راجياً وخائفاً، يعدل بين الخوف والرجاء، فهو من ناحية ينظر إلى فضل الله سبحانه وتعالى وإحسانه فيرجو من الله أن يختم له بخواتم الصالحين، فيدعو

(١) ، الشيخ الخليلي ، ٣ / ١٥٨

(٢) سورة الأعلى ، الآية ١٠

(٣) سورة طه ، الآية ٢

(٤) لقاء المؤلف بسباحته

(٥) سؤال أهل الذكر ٣٠ شعبان ١٤٢٤ هـ - ١٠٢٦ / ١٠ / ٢٠٠٣ م

الله باستمرار أن يمن عليه بحسن الخاتمة، وأن يبوأه مبرأ صدق في الدار الآخرة، وأن يخلصه من أسر شهواته ورغباته حتى يكون عبداً مخلصاً له سبحانه وتعالى، ويرجو من الله تعالى أن يستجيب هذا الدعاء^(١)

إن سماحته - حفظه الله - كثيراً ما يبحث على استخدام هذه الوسيلة في التربية الروحية، لأنّها مناط الخير كله، وبها تتحقق السعادة للفرد وللأمة في الدارين، فمن تلك التوجيهات قوله:

"يجب أن يربى الشباب على المسارعة إلى طاعة الله، وعلى الخوف من الله سبحانه وتعالى، وعلى عدم الاستهانة بشيء من أوامر الله تعالى ونواهيه، يجب أن يربى الشباب على الشوق إلى لقاء الله في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين"^(٢)

ويقول أيضاً : " فإنَّ العباد بحاجة إلى تربيتهم بالترغيب والترهيب وإيقاظ الشعور بالخوف والرجاء في نفوسهم؛ لينشطوا للأعمال الصالحة يباعث الرجاء، وليحاذروا الأعمال السيئة لداعي الخوف"^(٣)

يقول أبو مسلم

وزن صالح الأعمال بالخوف والرجاء هما جنة للصالحات وسور

وبالعدل والإحسان قم واستقم كما أمرت وبادر فالمعاش قصير^(٤)

كيفية استجلاب الخشية

يقول سماحته " يستجلب خوف الله بمعرفة الله، وصفاته، كالقدره، والقوة، ومعرفة عقابه وثوابه، وتأمل كتاب الله من وعد و وعيد "^(٥)

(١) أمراض القلوب، الشيخ الخليلي، ٤٨٠/١

(٢) وحي المنابر، الشيخ الخليلي، ٤١ / ١

(٣) جواهر للتفسير، الشيخ الخليلي، ١ / ٢٣٢، ٢٣١

(٤) ديوان أبي مسلم ص ٢٠٦

وقد مر الحديث عن معرفة العقاب والثواب في الحديث عن الإيمان باليوم الآخر، وهو الإيمان بالجزاء، كما سبق الحديث عن دور تلاوة القرآن الكريم في تهذيب الروح، وأتحدث هنا عن النقطة الثالثة وهي معرفة صفات الله تعالى، وأقصر الحديث على ثلاث صفات هي: القدرة والعلم والإرادة.

١ (القدرة :

مما نؤمن به عقلا وتقالاً أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(١) فبمجرد أن تتجه الإرادة الإلهية لفعل شيء يفعل ذلك الشيء كما أَرَادَهُ اللهُ بِأَسْرَعٍ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ . إِنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ الْقُدْرَةُ الْمَطْلُوقَةُ الَّتِي لَا تَحُدُّ بِحُدُودِ .

· تتجلى بعض مظاهر القدرة الإلهية المطلقة في القرآن الكريم لأجل لفت نظر الناس إليها للإعتراف، وتقدير الله تعالى حق قدره، والخشية من بطشه سبحانه وتعالى وأليم عقابه في الدنيا وفي الآخرة ، ليتفكر الإنسان في قدرة المخلوقين التي هي هبة من الله بجانب هذه القدرة المطلقة، فيذعن ويسلم وجهه لله .

يقول سماحته : " وإذا كان الإنسان يخشى صاحب القدرة المحدودة، يخشى إنساناً مثله تعرض له عوارض شتى تحول بينه وبين درك مراده، وبينه وبين أنفاذ مخططة، فكيف لا يخشى من إذا أراد أمراً قال له كن فيكون، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق السموات والأرض في لحظة واحدة لخلقها في لحظة واحدة ، لكن حكمته اقتضت أن يخلقها في ستة أيام فخلقها في ستة أيام، ولو شاء الله أن يدمها في لحظة واحدة لانعدمت في لحظة واحدة، وإذا كانت قدرة الله سبحانه وتعالى تتجلى في هذا الخلق العجيب في هذا الكون

(١) انظر وحي المنابر، الشيخ الخليلي،

(٢) سورة يس، الآية ٨٢ .

من ذراته الدقيقة إلى مجراته الواسعة، فإن قدرته أيضا تتجلى في تدبير هذا الكون، فإن المدبر لهذا الكون بأسره لا بد أن تكون قدرته أحاطت بكل شيء ، لننظر في حالة الأجرام الفلكية مع كثرتها ، بحيث لا يحصيها أحد من خلق سبحانه وتعالى ، نجد أنها لا تتغير مواعيدها ولا تتبدل مواعيدها، فالشمس تطلع في ميعاتها المحدد.

فهذا اليوم اللحظة التي طلعت فيها الشمس سوف تطلع فيها في مثل هذا اليوم في العام القادم من السنة الشمسية، وكذلك اللحظة التي غربت فيها الشمس، وهكذا سائر الأجرام الفلكية كلها وهكذا الفصول لا تتقدم ولا تتأخر^(١)

وسأورد هنا بعض ما تتجلى فيه القدرة الإلهية في القرآن الكريم، خصوصا في قصصه، فمن ذلك :

(١) قوم لوط عندما أدخلوا إلى الكفر، وعملوا بمعاصي الله، نزلت الملائكة بأمر الله إلى لوط ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ مِّن مَّوَدٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾. وإلى الآن تعد منطقة البحر الميت أخفض منطقة في العالم.

(٢) عصا موسى: كيف تحولت إلى ثعبان ضخم بقدرة الله؛ فالتهمت الحبال والعصي، ثم عادت عصا كما كانت، فأين ذهب الحبال والعصي

(١) صفات الله، الشيخ الخليلي، ٨ / ٨ / ج

(٢) سورة هود، الآيات ٨١ - ٨٣

التي ألقاها السحرة؟! ﴿ فَالْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيهِمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَخُنُّ الْعُغْلِبُونَ ﴾^(١) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿^(٢)

ثم كيف انفلق له البحر بقدرة الله تعالى بعد أن ضربه بعصاه، وفرعون وجنود من خلف موسى مسرعين، ﴿ فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾^(٣) فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿^(٤) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿^(٥) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿^(٦) فلما دخل فرعون الطريق الممتد وسط البحر أطبق عليه البحر، وأدركه الغرق هو وجنوده.

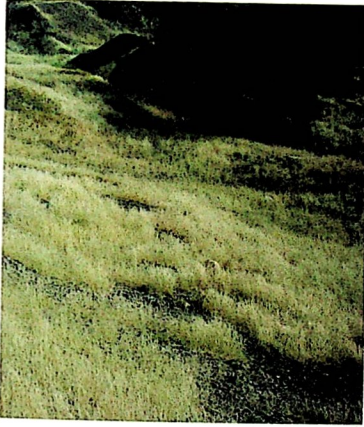
٣) رفع الطور فوق بني إسرائيل كأنه ظلة ، ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾^(٧) يمكنك أن تتصور اقتلاع الجبل وارتفاعه فوق رؤوس العباد كأنه سحابة تظلمهم ، يقول سياحته: " ولم أجد أحداً من القدامى ينكر اقتلاع الجبل ورفع فوق الرؤوس كالسحب، وهو بهذا آية كونية خارقة للمألوف عند الناس من أحوال الكون"^(٨). ثم تابع معي أخي المسلم الإشارات الإلهية الآتية، الدالة على القدرة الربانية ونحن نمر عليها صباح مساء ، وذلك من خلال الصور الآتية.

(١) سورة الشعراء ، الآيتان ٤٤ ، ٤٥

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٦٣

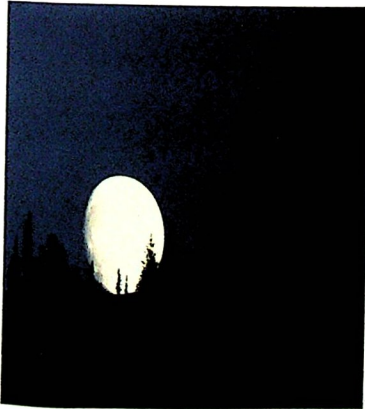
(٣) سورة الأعراف ن الآية ١٧٧

(٤) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٣ / ٤١٨

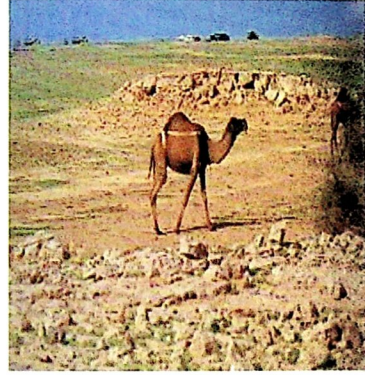


{فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِيثِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

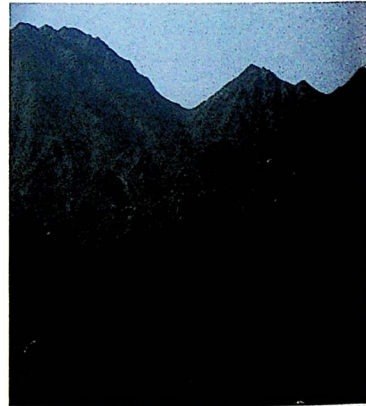
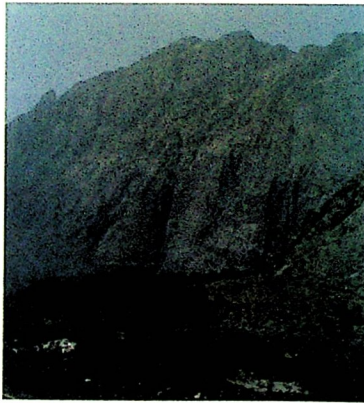
أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ



قَالَتِ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلُ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ



أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ



قرية آمنة في ظل هذا الطود الشامخ،
يأتيها رزقها رغداً ، فكيف تأمن أن يطبق
الله الجبل عليها ، إنه رحيم ودود.

وإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ
وكيف جعل الله الفجاج سبلا
للسالكين بين شعابها

وتفكر أخي المسلم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجْنَبْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) قُلْ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ أُنظِرْ كَيْفَ نُنْصِرُ ۗ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٢٥﴾ .

بعد هذا العرض لبعض مظاهر القدرة الإلهية نختم بكلام سماحته فيما يمكن أن نستفيد منه من وصفنا لله سبحانه وتعالى بالقدرة يقول :

" ونستفيد من وصفنا لله سبحانه وتعالى بالقدرة فائدة سلوكية عظيمة وهي الخضوع المطلق لله سبحانه وتعالى، فإن من شأن الضعيف أن يستكين ويخضع للقوي، وهذا معهود في الكائنات على اختلاف أنواعها، فالحيوان الضعيف يستكين للحيوان القوي، والفرد من أفراد جنس الحيوان الواحد إذا كان ضعيفا للفرد الذي هو أقوى منه من ذلك الجنس ، والإنسان الذي هو ضعيف معنويا أو ماديا ليستكين للذي هو أقوى منه معنويا أو ماديا، فإذا كان الأمر كذلك فمن خلق هذا الوجود بأسره، وسبح كل شيء في الوجود بحمده ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢) . هو أولى وأجدر بأن تخضع له - تعالى - خضوعا مطلقا، وأن طيعه طاعة مطلقة، طاعة لا تتقيد بحدود، لأن طاعة كل من سوى الله - تعالى - تتقيد بحدود، وأما طاعة الله عز وجل فلا تقف عند حد ، يجب أن يطاع الله سبحانه وتعالى في كل ما يأمر به، وفي كل ما ينهى عنه" (٣)

(١) سورة الأنعام، الآية ٦٥

(٢) سورة الإسراء، الآية ٤٤

(٣) صفات الله، الشيخ الخليلي، ٨/٨ ج

القوة الإلهية :

إن القادر على كل شيء لابد أن يكون قويا ، والله الحول والطول والقوة جميعا، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾^(١)

ويضرب الله الأمثال للناس للتدبر والتفكر ، ليروا مدى ضعفهم أمام قوة الله المطلقة ، وقد خلق الله الإنسان ضعيفا ، ومن هذه الأمثال، عدم قدرتهم على خلق الذباب، بل ضعفهم التام أمامه إذا أخذ شيئا منهم، فلا قوة لهم على استنقاذ ما سلبه منهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾^(٢) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ^(٣)

ويصف الله سبحانه وتعالى نفسه بالقوة ، فيقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾^(٤) ويقول سبحانه : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَايِنَتِنَا مَجْحُودِينَ ﴾^(٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ^(٦) ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(٧)

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٥

(٢) سورة الحج، الآيتان ٧٢، ٧٣،

(٣) سورة الذاريات، الآية ٥٨

(٤) سورة فصلت، الآية ١٥

(٥) سورة الزمر، الآية ٦٧

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ بَدِيدٌ ﴾^(١)

ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصْرَفُ الْأَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾^(٢)

هنا يستشعر الإنسان ضعفه التام الكامل، ويدرك تمام الإدراك حاجته الملحة إلى القوة المطلقة، ولذا أمرنا أن نكرر كثيراً قول " لا حول ولا قوة إلا بالله " فإن الإنسان عاجز تمام العجز عن دفع الضر عن نفسه إلا بقوة الله وإرادته، وهو عاجز كل العجز عن جلب النفع لنفسه إلا بقوة الله وقدرته، وإذا كان قوي الصلة بالله كان قويا في إرادته، قويا في أخذه وتركه، قويا حين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

قوة الله إن تولت ضعيفا تعبت في مراسه الأقوياء
العلم الإلهي :

كثيرا ما يرد في القرآن الكريم وصف الله سبحانه وتعالى بأنه بكل شيء عليم، وأنه سميع عليم، وأنه حكيم عليم، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ سَّمَاءٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾^(٣) وأنه سبحانه : ﴿ عَلَّمَ الْغُيُوبَ ﴾^(٤) فيشعر أن الله تعالى يراه في

(١) سورة هود الآية ١٠٢

(٢) سورة الأنعام، الآية ٦٥

(٣) سورة الأنعام، الآية ٥٩

(٤) سورة سبأ، الآية ٤٨

كل لحظة ومطلع عليه، وعلى ما تختلج به نفسه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١)

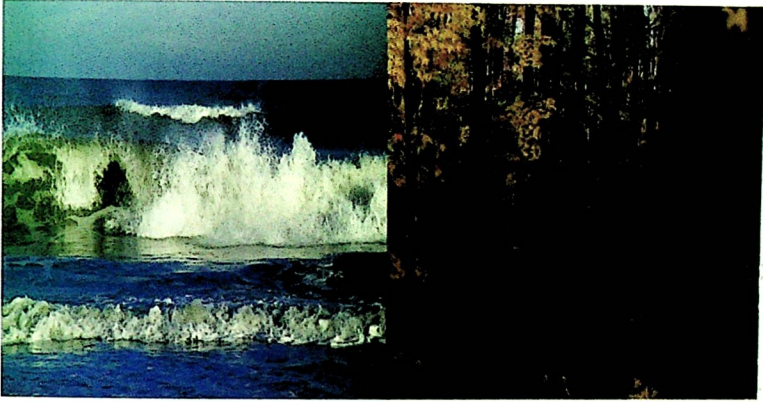
ويقول سماحة الشيخ : " إن الإنسان يدرك أن مبدع هذه المخلوقات، وصانع هذه الكائنات، لا بد أن يكون محيطا علمه بكل شيء ، فإن من يجهل الشيء لا يمكن أن يصنعه " فخلق الله سبحانه وتعالى لهذه الموجودات على ما هي عليه، وربط بعضها ببعض، وتهيئة كل جزء منها لأن يؤدي دوره كما أراده الله سبحانه وتعالى، دليل بارز قاطع على أن الله سبحانه وتعالى عليم بكل شيء " فإن من لم يكن عالما بهذه الدقائق وبهذه الجزئيات لا يمكن أن يرتب الكون على ما هو عليه " ويخبرنا الله سبحانه وتعالى عن علمه بكل شيء، إذ يقول عز من قائل : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُهُ مَا تُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢) فالله سبحانه وتعالى يعلم خطرات الأنفس في أعماق الضمائر، ويعلم سبحانه وتعالى ما يجري في كل خلية من خلايا الإنسان، فما من شيء يجري في جسم الإنسان إلا والله سبحانه وتعالى محيط به، وكذلك كل ذرة في الكون وكل ما يتحرك في أعماق هذه الذرة من أجزاء دقيقة جدا إنها هي بعلم الله، فلا يفوت علم الله شيء في الأرض ولا في السماء ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾^(٣)

ونورد هنا بعض الآيات الدالة على علم الله تعالى الواسع المحيط بكل شيء مقرونة بصورها لتعين على سرعة التصور والتخيل.

(١) سورة غافر، الآية ١٩

(٢) سورة ق، الآية ١٦

(٣) سورة سبأ، الآية ٢



وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا
نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ



﴿وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾

فكم عدد حبات الرمل في هذا التل الكبير؟ ولماذا بهذا اللون؟ وفي هذا المكان؟ العلم عند الله.



﴿ وَمَا تَنْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ والمراد بكلمات الله معلوماته سبحانه ، فقد روي أن الشيخ السالمي - رحمه الله - كان في جلسة علم مع طلابه، وفسر لهم " كلمات الله " في أواخر سورة الكهف بمعلومات الله، فقال له أحد تلاميذه : عمّن هذا التفسير؟ فضرب بعصاه الأرض، و قال : رأيت إن كان مني ، أو ليس مقبولا ؟.

فسبحان الذي أحاط بكل شيء علما، فكيف للإنسان محدود الطاقات في تفكيره وعلمه ، مع ما يعتره من النسيان، ألا يخضع خضوعا مطلقا لإرادة ربه العليم بكل شيء .

"ونستفيد من اعتقادنا أن الله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم في سلوكنا في مراقبة الله سبحانه وتعالى لنا؛ فإن من شأن الإنسان أن يراقب إطلاع البشر على أفعاله وشؤونهم، فكيف لا يراقب علم الله وتعالى الذي أحاط بكل شيء ، فهذا الاعتقاد يدفع الإنسان إلى مراقبة الله سبحانه وتعالى في سريرته، وإلى مراقبته في علانيته، بحيث لا يخرج شيء من أعماله عن إطار طاعة الله سبحانه

وتعالى، وبحيث يخشى كل الخشية أن يطلع الله سبحانه وتعالى منه على ما لا يرضيه من أعمال السر أو من أعمال العلانية، وهذا يكون الإنسان نقيًا طاهرًا مخلصًا في عمله لله عز وجل" (١) .

الإرادة الإلهية

إنَّ الله يفعل ما يريد ، وإذا أراد شيئاً فلا مرد له ، ولا قوة تحول دون إرادته، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد سبحانه ، يقول عز وجل : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (٢) ويقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٣) ويقول سبحانه : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ (٤) ويقول سبحانه : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٥) ويقول : ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ (٦) .

لا أحد يا سيدي ومولاي، لا أحد يملك لنفسه ولا لغيره منك شيئاً، يقول سماحته في صفة الإرادة مبينا أثرها في التربية الروحية : " إن الله يفعل كل شيء بإرادته ، فالأمور كلها مدبرة على حسب ما يقدر الخالق العليم ، والمدبر الحكيم الذي يخضع كل شيء في الوجود لإرادته ، فقد روي أن خالد بن الوليد ؓ كان يتحدث عندما احتضر فيقول فيما معناه : " لقد خضت أكثر من مائة معركة، وما في بدني موضع إلا وفيه أثر طعنة بالرمح أو ضربة بالسيف، وها أنذا أموت على فراشي مثل ما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء " إنها شاء الله سبحانه وتعالى أن يدفع عنه الموت بفتك الفتاك، فمات

(١) صفات الله ٨/٨ ج

(٢) سورة هود، الآية ١٠٧

(٣) سورة الحج، الآية ١٤

(٤) سورة الرعد، الآية ١١

(٥) سورة الأحزاب، الآية ١٧

(٦) سورة الفتح، الآية ١١

حتفأنفه مع خوضه غمار المعارك ، وكم من آخرين يحصنون ويحافظ على حياتهم بمختلف الوسائل ، وإذا بهم يؤتون في مأمئهم . من هذا كله نعلم ونقرأ سطور آيات إرادة الله سبحانه وتعالى المدبرة لهذا الوجود .

وإذا أيقنا أن الله سبحانه وتعالى مرید، وأنه لا يقع شيء في الوجود إلا بحسب ما تقتضيه إرادته، فعلينا أن نستمد من ذلك درسا نستفيده في سلوكنا، وهو أن تشعر بمنة الله سبحانه وتعالى علينا فإن الله عز وجل اقتضت إرادته أن يمن علينا بما من به . فإن الله سبحانه وتعالى رتب هذا الكون بإرادته ترتيبا دقيقا يتلاءم مع مصلحة الإنسان ، ولذلك يقول : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾^(١) ويقتضينا الاعتقاد باتصاف الله سبحانه وتعالى بالإرادة أن نتعلق بالله سبحانه وتعالى وحده ، لأننا نعلم من خلال اعتقادنا ذلك أن الكائنات بأسرها لو اجتمعت إرادتها على شيء وكانت إرادة الله تقتضي غيره لنفذت إرادة الله وتجمدت إرادة الكائنات بأسرها . فلو أن أهل السموات والأرض اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو أن أهل السموات والأرض اجتمعوا على أن يضررك بشيء، لم يضررك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف ، فعقيدتنا تقتضي أن نتعلق بالله سبحانه وتعالى وحده وأن لا نتعلق بغيره"^(٢)

وكل صفات الله تعالى عندما يتفكر الإنسان فيها ويتأمل ويتدبر تتولد في نفسه خشية سبحانه فإنه . سبحانه . سريع العقاب، شديد العذاب ، سريع الانتقام ، وهو سبحانه حلیم غفور، كريم ودود، وكل هذه الصفات تستدعي محبة الطائع لله سبحانه، فهو المنعم المتفضل، ومحبه تستلزم الاستمسك بطاعته، ورجاؤه يستلزم الخضوع له، والخوف منه يستدعي

(١) سورة الجاثية ، الآية ١٣

(٢) صفات الله ٨/٨ ج

الإذعان لأمره ونهيه، ولا يغرنك حلمه في المرأة عليه سبحانه ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَاهِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١).

٩. التخلي عن الرذائل قبل التحلي بالفضائل :

يقول سماحته: ومن الأمثلة السائرة " التخلي قبل التحلي " أي التخلي عن النقائص والمذام، قبل التحلي بالكمالات والمحامد، والإنسان لا يكون للخير أهلاً، وللفضيلة خدناً حتى يتجرد من الشر والرذيلة (٢)

ويزيد ذلك توضيحاً بقوله: فالنفس لا تتأهل لأن تكون وعاء للخير حتى تتطهر من أدران الشر، ولا يمكنها أن تتحلّى بالفضائل المحمودة حتى تتخلى عن الرذائل المذمومة، وكيف يقر الإيثار في نفس لوئها الفساد وألفت الشقاق والنفاق؟ اللهم إلا أن يتغير مسلكها، وتبديل عاداتها (٣)

وكلامه - حفظه الله - واضح أن الإنسان مأمور أن لا يخلط الخير بالشر، فهما نقيضان لا يجتمعان في نفس سوية أبداً، وإنما يتقبل الله من المتقين، فلا بد إذن من التخلي التام الكامل عن الدنيا والمعاصي، بله الموبقات، لتكون الصفحة صافية نقية، كي تسيطر عليها ما تشاء من الفضائل، وسألته حفظه الله يوماً: إن لم يجمع الإنسان بين التخلي والتحلي، فتحلى بالفضائل مع إهماله للتخلي عن الرذائل، فقال سماحته : " إذا كان الإنسان متحلياً بالكمال، ومتلبساً بالدنيا في نفس الوقت، فإن ذلك التحلي يشاب بعدم التحلي، بهذا الذي تلبس به، وإنما يؤرم الإنسان أن يحرص على تهذيب نفسه بالتخلي عن المذموم؛ ليتصف بالمحمود (٤).

(١) سورة هود، الآية ١٠٢

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٣ / ٣٣٥

(٣) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ٣٣٥

(٤) لقاء المؤلف بساحة الشيخ

وهذا يعني أنَّ الدنيا دنس أسود ، والفضائل وجه ناصع ، ولذلك يتكدر بمخالطة السواد له، وهما بلا شك لا يجتمعان في قلب واحد، ولذا سيكون القلب كدرا ، ويزداد كدره وسواده حتى يعتم .

ومن هنا فإن السمو الروحي لا يتحقق البتة إلا مع التخلي عن المعاصي، وكل ما يعيق صفاء الروح وشفافيتها، ولا يعني ذلك بحال أنه إذا كان الإنسان يواقع شيئا من المعاصي أنه لا يفعل شيئا من الفضائل، بحجة أنه يظهر نفسه من الدنيا، فهو يعمل على تحقيق عملية التخلي، وهي عملية قد تطول معه وتطول، بحجج أو هي من خيوط العنكبوت ، بل يؤمر بالتخلي الكامل والسريع، والهجر التام والبراء المطلقة من كل المعاصي؛ ليحل محلها كل الفضائل ويزيد عليها، فإن سقف الخيرات والقربات بعيد، ومجاله واسع، وأفق رحب جداً ، وإن لم يستطع ذلك فعليه الاستمرار في عملية التخلي، وفي المقابل يتحلى بالفضائل؛ فيهدم بناء الشر ويعلو بناء الخير، فحاسب نفسك أخي المسلم، وأعلم ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١)

فإن كنت قد ابتليت بشيء من الدنس والعياذ بالله فمن هذه اللحظة باشر عملية التخلي، وأقم مكانها التحلي بالفضائل ﴿وَالَّذِينَ آهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾^(٢). وإياك أن يقوم بجانب بناء الخير إلا بناء خير مثله لا سواه .

١٠ - تطهير القلب من الأمراض :

لاريب أن أمراض القلوب أعظم خطرا، وأكثر فتكا من أمراض الجسد، والأحق أن تولى المزيد من الاهتمام بالعلاج وال مداواة ، وذلك لأنها تتعلق بأمر الدين، وتغزو القلب، وتباشر الروح، أما أمراض الجسم فتبقى خارج هذا الإطار ، يقول سباحته : " الأمراض الجسمية مؤدية إلى هلاك الجسد،

(١) سورة المائدة، الآية ٢٧

(٢) سورة محمد، الآية ١٧

وفوات المنفعة العاجلة، وهذا المرض النفسي مؤد إلى هلاك الروح، وفوات المنفعة الآجلة، والبون بينهما كالبون بين قيمة الجسد و الروح، وقدر الحياتين العاجلة والآجلة" (١)

والأمراض القلبية تذهب بالسعادة رأساً، وتحول حياة الفرد ومن حوله إلى تعاسة وشقاء، فله الأمر من قبل ومن بعد، نسأل الله العافية منها .

أهم مرضين يصيبان القلب

وأعرج هنا على مرضين خطيرين جداً نوه إليهما سماحته، وهما يؤثران تأثيراً مباشراً على الطرف الآخر، ثم أتناول سبل العلاج بعد ذلك. وهذان المرضان هما الحسد وسوء الظن .

أ (الحسد :

الحسد من الأمراض النفسية الفتاكة التي تأكل قلب صاحبها كما تأكل النار الهشيم " وهو تمنى الإنسان زوال نعمة الغير وانتقال هذه النعمة له، بل ولو لم يتمن أن تنتقل إليه، فإن مجرد تمنى زوال هذه النعمة هو أمر مذموم جداً، ولذلك حذر النبي ﷺ من الحسد " ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً" (٢) هكذا يأمرنا الرسول الكريم عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم .

إن الحسد داء يظهر أثره على كثير ممن بعدوا عن الإيمان، فهم يسعون دائماً إلى الحيلولة بين الناس والوصول إلى الخير وإلى النعيم، ويسرون عندما يرون غيرهم يكابد لأواء المشقة، ويكابد عنت هذه الحياة، فهؤلاء في نفوسهم مرض. لذلك وصف الله سبحانه تعالى اليهود بأنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. فليس من شيمة المؤمن أن يكون حسوداً،

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢ / ٢٩٢

(٢) رواه البخاري رقم ١٦١٥، ومسلم رقم ٢٥٥٩

على أن الحسود عليه أن يفكر بأنه لا يضر إلا نفسه، فإنَّ الحسد نار تأكل قلبه، وهو يتألم عندما يرى غيره في نعمة، ويرى غيره في طمأنينة وراحة، وهذا الأمر خطير جدا ، وقد أحسن الشاعر التهامي عند ذكر حالة الحسد وأصحابه عندما قال :

إني لأرحم حاسدي لحرما ضمنت صدورهم من الأوغار
نظروا صنيع الله بي فعيونهم في جنة وقلوبهم في نار
لا ذنب لي قد رمت كتم فضائي فكأنها برقعت وجه نهار
وسترتها بتواضعي فتناولت أعناقها تعلقو على الأستار"^(١)

وليعلم الحاسد أيضا أنه لن يستطيع أبدا أن يمنع خيراً قضاه الله لغيره ، ولن يستطيع أن يوقع ضرا بأحد وقد كتب الله أن لا يصيبه، فقد قسمت الأرزاق، ورفعت الأفلام، فليرح نفسه ، وليرضى بما قسمه الله بين عباده بحكمته وعدله، وليقرأ قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾^(٢) وعليه أن يتجنب الحسد فقد جاء في الحديث : " الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب " ^(٣) فجدير بالإنسان أن يتجنب حسد عباد الله، فإن حسده لا يضر به إلا نفسه"^(٤)

وقال بعض الحكماء في علاج هذا الداء أن ينظر الحاسد إلى المحسود ، أليكون من أهل الجنة أم من أهل النار؟ والعياذ بالله من النار، فإن كان من

(١) أمراض القلوب،، الشيخ الخليلي، ٤٨٠/ج

(٢) سورة الزخرف، الآية ٣٢

(٣) سنن ابن ماجه، رقم ٤٢١٠

(٤) رحي المنابر،، الشيخ الخليلي، ٢٢/١

أهل الجنة، فعلام يحسده على متاع زائل وبهرج فان؟! فكل شيء على ظهر هذه الأرض يضمحل ويتلاشى لا محالة، كيف يحسد وليا من أولياء الله تعالى على دنيا فانية بجانب أن الله تعالى سيعطيه دار الخلود.

وإن كان من أهل النار، والعباذ بالله، فحسبه ما ينتظره من العذاب، ولا ينبغي أن يحسد على متاع زائل في دنيا فانية في زمن قصير جدا ولو أوتي ملك الدنيا، فليتمتع بها، فإنها هي الدار الفانية فحسب، وماله في الآخرة من نصيب، فوراء ما وراءه من الجحيم .

وإن كان المحسود حسد لقربه من ربه، وتنزل الكرامات الربانية عليه، فليظن الحاسد ما الذي يمنعه أن يتفوق على محسوده في القربات مع الإخلاص؟! فليس بين محسوده والرب الكريم سبحانه نسب، ولا صلة إلا صلة التقوى، وكذا الشأن إن حسده على سمو خلقه، وسعة صدره، أو كل نعمة يتنعمها إنما هي من الله، فليتجه إليه بكليته ينال الرضا والكرامة.

وعلى الإنسان أن يسمو بنفسه عن هذا الدرك، وليلتفت إلى قلبه بالترية الروحية التي لا يبقى معها مرض قلبي بإذن الله تعالى .

ب) سوء الظن

إن سوء الظن معضلة خطيرة لا تبقي ولا تذر، تفرق الجماعات بعد تآلفها، وتنافر بين القلوب بعد تعانقها، وتورث البغضاء والشحناء، وتقضي على نزعة الإيمان قضاء مبرما، ويصبح قلب الإنسان عرضة للهواجس والأوهام، لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، وما ذلك إلا بسبب مرض في قلبه، وخواء في روحه، فيورثه ذلك بلادة في ذهنه، وانطاسا في بصيرته، فيصدق الأوهام، ويحقق الخيالات، ويمسي في ليل من الشك مظلم، وأكثر ما يكون هذا الداء فيمن ساء خلقه، وفسد طبعه، وقبحت أعماله، فأصبح يرى الناس كما يقول سماحته من خلال نفسه، وينظر إليهم من منظار قلبه الأسود، وضميره المتعفن، فيحسب كل الناس مثله في قدرته المعنوية.

و من هنا حذر الله سبحانه وتعالى من الظن السيئ، إذ قال: ﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَاجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾^(١) وفي الحديث عن النبي ﷺ: " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"^(٢)

لذا نهى الإنسان أن يظن بأخيه ظناً سيئاً، بل عليه أن يظن بالمؤمنين الظن الحسن، وأن لا يحمل في قلبه ظناً سيئاً تجاه مؤمن من المؤمنين، فالمؤمنون شأنهم كما يقول رسول الله ﷺ: " ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"^(٣)

والحق سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بالأخوة إذ قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^(٤) وحذر الله سبحانه وتعالى من عمل ظاهر هو التجسس الذي ينتج عن هذا الظن الخفي بين حنايا النفس، فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾^(٥) والله سبحانه وتعالى عندما حذر من التجسس أطلق التحذير ولم يقيد بكون هذا التجسس تجسساً من مؤمن على مؤمن، بخلاف الاغتياب عندما قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾^(٦) إذ الكافر والفاجر لا غيبة لهما، بخلاف التجسس، فإنه ليس من شأن المؤمن أن يتجسس على أي أحد كان"^(٧)

وإن كان الإنسان فريسة الوهم والخيالات، وأخذت الظنون تذهب به ونحيء، فإنه ينبغي أن لا يصدق ظنونه، ولا يجزم بذلك. يقول سماحته:

(١) سورة الحجرات، الآية ١٢

(٢) صحيح البخاري رقم ٤٨٤٩، صحيح مسلم رقم ٢٥٦٨

(٣) صحيح البخاري رقم ٥٦٦٥، صحيح مسلم رقم ٢٥٨٦

(٤) سورة الحجرات، الآية ١٠

(٥) أمراض القلوب ١/٤٨٠

" ونجد نحن في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ ما يدل على أن الإنسان مأمور و لو ظن الظنون أن لا يجزم، لأن من شأن الإنسان أن تختمر في نفسه آراء وأفكار، وتعمل في داخله ظنون و ظنون، ولكن مع ذلك عليه أن لا يقطع ، فقد قال النبي ﷺ في ضمن وصاياه لأمته : " وإذا ظننتم فلا تحققوا " (١)، ثم قال: " وذلك آية ما بين المؤمن والمنافق " فمعنى ذلك أن المؤمن وإن ظن الظنون لا يجزم بها، بخلاف المنافق. على أن القرآن الكريم حذر من الاندفاع وراء الظنون ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبِنُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (٢)

فالإنسان مأمور بأن يحسن الظن بكل الناس . فالظن الحسن الجميل من شأن المسلم، ومن أخلاقه المعروفة التي يحرص عليها، والمسلم كسائر البشر، ينظر إلى غيره من خلال نظرتة إلى نفسه، فلذلك يرى أنه يجب الخير للناس، ويسعى في مصالح الناس، ولا يجب أن يضر أحدا من الناس، في نفسه ولا في ماله، فلذلك يظن بغيره مثلما يرى نفسه عليه، أما من كان بخلاف ذلك فإنه أيضا ينظر إلى غيره من خلال نظره إلى نفسه ، لأن نظرة الإنسان إلى الغير تنعكس على نفسه فيرى الغير من خلال نفسه ، وفي هذا يقول الشاعر :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

ولا يفهم من ذلك أن يكون الإنسان أبلها بليدا، يرى انتهاك الحرمات أمام ناظره ثم لا يحرك ذلك فيه ساكنا، بدعوى أنه يحسن الظن، أو تستلب

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين الهندي، رقم ٧٤٤١، وكشف الخفاء ، رقم

إرادته جهاراً وهو يترنم بحسن الظن، أو يصول الأوغاد في عرضه وأعراض المسلمين وهو يكفكف نفسه بحسن الظن، حتى تمتد مدية الذابح إلى نحره، وهو ما يزال متكئاً على أريكة حسن الظن. وإنما خير الأمور الاعتدال، والوعي العميق، مع أن الإنسان يكون وقافاً عند حدود الله.

علاج أمراض القلوب

وأنتقل هنا ما يقدمه سماحته - حفظه الله - من علاج لأمراض القلوب عامة، وإن بدا فيه شيئاً من الطول فإنه سيكون ناجعاً لمن أورد الله له الانتفاع به، يقول سماحته: " لا ريب أن وصف الداء وحده لا يكفي من غير أن يوصف الدواء، فقد علمنا أن هذه الأمراض النفسية بأسرها إنما تنشأ عن عدم المبالاة بأوامر الله سبحانه وتعالى، فإذا ما هو العلاج؟ وكيف يتوصل الإنسان إلى إصلاح نفسه؟ كيف يمكن لهذا الإنسان أن يصلح قلبه؟ العلاج يعود إلى أربعة أمور لا بد منها:

أولاً: إصلاح العقيدة

نجد أن التركيز في كتاب الله سبحانه وتعالى على عنصرين من عناصر الإيمان... وهذا يتكرر في كتاب الله سبحانه وتعالى كثيراً في معرض الترغيب والترهيب، مبيناً مدى عناية النصوص الشرعية بالإيمان بالله، الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالله يعني الإيمان بالخالق الواحد الذي ليس كمثل شيء وهو السميع البصير، الذي خلق فسوى وقدر فهدى، وله الآخرة والأولى، سبحانه أمر ونهى، ووعد وتوعد، وهو صادق في كل ما يقول في وعده ووعيده، ليس له أول، وليس له آخر، مصدر كل شيء منه، فمنه المبدأ، واليه الرجوع، هو الذي خلق هذا الكون بأسره، وما يسبح فيه الإنسان من نعم إنما هو من عند الله سبحانه وتعالى.

ولا ريب أن هذا الإيمان يجعل الإنسان يستعلي على رغباته ونزواته، ويقاوم شهواته ونزعاته، حتى يصلح قلبه، بحيث يكون هذا القلب أفاقاً

من هيبة الله سبحانه وتعالى . والإيمان باليوم الآخر، إنما هو إيمان بالمنقلب الذي يتقلب إليه كل إنسان، فكأنما الحق سبحانه وتعالى منه مبدأ كل شيء واليه منقلبه، فليس لأحد من الناس منقلب إلا إلى الله سبحانه وتعالى منه المبدأ واليه الرجعى .

ولا ريب في أن الإنسان في منقلبه هذا محاسب على ما قدم وأخر، وأعطى ومنع، ومحاسب على القليل والكثير، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أمره ونهاه، وهو سائله عن فعل ما أمره به، وعن ترك ما نهاه عنه . وهذا إيمان بطبيعة الحال يؤدي إلى تقوية الإرادة النفسية في مقابل شهواتها ونزعاتها .

ثانياً: الأعمال الفعلية والتركية

وأقصد بالأعمال الفعل والفعل والترك، فالأعمال الصالحة هي سبب لصلاح القلب بخلاف الأعمال السيئة، وقد علمنا أن الأعمال السيئة سبب لفساد القلب، ودواء هذا الفساد هو الأعمال الصالحة ، وفي مقدمة هذه الأعمال العبادات التي يشرعها الله تعالى، فالصلاة تصلح القلب ، يقول الله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١) ويقول تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٣﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٥﴾﴾^(٢) ثم وصفهم بصفات متعددة واختتم هذه الصفات بالمحافظة على الصلاة كما ابتدأها بالمداومة عليها وقال : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(٣) . وكذلك الزكاة هي مطهرة للنفس من آثار الشح ، يقول الله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٤) فالنفس البشرية كما هو معلوم

(١) سورة العنكبوت : من الآية ٤٥

(٢) سورة المعارج : الآيات ١٩ - ٢٣

(٣) سورة المعارج : الآيات ٣٤

(٤) سورة التوبة : الآية ١٠٣

مجبولة على حب المال ، وهذا الحب عندما يطغى على جوانب النفس يكون داء عضالا يستعصي علاجه واستئصاله، ولكن جعل الله سبحانه وتعالى العلاج مستمرا، وهو هذه الزكاة التي يدفعها والإنفاق الذي ينفقه في سبيل الخير، فإنفاقه المال في وجوه الخير يفجر في نفسه مشاعر الرحمة ويرقق وجدانه ويرهف حسه ويجعله يشعر بضرورة معاونته لبني جنسه وضرورة معاونته إخوانه المؤمنين ، فيكون دائما يتألم بالآلام غيره، ويفرح بفرح غيره وهكذا يتمكن من التحرر من أسر شهوة المال التي هي جاحمة، وهي من أخطر الأخطار. لأن الحرص على الدنيا من أخطر الأخطار التي تجعل قلب الإنسان في عمى. فحب الدنيا كما جاء رأس كل خطيئة.

وهكذا الصيام أيضا يذكر الناس بالبؤساء والمحرومين والكادحين، الذين يقضون سحابة نهارهم وهم يكدحون من أجل الوصول إلى لقمة العيش، التي يسدون بها جوعتهم، أو من أجل الوصول إلى طمر يسترون به سواتهم. ويشعر بالركة تجاه هؤلاء، وهذا مما يجعله يتعاون معهم.

وكذلك الحج يربط ما بين الإنسان وبين إخوانه المؤمنين، ويصل بين نفسه ونفوسهم؛ فيتألم لآلامهم؛ ويجب ما يحبونه لنفسهم، وهكذا.

ثالثا: الأقوال :

إن تحرى الصدق في الكلام من جملة ما يتم به إصلاح القلب الذي يؤدي إلى صلاح العلانية، وكل ما يقوله الإنسان من خير ، من أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو إرشاد لغوي، أو تنبيه لغافل ، أو تعليم لجاهل أو إرشاد لحائر ، كل من ذلك يؤدي بمشيئة الله سبحانه وتعالى إلى إصلاح النفس، وهذا يعني أن يتجنب الإنسان القول السيئ، ومن ذلك النميمة، والغيبة شأنها كشأن من ينهش من لحم أخيه الميت، والنميمة هي من أخطر الخطر، فإنها تؤدي إلى القطيعة بين الناس ، ومن نمّ ففي قلبه مرض عظيم، لأنه يكره أن يرى الناس على وفاق وصلاح وخير وصلة ، فهو يسعى إلى تقاطعهم

وتدابيرهم، ولذلك ينمّ الحديث بينهم من أجل الإفساد. فتجنب النميمة من جملة أسباب صلاح القلب، وكذلك تجنب الكلمات التي فيها التحقير للغير، فقد علمنا تحذير الله سبحانه وتعالى وتحذير رسوله ﷺ من تحقير المؤمن للمؤمن، فهذه الأقوال عندما تكون على هذا النحو يكون بها صلاح القلب بمشيئة الله .

رابعاً: التخلق بالتواضع

الأخلاق التي بها صلاح القلب التواضع، فإنّ الإنسان يجب عليه أن يتواضع قبل كل شيء لربه، وأن يتواضع لعباد الله، وذلك في الحقيقة تواضع لله سبحانه وتعالى، فإن الله تعالى نهاه عن الاستكبار، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: " الكبرياء رداي والعظمة إزارني فمن نازعني فيها ألقيته في النار ولا أبالي " هكذا جاء في الحديث القدسي الرباني، فليس للإنسان أن يتناول على الله حتى ينازع الله عز وجل شيئاً من صفاته، وقوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي الكبرياء رداي، والعظمة إزارني، يعني اختصاصه سبحانه وتعالى للكبرياء، واختصاصه بالعظمة، كما أن احدنا لا يرضى أن ينازعه أحد في إزاره الذي هو مختص به، وفي ردائه الذي هو مختص به، فرداء المرء لا ينازع فيه، والإزار الذي هو خاص به لا ينازع فيه، وكذلك إذن الكبرياء صفة لا تليق إلا بالله، وليس لأحد من خلق الله سبحانه وتعالى أن ينازع الله عز وجل فيها .

- التخلق بحب الخير للآخرين

وكذلك من الأخلاق التي تؤدي إلى صلاح القلب أن يحرص الإنسان دائماً على حب الخير لغيره، لاسيما إخوانه المؤمنين كما يحبه لنفسه، ففي الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه

ما يجب لنفسه^(١) أي الإنسان لا يصل إلى حقيقة الإيمان وجوهره ، ويعدّ حقاً من المؤمنين الفائزين الناجين حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه، فالإنسان المؤمن يشعر بالراحة، ويشعر بالاطمئنان، ويشعر بسلامة باله عندما يشعر بأن إخوانه المسلمين نالهم خير، ويشعر بخلاف ذلك عندما يكون الأمر بخلاف ذلك، فهو يتألم لآلامهم، ويفرح لأفراحهم، هكذا شأن المؤمن وهذا مما ينافي الحسد، فالحسد إذن داء فتاك، ومرض يؤدي إلى فساد الظاهر والباطن . ولا بد من استجماع هذه الأمور كلها، وبهذا يضمن بمشيئة الله سلامة قلبه^(٢).

ولا عطر بعد عروس، فلا تعليق على ما تفضل به سماحته سوى القول: إن الانتفاع بهذه العلاجات مرهون بصدق نية الإنسان، وصفاء طويته، وحسن إقباله على التطبيق، وعمق الرغبة في تنقية القلب، وتنمية الروح، وصلل الوجدان، والله الموفق والهادي إلى سواء الصراط .

١١. الخلوّة والأوراد :

وهي من الوسائل التربوية الروحية المهمة، فمن المعلوم أنّ الإنسان يؤدي ما افترضه الله عليه، ويتقرب إليه بصنوف الطاعات، وهو يخوض معترك أعماله اليومية، فلربما أخذت تلك الأعمال والمخالطات والذهاب والإياب شيئاً مما جناه من الثمرات الروحية من تلك الطاعات، فهي بلا شك ذات أثر كبير في تزويده بالطاقة الإيانية، ولكن الأمر ليس كما لو كان الإنسان في خلوته متفرغاً برهة من الزمن، يأوي إلى نفسه وادعة وتأوي إليه أيضاً، ويجمع شمل النفس والروح، وقد ألفت عليهم الخلوّة ظلّالها، وأرخت الروحانية عليهم سكينتها، فخرجت الروح في آفاق الملكوت، ومخر القلب في بحار الرحوت، وهبت على النفس نسائم الإيمان، فانتشى بها

(١) رواه البخاري، رقم ١٣، ومسلم رقم ٤٥

(٢) أمراض القلوب، الشيخ الخليلي، ٤٨٠/أبتصرف

الضمير والوجدان، فتجاوبت الأعضاء بالتسييح والتحميد، وتناغمت مع التهليل والتمجيد، لرب الأنام، ذي الجلال والإكرام.

ما أُلذها من لحظات، وما أطيها من أوقات، إنَّها حياة الخلوات، وكأنها اقتطفت من حياة أهل الجنان، لا يهوى الإنسان إلا بقاءها، ولا يتمنى إلا استمرارها، يقول سماحته حفظه الله: " إن ذكر الله تعالى تعمر به القلوب، فالقلوب الميتة تحيي به، والقلوب الحزينة تعمر به، فينبغي للإنسان أن يذكر الله تعالى، والخلوة سبب من أسباب التفكير وإمعان النظر في ملكوت السماوات والأرض، وهذا حصل لبنينا ﷺ عندما هيمى للرسالة بتحبيب الخلوة إليه، واتخاذ الأوراد لذلك حسن" (١)

لم لا تعمر القلوب؟ ولم لا تحلق الأرواح؟ ولم لا تذرف العيون؟ وقد تخلصت النفس من شوائب الحياة، ولجأت إلى بارئها سبحانه وتعالى، فأواها إليه وأكرمها، وأصفاها ونعمها، وفي حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله " ورجل ذكر الله حالياً فقاضت عيناه " (٢) نعم إنه يهيم مع أوراده، وينسجم مع أصداء تراتيله، وما سمي الورد ورداً إلا أنه يرده الإنسان كما يرد العيون الفياضة بالماء الرقاق الزلال الصافي، إنه معين لا تنضب روحانيته، مهما نهل الإنسان من زلاله الذي يسري في كل خلية فيطهرها ويزكيها، ويشحذ فيها عزائم الإيمان ويجليها .

ولأهمية الاختلاء للذكر والتلاوة والصلاة وسائر القربات، ولما له من أثر روحاني لا يستغنى عنه المسلم، فقد حث الإسلام على الاعتكاف والتصل من جواذب الحياة، وقيود العيش، ليأتي دور الغذاء الروحي الذي به حياة الجسد والقلب معا. فبمجرد أن يدخل الإنسان إلى معتكفه خالياً وحيداً تتغير معالم الحياة أمام ناظره، يقول سماحته: " فالإنسان بمجرد ما

(١) رواه البخاري، رقم ٦٢٩، ومسلم، رقم ٧١٥

(٢) لقاء المؤلف بسماحته

يقف بين يدي ربه تبارك وتعالى ماثلاً راعياً ساجداً قائلاً الله أكبر يستشعر عظمة الخالق تبارك وتعالى ، وتترأى أمام ناظريه مشاهد العوالم الساجدة لله تبارك وتعالى، المسبحة بحمده التي هي كما أخبر الله تبارك وتعالى عنها لا يشذ شيء منها عن السجود والتسبيح لله تعالى كما يقول عز وجل ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾^(١)

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾^(٢)

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ. وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾^(٣)

وكذلك بجانب كونها مسبحة لله تعالى هي ساجدة أيضاً لجلال الله ، فكل شيء في هذا الكون أيضاً يسجد لله تعالى إلا من يشذ من الجنس البشري . فالله تعالى يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾^(٤) أي وكثير منهم الشاذون عن هذا النظام الذي جعله الله تبارك وتعالى موحداً ما بين هذه العوالم كلها، فالمسلم في خلواته يحس بهذه الصلة ما بينه وبين هذه الكائنات .

بل يحس المسلم أيضاً بأنه لا يسبح بلسانه الناطق فحسب، بل هناك السنة صامتة في نفسه هي تسبيح مع تسيحه بلسانه الناطق، فكل خلية من خلايا جسمه هي تسبح بحمد الله تعالى، بل كل ما هو أدق من الخلايا من الجسيمات أيضاً يشترك في هذا التسبيح .

(١) سورة الحشر : من الآية ١

(٢) سورة الجمعة : من الآية ١

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٤٤

(٤) سورة الحجج : من الآية ١٨

نستطيع أن نقول أن ملايين الملايين من الألسنة في جسم الإنسان الواحد تسبح بحمد الله تسبيحا صامتا، وإن كان هذا التسبيح لا يصل إلى فهمه وإدراكه إلا أولو البصائر الذين نور الله تبارك وتعالى بصائرهم حتى عرفوا أن الكائنات بأسرها منتظمة في هذا النظام العجيب، وأما حركة الإنسان الاضطرارية هي أيضا منسجمة مع نظام الوجود، وشذوذ الإنسان بعدم تفاعله مع ذلك عندما يكون خارجا عن المنهج الرباني يؤدي به إلى النشاز بينه وبين نفسه.

وهذا ما قاله بعض العلماء الربانيين عندما كان يفكر في مثل هذه الأمور، وهو الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي رحمه الله تعالى فقد قال :

أعابن تسيحي بنور جناني	فأشهد مني ألف ألف لسان
وكل لسان أجتلي من لغاته	إذا ألف ألف غريب أغاني
ويهدى إلى سمعي بكل لغية	هدى ألف ألف من شتيت معاني
وفي كل معنى ألف ألف عجيبة	يقصر عن إحصائها الثقلان
ولم أذكر الأعداد إلا إشارة	كأني في أوصاف ميططران
وإلا ففوق العد أمر منزه	عن الحد يفني دونه الملوان
و لا تتعجب إن عجبت فإنها	حقائق صدق ليس بالهذيان

فالإنسان الذي يخرج بنفسه من هذا العالم المادي الضيق بحيث يأوي إلى ربه سبحانه وتعالى في بيت من بيوته، مستشرفا عالم الغيب، متطلعا إلى نفحات الله تبارك وتعالى يحس هذا الإنسان بروحانية عجيبة، يحس بأنه خرج من سجن كان فيه إلى رحاب واسعة لا يحيط بها إلا الله تبارك وتعالى ، يحس أنه خرج إلى رحاب عالمية واسعة لا يمكن أن يحيط بها فكره ، ولا يمكن أن يحيط بها علمه، إنها المحيط بها هو الله سبحانه ، بل يشعر أنه يعيش في الملا الأعلى .

وعندما يتلو كتاب الله تبارك وتعالى الذي تتجلى فيه آيات الله سبحانه وتعالى الواسعة المتطابقة مع آياته الصامته في مخلوقاته الواسعة التي لا يحيط بها غيره سبحانه وتعالى يحس أيضا بالعجب العجاب، لأنه يحس بأنه يشاهد العالم من خلال ما يقرأه في كتاب الله سبحانه وتعالى من آيات الله تعالى الواسعة التي تحدث عن هذا الوجود، وأنه بأسره خاضع لجلال الله، مستجيب لداعيه، مسبح بحمده، ساجد لكبريائه.

فهذه جملة من الثمرات التي يجنيها المعتكف عندما يقضي تلك الليالي في بيوت الله سبحانه وتعالى حيث القدسية، وحيث الطهارة، وحيث النزاهة، وحيث الإيمان، وحيث الأمان.

ويجانب ذلك أيضا يشعر أنه زالت حواجز بينه وبين ربه، فهو وإن كان في أي حال من الأحوال يمكنه الاتصال بربه سبحانه وتعالى من خلال مناجاته، إلا أن هناك حواجز تقف في سبيله، منها أطعمه الكثيرة، ومنها رغباته في هذه الحياة الدنيا ومتعتها، ومنها صلواته بعباد الله، ولكنه عندما يقطع هذه الصلوات كلها، وينفرد مكانه بربه سبحانه وتعالى مناجياً خاضعاً راعياً ساجداً متضرعاً تالياً لكتاب الله يشعر بتلك الحواجز وقد تحطمت كلها، فيصل بفضل الله تعالى ومشيتته إلى درجة الإحسان، التي أخبر عنها النبي ﷺ بقوله " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " (١)

فإن هذا الشعور إنما يخامر الإنسان في مثل هذه اللحظات الطيبة" (٢)
وقد يرى الأنوار تتجلى أمام ناظره في خلواته، فضلا من الله ونعمة وكرما، وإشعارا له بالقبول وحلول الإجابة، كما روي وقوع ذلك لأحد علمائنا المعاصرين - حفظهم الله.

(١) صحيح البخاري، رقم ٤٤٩٩، وصحيح مسلم، رقم ٨، وسنن الترمذي رقم ٢٦١٠

(٢) سؤال أهل الذكر ١٩ / رمضان ١٤٢٤ هـ ١٤ / ١١ / ٢٠٠٣

فهلم أخي إلى موائد الخلوات، واتخذ لك وردا مهما كان قليلا، وجاهد نفسك، وأبدأ من الآن، وإن كنت من أهلها فحث السير فإن البقاء هنا قليل.

١٢ - محاسبة النفس ومراقبتها :

" كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " (١) هكذا قال عليه أفضل الصلاة والسلام ، فكل الناس يقعون في الأخطاء، أخطاء باطنة، وأخطاء ظاهرة، أخطاء في الفكر والتصورات، وأخطاء في الأقوال والأفعال، وتأتي هذه الأخطاء على قدر المراتب من العلم والإيمان، فالعالمون المخلصون أقل خطأ ممن دونهم، وأقوياء الإيمان أقل أيضا من غيرهم وقوعا في الأخطاء بسبب قوة بصيرتهم التي اكتسبوها من إيمانهم ، وتتنوع الأخطاء في نفسها أيضا بغض النظر عن وقت وقوعها، والمخلص والمنجى من ذلك كله هو التوبة النصوح، ولا بد أن تكون التوبة مسبقة بعمليات نفسية، فهناك أخذ ورد ، وجذب وشد ، وهناك مراقبة وعتاب، ومحاسبة وعقاب، فإن تدارك الله تلك النفس بالعناية تابت ، وإن لفحتها الغواية بقيت على ما كانت عليه والله المستعان .

هكذا تأتي محاسبة النفس على ما أسلفت مهمة للغاية في تربيتها، وتهذيبها وتزكيتها، وحملها على السير على سواء الصراط .

وللعلماء الذين كتبوا في تهذيب الأنفس وتزكيتها طرق جعلوها على مراتب من أجل مجاهدة النفس ، بدؤها بالمشاركة فالمراقبة فالمحاسبة فالمعاقبة. ولكل واحدة من هذه الطرائق أسلوب ما في التعامل مع النفس .

وإن كنت لم أجد فيما اطلعت عليه من كلام سباحته ما يوجه به إلى المشاركة، فإنها حاصلة بقبول الإنسان الدين ، ورضاه به، والتوجه نحو

(١) سنن الترمذي، رقم ٢٤٩٩، وابن ماجه ٤٢٥١، وسنن الدارمي ٢٧٢٧

الاستمساك بهديه، فلا بد أن تتكون لديه العديد من المبادئ الذي تتألف بشكل تكاملي لتشكل منظومته الفكرية، إنَّها مشاركة النفس على أن تسير على ذلك المنهج، ولا تحيد عنه، فالإسلام دستور حياة كامل في جميع نظم الحياة ومجالاتها، وتلك المبادئ هي الإطار الذي يتحرك المسلم ضمن حدوده، وهي الشروط التي تحكم أخذه وعطاءه، وأمره ونهيه، وذهابه وإيابه، وفعله وتركه .

فيكون قد شارطها منذ بداية طريق الحياة، وأعلمها بجميع الشروط، وبقي عليه حال العمل أن يكيف سلوكه وأداءه وفق تلك الشروط التي قد أسميتها الأحكام .

ثم تأتي بعد ذلك المحاسبة، وهي القضية المهمة في التربية الروحية، فإن لم يحاسب الإنسان نفسه لم يدكر ولم يتنبه لكثير مما يأتي من الأخطاء، ولم يزدجر عنها. ولذا نجد سباحته حفظه الله يوصي كثيراً بالمحاسبة الدقيقة حتى على خطرات الأنفس، وكثيراً ما يوجه الأمة والأفراد إلى أهمية المحاسبة للنفس، وأنقل هنا جملة من توجيهاته التي يؤكد بعضها بعضاً، وتحث على الإسراع في محاسبة الأنفس قبل فوات الأوان . يقول سباحته:

- ١- كيف بنا ونحن نغدو ونروح مع المعاصي؟ أليس الأولى بنا أن نحاسب هذه النفوس ونسارع إلى تزكيتها بالتوبة النصوح والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ومحاسبة النفس والإقلاع عن هذه المعاصي والندم عليها؟^١
- ٢- علينا أن نحاسب أنفسنا ما هي حالتنا؟ ما الذي يجب أن نعمله؟ ما هي الأسباب التي يجب أن نأخذ بها سواء الأسباب المعنوية أو الأسباب الحسية؟ لنكون أمة حقيقية بنظر الله سبحانه وتعالى . علينا أن نراجع أنفسنا

في كل دقيقة وجلييلة، وفي كل ما نعمله وفي كل ما نقوله، بل علينا أن نحاسب أنفسنا على خطرات قلوبنا، وعلى ما يتلجلج في أعماق ضمائرنا^(١)

٣. " يخلو المؤمن إلى نفسه ويأخذ في محاسبتها على أفعالها وعرضها على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ للتمييز بين صالحها وسيئها، وجيدها وريئها، مع التعمق في أغوار نفسه ليستجلي إخلاصها في أعمالها الصالحة، مع استشعار وعد الله على الخير، ووعدته على الشر، استشعاراً يجلو له حقائقه الغيبية، كأنها يشاهدها بأب عينيه، فيكون كمن دخل الجنة فأصبر نعيمها الذي أعده الله لأوليائه البررة، ودخل النار فشاهد عذابها ونكالها، وما أعده الله سبحانه لأعدائه الفجرة... لذلك كان الإنسان بحاجة إلى هذه الخلوات مع النفس لمحاسبتها حتى تنقاد دائماً إلى الخير وتسارع إلى الطاعات، وتتجلى عنها أغيان الطبع التي تحول دون إشراق أنوار الإيمان عليها"^(٢)

وبعد محاضرة عن الأحداث الراهنة في العراق ونحوه، وانقلابها إلى غير ما يتصور، قال سماحته بعد ذلك :

" نحتاج إلى دراسة نفوسنا، ودراسة أوضاعنا، ودراسة كل ما يتصل بأحوالنا، سواء فيما كان بيننا وبين ربنا سبحانه وتعالى، أو فيما بيننا وبين أنفسنا، فالقضية تدعو إلى الاعتبار، وتدعو إلى اتخاذ مواقف، منها : محاسبة النفس على كل ما قدمت وكل ما أخرت، على أننا واثقون أن العاقبة للتقوى وللمتقين"^(٣)

ويقول في إحدى خطبه :

" ولئن كانت السنون التي تمر بالإنسان هي موجات هذه الحياة التي تدفع بالإنسان إلى الفناء الذي تعقبه تلك الحياة، فإنه ليجدر بهذا الإنسان

(١) إن في ذلك لعبرة، الشيخ الخليل، محاضرة

(٢) برهان الحق، الشيخ الخليل، مخطوط، ١/ ١٢١

(٣) إن في ذلك لعبرة، الشيخ الخليل، محاضرة

وهو يمر بهذه الأعوام، أن يقف عند كل عام ليعتبر وليحاسب نفسه ماذا قدم؟ وماذا أحر؟ ماذا قدم من خير؟ وماذا عمل من صالح؟ وماذا عمل من صالح لأتمته التي يتنسب إليها؟ فإنه عضو من أعضائها^(١)

ويرى سماحته أن المحاسبة الفردية تسير في اتجاهين :

الأول : محاسبة النفس على بواطنها :

يقول سماحته: " يجب على الإنسان قبل كل شيء أن يحاسب نفسه حساباً دقيقاً، فيحاسب نفسه على ما تبطن، بحيث يكون ما تبطنه النفس منطبقاً تماماً الانطباق مع ما أمر الله عز وجل، فإن الله عز وجل قد حذر عن أشياء كثيرة مما تخفيه النفس بين حناياها، فقد حذر الله عز وجل من سوء الظن^(٢)

ويمثل سماحته لتلك الأمور الباطنة مع سوء الظن الرياء والكبر، والحسد^(٣)

الثاني : محاسبة النفس على ظواهرها

يقول سماحته : وأما محاسبة النفس في العلانية فإطارها واسع جداً، ذلك لأن هذه المحاسبة تسقط الكثير والقليل ، والدقيق والجليل ، سواء مما يقوله الإنسان أو مما يعمل ، وسواء مما يطعمه أو يشربه ، أو يلبسه أو مما يلبسه بأبي وجه من الوجوه^(٤)

فإذا دامت المحاسبة على هذه الوتيرة مستمرة فإنها بلا ريب تجعل حياة الإنسان تسير في طريق السعادة ، وتكون كل لحظة تأتي هي خيراً مما قبلها، فيستعد بذلك للقاء ربه سبحانه .

(١) وحي المنابر، الشيخ الخليلي، ١٠/١

(٢) وحي المنابر، الشيخ الخليلي، ١٧/١

(٣) وحي المنابر، الشيخ الخليلي، ٢٢/١

(٤) وحي المنابر، الشيخ الخليلي، ١٨/١

يقول سباحته: " ما دامت اللحظات تقرب الإنسان إلى لقاء الله، فعليه أن يكون في كل لحظة من هذه اللحظات أكثر محاسبة للنفس، وأكثر صلة بالله، وأقرب إلى الله سبحانه وتعالى بتصفية سريرته وإخلاص عمله وتقويم سيرته"^(١).

المراقبة :

كما أن المحاسبة ضرورية ومهمة، فلا بد أن تكون بجانبها مراقبة للنفس، كيف تستجيب لدوافعها ونزعاتها؟ وبأي طريقة تلبى غرائزها؟ فتكون هناك مراقبة لجميع أفعالها. والمراقبة والمحاسبة تتداولان تسبق كل منهما الأخرى وتعقبها.

يقول سباحته: " على الإنسان أن يتفقد نفسه، وعليه أن يراقبها مراقبة دقيقة، فإن النفس تؤثر عليها مؤثرات متعددة، يؤثر عليها هواها وشهواتها، ويؤثر عليها الشيطان بتزيينه هذه الشهوات، وتؤثر عليها الدنيا عندما يركن الإنسان إليها، فيطلب من الإنسان ألا يهملها، فالنفس هي مطيته إلى الدار الآخرة، فإن أهملها والعياذ بالله كان الغاية غاية سيئة، وإن رعاها وتعهدتها وحرص على إصلاحها كانت الغاية غاية حميدة"^(٢)

ويقول سباحته، بعد أن تحدث عن عناصر الاستقامة في الدين :

فلاستقامة عندما يجعلها الإنسان نصب عينيه تجعله يراقب نفسه مراقبة تامة، يحاسب نفسه حتى على خطرات قلبه، وهو اجس نفسه، فلا يسمح لنفسه أن تفكر إلا في حدود ما أذن به الله"^(٣)

(١) الإيمان باليوم الآخر، الشيخ الخليلي، ٣٢ / ١ / ج

(٢) شريط الفتور، الشيخ الخليلي، ١ / ٤٣٣

(٣) الخطوات العملية، الشيخ الخليلي، ٣٩٢ / ١

فإذا كانت المراقبة دقيقة وقع الإنسان على مواضع المخالفة لمنهج الله، فحاسب نفسه وحملها على العودة إلى النهج السوي، وألزمها بالثبات عليه .

المجاهدة ووسائلها

يقول المولى جلت قدرته : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(١)

جهاد بالمال وجهاد بالنفس في سبل شتى، وجهاد النفس أعظم وأشق بسبب الصراع العنيف بين العقل والهوى ، الذي لا تهدأ عواصف تياره إلا ببذل الكثير من التضحيات " فمع الجهاد والبذل كل شيء يهون بإذن الله " ^(٢)

وجهاد النفس جهاد مستمر لا يفتر حتى يوارى الإنسان التراب ، فهي لا تلبث إن هدأت حتى تثور، إلا من أجمها بلجام التقوى باستمرار، وقيدها بقيد الخشية من الله تعالى، فهي تتململ في قيدها لا تقوى على النهوض .

ويرى سماحته أن مجاهدة النفس تتم بثلاثة أمور هي :

١- التصور الصحيح للحياة الدنيا ، فالمؤمن ينظر إلى الدنيا نظرة قرآنية، والقرآن كشف هذه الحياة وطبيعتها كشفا جليا للناس ووصفها كما هي عليه ، فالله تعالى ضرب فيها الكثير من الأمثال، فقد قال عز من قائل : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَنْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٣)

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩

(٢) نحو تربية أفضل، الشيخ الخليلي ، ٣٧٦ / ١

(٣) الخطوات العملية للشخصية، الشيخ الخليلي ، ٣٩٢ / ١

٢- التعلق بالدار الآخرة ، ودعوة القرآن إلى ذلك. فبذلك يقوى على مقاومة طبيعة نفسه التي هي ميالة إلى زخرف الحياة الدنيا^(١)

٣- إدمان ذكر الله تعالى واستغلال مواسم الخير، ونفحات الإيمان ، لترسيخ الإيمان في النفس ، فقد يأتيها النشاط إلى الخير فيستغله، وإن نشطت للشرك كبح جماحها .

يقول سباحته : " للنفس مواسم، والإنسان عليه أن يستغل الفرص ، ثم إن النفس أيضا لها فلتات، وعلى الإنسان أن يحرص على ضبطها، لئلا تنفلت. وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فمجاهدة النفس لا بد منها. وعلى الإنسان أن يدمن ذكر الله تعالى، وبهذا يرسخ الإيمان في نفسه"^(٢)

١٣- التصور الصحيح للحياة الدنيا :

الدنيا مزرعة الآخرة ، كل ما فيها إلى ذهاب ، بهارج وزخارف ، لا تسمن ولا تغني من جوع لمن لم يخلص وجهته لله. حسناء وجناء فرعاء، تحسبها دانية ومزارها قريب ودونها خراط القتاد، وما تناله من الحياة تبصر حقيقته على فراش الموت ، حين يتمنى أعظم الملوك في الدنيا أن يكون روبيعي غنم في شعب الجبال .

الدنيا .. الدنيا كاسمها، دنو وانخفاض عن المراتب العليا، تلك التي تكون في الدار الآخرة .. يقول سباحته : " وقد ضرب الله الأمثال الكثيرة التي تبين حقارة هذه الدنيا وهوانها ، فإن الله تعالى سهاها متاع الغرور، ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ

(١) السابق،

(٢) تصحيح مفاهيم خاطئة، الشيخ الخليلي، ١/١١٨

الْأَرْضُ زُخْرُفُهَا وَأَزْيَنْتَ وَطَرَبٌ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُورٌ عَلَيْهِمَ أَنَّهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ ﴿١﴾ فعلى الإنسان أن يجعلها وسيلة إلى الدار الآخرة لا غير ، إما إن جعلها غاية فإنه يكون قد أعطاهما فوق حقها، ويكون قد غمط الآخرة حقها، على أن الدنيا لا تسوى شيئاً بجانب الآخرة، فإن الآخرة لو كانت تراباً وكانت الدنيا ذهباً لكانت الآخرة أحرى بأن يحرص عليها من أجل بقائها وخلودها، فكيف والآخرة أغلى من الذهب، والدنيا أرخص من التراب" (١)

ويوجه وصيته ونصحه للشباب المقبلين على الحياة الدنيا، ألا ينخدعوا بها، بل عليهم أن يصموا آذانهم عن نداءها، ويغلقوا أبصارهم عن بهارجها، يقول: "على الشباب أن يكونوا على صلة بالله بحيث تكون عقيدتهم راسخة ، وتكون أعمالهم صالحة ، ويكون طموحهم في ما عند الله سبحانه وتعالى مما أعده لأوليائه في الدار الآخرة، مع عزوفهم عن الدنيا، وزهدهم فيها، وعدم فتح نظرهم إليها، هذا المسلك هو الذي نرجو بمشيئة الله أن ينهض بهذه الأمة وأن يجررها من ربة الذل الذي أصبحت أسيرة له بسبب ما كسبت أيديها، حتى طمع فيها أعداؤها" (٢).

وما أزد حديث سماحة الشيخ عن حقيقة الدنيا ، وما أبرد وقعه على القلوب ، يزيكه الإخلاص، ويصدقه واقع الشيخ، ويذكيه قوة الخطاب ويعمق وقعه حسن البيان، موشحاً ببلاغة الشعر ورسائنه، لذا سأزبن مساحه هذه الصفحات بدراري نثره البديع يقول سماحته: " يقول الشاعر :

إذا ما تقاضي المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

الناس في هذه الحياة مثلهم كركاب قاطرة تسير بهم سيراً حفيفاً، لا تقف في ليل ولا نهار، ولا في يقظة ولا في نوم، ولا في غفلة ولا في صحة، ولا في

مرض ولا في نعيم، ولا في فرح ولا في حزن . وإنما تسير هذه القاطرة سيرا حثيثاً، وعندما يصل أي أحد إلى النقطة التي كتب له ألا يتجاوزها يجر من هذه القاطرة بدون توقف، هكذا شأن هذه الحياة، وهذه الأنفاس التي يتنفسها الإنسان هي خطواته إلى هذا المصير، فكل نفس يتنفسه الإنسان يدنو به إلى هذا المصير ، وكل نفس يتنفسه الإنسان لا يمكن أن يعود أبداً، فهذه الأنفاس مثلها كمثل السقاء الذي حل وكاؤه، وتتقاطر قطراته باستمرار حتى تنتهي هذه القطرات، أو مثل عقد حل نظامه فتساقط أيضاً خرزاته باستمرار حتى تنتهي .

وقد صور الشعراء البلغاء حقيقة هذه الحياة بما أوتوا من موهبة شاعرية تصويراً دقيقاً، نسمع مثلاً التهامي الذي رزى في ابنه، وقد كان طفلاً صغيراً، فاندفع في رثاء هذا الابن بقصائد متعددة، من بين هذه القصائد تلك القصيدة التي كان المعري يعجب بها إعجاباً بالغاً، حتى أنه كان لا يفد إليه وافد إلا ويسأله قبل كل شيء: أنتشد رثاء أبي الحسن التهامي لابنه؟ فإذا قال له: نعم، يقول له: أنشدني ، حتى جاءه التهامي نفسه فسأله هذا السؤال، فقال له: نعم ، فقال له أنشدني هذه القصيدة، وعندما أنشده إياها قال له: أحسنت وأنت صاحبها ، فقال له بم عرفتنى؟ قال له : عندما كنت تنشد أبياتاً كنت أحس أن هذه الأبيات تخرج من كبد حرى، فشعرت من ذلك أنك المصاب الذي فاضت عواطفه بهذا الشعر ، ففي مقدمة هذه القصيدة يقول :

حكم المنية في البرية جار	ما هذه الدنيا بدار قرار
بيننا يرى الإنسان فيها مخبرا	حتى يرى خبرا من الأخبار
جبلت على كدر وأنت تريدها	صفوا من الأقدار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها	متطلب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما	تبنى الرجاء على شفير هار

فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سار

هذه هي حقيقة الإنسان ، عيشه نوم، ومنيته يقظة، وفي هذا خبر عن النبي ﷺ " الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا " وقد صاغ على هذا الموال الشاعر الكبير العلامة أبو مسلم قصيدته في رثاء الشيخ السالمي، وقد جاءت هذه القصيدة حافلة بالمواعظ البالغة وبتصوير هذه الحياة الدنيا على طبيعتها وفي مقدمة هذه القصيدة يقول :

ريب المنون مقارض الأعمار	وحياتنا تعود إلى المضمار
والنفس تلهو فوق تيار الردى	ياليتها حذرت من التيار
قرت على رنق وزخرف باطل	مثل القرار على شفير هار
ماذا يغر المرء من محياه في	دنياه وهي قرارة الأكدار
يتساقط المغرور في لهواتها	تفريه بالأنياب والأظفار
شر الغرور سكون ذي بصر إلى	عيش تمزقه يد الأخطار
عبر تلونها الصروف وأنفس	تفنى وآثار على آثار
هل زاد عيشك ذرة عن هذه	لو كنت في الدنيا على استبصار
هلا اعتبرت وفي حياتك عبرة	مما تصرفه يد المقدار
لا تستمر لك السلامة لمحة	وغوائل الأيام في استمرار
ما بالنا نبكي الفقيد ونحن من	حب الذي أراده في استهتار
شغف النفوس بما يراقبه الفنئ	أثر الهوى ومحبة الأوطار
جسر المنون أمام وجهك عابر	ولسوف تعبره مع السفار
شمّر لتعبره مخفا سالما	من ثقل ما أوقرت من أوزار
ليس العظاات بما يقول مذكر	مثل العظاات بمصرع الأعمار
كم للمنون لو اعتبرنا من يد	في سلبها الأرواح بالتذكار
ما الحزن ألفتنا لمقصود الردى	يتتاب في الإيراد والإصدار

أترى يجد البين فينا هازلا
مزمومة نير القضاء يقودها
كتب البقاء لنفسه مستأثرا
وإذا اعتبرت حياتك الدنيا تجد
ما بين معركة وأخرى يبتغي
لو كان يشترك البقاء لغادرت
وفي إحدى قصيدتيه اللتين رثى بهما قطب الأئمة - رحمه الله - يستهلها بقوله:

تكب على دنياك وهي تبيد
حريصا عليها جامعا لحطامها
تساور ملحاحا لتحصيل فائت
نكالب فيها أهلها وتذودهم
على لحظات ينقص العمر مرها
ولو أملا أدركته لم تجد له
وتبني بناء طينه نقض دارس

و تفتقد النائي وأنت فقيد
وغاية ما نافست فيه نفود
نعم كل ما يرجى الحصاد حصيد
وعمرك لو كنت اعتبرت تذود
تؤكد آمال البقا وتزيد
وفاء ولم تصحبك منه عهود
سيدر س يوما والغرور جديد

هكذا شأن هذه الحياة الدنيا، كما يصفها هؤلاء الشعراء الموهوبون .

وفي قصيدة رثى فيها العلامة أبو مسلم أيضا أحد أصدقائه يقول :

تهد العمر رائحة المنون
أهواً بالغرور ولا نبالي
ألا جزع بقاصفة وأخرى
ودركاً والمهالك طافحات
على أن الحياة لها حدود
ليس على الغباوة ذو هناء

وحد الحي إتيان اليقين
و نؤخذ بالشمال وباليمين
تليها للمباين والقرين
إلى تغرير كاذبة خؤون
سنقطعها على رغم الركون
وظفر الحتف يسري في الوتين

بأن مسيرنا نحو الكمين
ولكن بطشه رأى العيون
ويجلي الوهم بالحق المبين
من الآجال منقطع الظنون
حواصلها تزف إلى الدفون
ألا عجبا من الخمص البطين
طلاقك لا أليك ولا تليني
دعيني عنك يا دنيا دعيني
وإنك لا محالة تحدعيني
كذاك السيف براق المتون
فبيني أيها الشوهاء بيني
فإني آخذ ذات اليمين
سوى ما كان منك لأمر ديني

يمر القارضان ونحن ندرى
ولو أن الكمين على خفاء
يثبتنا من الآمال وهم
ودون مدارك الآمال رصد
تمر بنا جنائزنا بطانا
وتغدو في مراعيها خصا
وطلق هذه الدنيا بتاتاً
عرفتك حية لنا وسوءاً
خدعت بنيك ثم فتكت فيهم
يروعني ابتسامك فوق مكر
أبنت محاسناً زانت فشاها
هبلتك يا غدور خذي طريقاً
تركتك مزجر الكلب المضرى

إلى أن يصل إلى قوله

رحاك المستديرة في القرون
جهينة خبرينا باليقين
طحينا يا مبددة الطحين
وكفي عن خداع المستبين
ونحن وأنت في حرب زبون
لأن القصد حلقوم الدهين
تراموا في القبور وخلفوني
وهيهات السبيل إلى السكون

وحسبك يا فجار من المساوي
أرني أيهم فلديك خبر
دع التديس إن القوم صاروا
فغري يا خبات بني العمايا
أسلمك ابتغي والفتك جار
دهانك ما تشعث ليس يجدي
أبعد الصيد من سروات قومي
ألد معيشة وسكون قلب

أبعد الطيبين يطيب أنس وطيب القوم في خلق ودين
أبعد تهدم الأكناف منهم تظل الناس قاطنة بدين

فالحياة الدنيا تسير بالناس سيراً حثيثاً لا تتوقف في أي لحظة من اللحظات، تمر بهذا الإنسان وهو لا يشعر، ولقد سمعت أحد مشايخنا يلقي خطبة عيد وكان فيها قاله في هذه الخطبة من الكلمات الوعظية البليغة :

"فوا عجباً من واقف وهو في حال وقوفه يرحل ، ووا أسفاً على راكب لا يعرف إلى أي الدارين يحمل " وقال أيضاً في خطبة أخرى : فوا عجباً من واقف وهو في حال وقوفه راحل ، ونائم وهو في حال نومه يقطع المراحل " .

هكذا شأن الإنسان لا يتوقف سيره، والناس في هذه الحياة الدنيا وإن اختلفت أحوالهم وتفاوتوا بين نعيم وبؤس، وغنى وفقر، ويسر وعسر، وفرح وحزن ،.... الخ، ولكن مع ذلك فإن الناس جميعاً مثلهم في هذه الحياة الدنيا كمثل السجناء الذين يعيشون بين أسوار السجن، وقد حكم عليهم جميعاً بالإعدام، ولكن لا يعلم أحد اللحظة التي ينفذ فيها الحكم، إذ لا يدري أحد ما يحدث له"^(١)

هذه هي الدنيا التي صورها لنا سباحته ببلاغته الباهرة ، فإن فتن بها أحد بعد معرفتها إنه لغرور حقا، ومن انخدع بزخرفها إنه لمخدوع صدقا .
﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ﴿ وَلَيَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾

يهواها القلب ولكن يحذرها المرء العاقل

(١) الإيمان باليوم الآخر، الشيخ الخليلي ، ٣٢ / ١ / ج

(٢) سورة الأعل، الآية ١٧

(٣) سورة النحل، الآية ٣٠

ومما يكبح جهاج النفس عن جريانها وراء زخارف الحياة الدنيا ،
وانخداعها ببهرجها ، أمور شتى ، منها :

تذكر الموت وغصته :

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾^(١)

ويقول عز من قائل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ
أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾^(٢) ويقول تعالى ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمْ
الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾^(٣) ويقول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن
قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّنْ فَعْمٍ الْخُلْدُونَ ﴾^(٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلَّوْكُمْ
بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾^(٥)

هذه هي نهاية كل حي ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، فهو
الحي الذي لا يموت سبحانه ، وكل شي هالك إلا وجهه ، ولا يملك أحد
مهما كانت قوته ، وخدمه وحشمه ، وجنوده وعتاده ، أن يؤخر الموت ثانية
واحدة عن موعده ، هكذا طريق الأحياء جميعا .

فللموت تغذو الوالادات سخاها كما لخراب الدور تُبني المساكن

(١) سورة ق ، الآية ١٩

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٨٥

(٣) سورة النساء ، الآية ٧٨

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٣٥ ، ٣٤

أين فرعون وهامان، وأين قارون ونمرود، أين الأكاسرة والقيصرة، أين الأباطرة، لقد ذهبوا كأمس الدابر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ .

ويقول أبو مسلم الرواحي:

ولا المقابر من مستودع فيها
ولا تفكر فيمن كان يؤيها
والدور فارغة والدهر يبلها
أظنهم في طباق الأرض تطويها
أين القرون لمن تبقي مغانيها
أين الأحبة نبكيها ونرثيها
أو من ينازعها أو من يداويها
بهم بنات الليالي في تقاضيتها
ريب المنون جرت فينا عواديا

لم تهدأ الدور من نوح وصارخة
نمر بالطرق والأيتام تملؤها
ونرسل الطرف والأبواب مغلقة
أين الذين غنوا فيها مقرهم
أين الذين عهدنا أين مكثهم
أين الحميم الذي كنا نخالطه
أين الملوك ومن كانت تطوف بها
أين الأبعاد أين الجار ما فعلت
لو أمكن القوم نطق كان نطقهم

ويقول أيضا:

ويسبقه ركب وفي الأرض أقحموا
وعما قليل يقعص المتنعم
وفي كل قلب للمنية مبسم
ندسهم في الأرض لا تتخرم

يمر بنا ركب ويتلوه غيره
تنعم في ميراثهم غير كاسب
أينسى بنو الدنيا مصارع أهلها
بنون وآباء للندى أعزة

ويقول:

وما حدث تبقي عليه وقشعم

تمزقنا الغارات من أم قشعم

متى تفرغ الأذان من صوت نائح
وينشف دمع من سوافح دمعه
متى تحسر الأكتاف من نعش هالك
قوافل تمتاز النفوس إلى الفلا
أروني خيام الحي من حيث طنبت
ولسنا تأخرنا معافين بعدهم
وقعقة تحت التراقي تمهم
ويبرد قلب بالأسى يتضرم
رواحل من أنقالها ليس ترزم
ألا هذه الأبشار للأرض مطعم
أليس ضمير الأرض ذاك المخيم
ولكنه عمر مداه يتمم

أنه الرحيل الحتمي ومفارقة الأهلين والأولاد، والإخلاء والأحباب
حيث لا عودة ولا لقيا أبداً، إلا في يوم يفر منه المرء من أخيه، وأمه وأبيه،
وصاحبته وبنيه، فأى لقيا هذه إلا أن كتب الله لهم الكرامة، فليكن على أهبة
الاستعداد، بهذه الذكرى ينتصر المرء على هواه، ونزغات الشيطان، يقول
ساحته :

"وعندما يستذكر الإنسان أن يوم القيامة بين يديه ولا يدري متى يفجؤه
الموت، ولا يدري إلى أين مصيره؟ هو راكب على راحلة وليس قيادها بيده،
إنما قيادها بيد غيره، فلا يدري بها إلى أين ترحل؟ هل ترحل إلى جنة عالية؟
أو ترحل والعياذ بالله به إلى نار حامية؟ لا بد من أن يقوى على كبح هذه
النفس الأمارة بالسوء، وزم هواها، وضبط غرائزها، والتصرف في طاقاتها؛
لتكون عاملة في مجال البناء والتعمير، بدلاً من أن تكون وسيلة للهدم
والتدمير، والعياذ بالله"

وليت كل إنسان تخرج روحه بسهولة ويسر ولكن للموت سكرات
وغمرات لم يسلم منها المصطفون الأخيار يقول سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ
الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾^(١) ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ
الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أُخْرِجُوا

(١) سؤال أهل الذكر ٣/ شعبان ١٤٢٤هـ - ٢٦/ ١٠/ ٢٠٠٣

(٢) سورة ق، الآية ١٩

أَنْفَسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١﴾ حتى ليقال أن سكرة واحدة من سكرات الموت أشد من سبعين ضربه بالسيف، ولا يعلم قدر ذلك الألم الشديد إلا من ذاقه حقاً ولذا تجد الناس حين يعبرون عن المواقف الشديدة المؤلمة التي تمر بهم يقول أحدهم (لقد ذقت الموت) كناية عن شدة ما لاقى .

وقد روى عنه ﷺ عندما كان على فراش الموت أنه كان يغمس يده في ركوة ماء ويمسح بها جبينه ويقول: " إنَّ للموت سكرات " وكان يغط ثم يفيق من هول ما يلقى من سكراته، فكيف بمن هم دونه ؟ إذا كان هذا حال خير الخلق، وحبیب الحق، فكيف بسائر الناس ؟ كيف بمن يتقلب في المعاصي ليل نهار؟! .

أتستمع بلذة ؟ أيها لك العيش ؟ أيقرك قرار ؟ أيهدأ لك بال ؟

كأنك في مآمن تام عن مباغته الموت ؟ والله تعالى يقول : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾

ويقول : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

فإذا نزل ملك الموت لقبض روحك فانه لا يرجع إلا بها ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ينزل ملك الموت وأعوانه من الملائكة، كما يقول سبحانه وتعالى :

(١) سورة الأنعام، الآية ٣

(٢) سورة الأنعام، الآية ٤٤

(٣) سورة الزخرف، الآية ٦٦

(٤) سورة نوح، الآية ٤٤

﴿قُلْ يَتَوَفَّنُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(١)
فان كنت صالحاً وجدت خفة في النزاع وسلب الروح، لا كالذي يجده الكافر
والعاصي يقول سماحته:

"على الذي قسا قلبه أن يذكر لقاء ربه في ليله ونهاره. أن يذكر الموت
وغصته، والقبر ووحشته، والحشر وهوله، والموقف العظيم بين يدي الله
سبحانه وتعالى، والحساب، فإن ذلك كله مما يرقق القلب. ومن علاج
القسوة زيارة القبور والنظر إلى المساكين، وإلى المحتاجين، ومحاولة أن يحسس
نفسه بأحاسيسهم، وأن يشعرها بما يشعرون به من الآلام .

لنفي أبكي لست أبكي لغيرها لنفسي من نفسي عن الناس شاغل^(٢)
تذكر وحشة القبر :

إنَّ الإنسان بعد أن يحل الموت بساحته، وتقبض الملائكة الكرام روحه،
يكون بذلك قد قامت قيامته وانتقل إلى دار أخرى وإلى حياة أخرى. لقد
رحل مفارقاً أهله وأحبابه، وذويه وأصحابه، ليسكن داراً موحشة، وحيداً
فريداً، لا أنيس له من أهله إلا عمله الذي قدمه. لقد حملوه على أكتافهم بعد
تغسيله وتكفينه؛ ليودعوه في حفرة عميقة بعض الشيء حتى لا تؤذيهم ريح
جيفته التنتنة، وأهالوا عليه التراب، وألقوا عليه نظرة الوداع. نعم لقد تركوه
وذهبوا عنه لقد تركوه هناك في مدينة الأموات في قبر موحش مظلم، ولم
تلبث أن أنستهم الأيام ذكره .

فهلأ أدكرت أيها الحي ؟ لا بد من الذكرى أيها الناس، أيها الأكياس قبل
ألا تنفع الذكرى ؟ يقول سماحته: " على الإنسان أن يكثر من ذكر الموت
وغصته، والقبر ووحشته، والحساب وهوله"^(٣)

(١) سورة السجدة، الآية ١١

(٢) الدين الخلق



صورة مقبرة وهي مسكن الإنسان الطويل قبل بعثه للحساب

وعليه أن يزور القبور ولا يهجرها فيقسو قلبه، لأنَّ زيارة القبور ترقق القلوب، وتذكر الإنسان بالدار الآخرة وبمسكنه الذي سيمكث فيه طويلاً. يقول سباحته:

" زيارة القبور إنما هي للعبرة والعظة، وشدد النبي ﷺ أول الأمر في زيارة القبور مطلقاً، بحيث منعها لأجل قرب الناس بعهد الجاهلية، ثم لما استقرت العقيدة، وقوي الإيمان، وكان الناس موصولين بالله تبارك وتعالى أباح لهم زيارتها، وقال: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها ولا تقولوا هجرًا"^(١) ولكن مع ذلك يجب أن يتجنبوا كل ما فيه حرمة، ومن ذلك ألا تتخذ زيارة القبور وسلية لأمر محرم، كدعاء الميت واستغاثته، والتضرع إليه. فإنَّ الله تبارك وتعالى هو وحده قاضي الحاجات"^(٢)

(١) سؤال أهل الذكر ٢٧/رمضان ١٤٢٣هـ/٣/١٢/٢٠٠٢م

(٢) سنن النسائي رقم ٢٠٣٣

(٣) سؤال أهل الذكر ٢٦/رمضان ١٤٢٤هـ-٢١/١١/٢٠٠٣م

ولا تنصح النساء بزيارة القبور، بسبب هيجان عواطفهن، وقد تأتي بالأمر الذي لا يحمد، كالعويل وغيره، وقد تنوح وهي في وسط المقبرة، لذلك منعت من زيارة القبور؛ لئلا يكون ذلك مهيجاً لعاطفتها^(١)

وينبغي على الرجال تعويضهن هذه الفرصة، بنقل الصورة إليهن عبر التذكير والموعظة الحسنة، وشرح ما يكون عليه سكان القبور من الظلمة والوحدة، ويذكرها بما ورد في السنة الشريفة من الأحاديث في عذاب القبر، وسبل الخلاص منه، وهو في حقيقة الأمر يذكر نفسه أيضاً ويعظها بذلك، ويقوي إيمانه، ويشد من عزمته في تحطّي خنادق الهوى، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة تبين حال الإنسان في مرحلة البرزخ، يقول سبحانه:

"إن الإنسان قد يجد في هذه المرحلة نوعان من الجزاء على ما قدمه في هذه الدنيا، خيراً كان أم شراً، وقد جاءت أحاديث الرسول ﷺ تخبر خبراً صريحاً عن عذاب القبر والعياذ بالله، وجاءت هذه الأحاديث تبين للناس أن هذا العذاب يتنوع، فقد يكون هذا العذاب نهشاً من الهوام، وقد يكون هذا العذاب - والعياذ بالله - بضغط الأرض عليه، وجاء في أحاديث رسول الله ﷺ أن العبد يفتن في قبره، وأنه يتعرض لمسائلة ومناقشة واختبار، فيسال عن عقيدته في الله وفي الدين، وفي الكتاب وفي الرسول، ويقول كثير من المفسرين: إن الإشارة إلى ذلك في قول الله سبحانه وتعالى:

﴿يُنْتَبِهُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٢) وقد جاءت رواية مرفوعة إلى النبي ﷺ جاءت عن طريق البراء بن عازب - رضي الله عنه - عن الشيخين وأصحاب السنن، وفحوى هذه الرواية أن الميت يأتيه ملكان، وقد جاءت روايات متعددة في وصف هاذين الملكين، ومن جملة ما جاء في

(١) سؤال الذكر ٢٦ / رمضان ١٤٢٤هـ - ٢١ / ١١ / ٢٠٠٣م

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٢٧

وصفها في بعض الروايات أن عيني كل واحد منها تبرق بريقا، وفي يد كل واحد منها مطرقة من حديد، فيسألان الميت عن ربه، فإن كان من الموقنين يثبته الله بالقول الثابت، فيقول ربي الله، ويسألانه عن دينه، فيقول ديني الإسلام، ويسألانه عن رسوله، فيقول: محمد ﷺ فيوسع له في قبره، ويفتح له باب إلى النار - والعياذ بالله - ويقال له هذه النار التي أنقذك الله منها، وباعدك عنها، لو لم تعمل صالحا لانقلبت إليها، ويفتح له باب إلى الجنة، ويقال له هذه الجنة التي تنتظرك، وسوف تعود إليها، ويأتيه من طيب روائح الجنة وهو في قبره و مضجعه، ويقال له: نم نومة العروس؛ فيكون مضجعه ذلك نوما . أما إذا كان بعكس ذلك، فإنه يحير في الجواب ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وبعد هذا يطرقه الملكان بتلك المطرقة . وجاء في بعض الروايات أن الله سبحانه وتعالى يسمع الكائنات الحية ما عدا الثقلين هذه الطرقة، كما يسمعونهم أنين هذا الميت منها والعياذ بالله من ذلك، وأن الأرض بعد ذلك تضغط عليه حتى تختلف أضلاعه - معاذ الله من ذلك - وقد جاء في رواية عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها : " أن الميت ليفتن في قبره فقالت يا رسول الله كيف حالي وأنا امرأة ضعيفة ، فتلا عليها النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ ."

والأحاديث التي وردت أيضا في بيان الهوام التي تأتي الإنسان ، أحاديث متعددة منها حديث " أن الله يسلط على الكافر أو الفاجر في القبر تسعة وتسعين تنبأ لو أن واحداً منها نفخ على الأرض ما أُنبتت خضراء " وهذه الروايات قال كثير من علماء الحديث بأنها بلغت مبلغ التواتر المعنوي على خلاف في إثبات ذلك وفي كفيته ، والله على كل شيء قدير .

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٢٧

(٢) روي الحديث بألفاظ مختلفة ، انظر سنن الترمذي ١٠٧١ ، ومصنف عبد الرزاق ٦٧٣٨ ، ٦٧٦٠ ،

والمعجم الأوسط ٤٦٢٩

وإذا استدللنا مما شوهد وسمع، فإن القرائن متوفرة على إن الميت قد يعذب تعذيباً يحس به كما يحس به وهو في حالة الحياة، وقد يصدر منه أنين . ذلك لأنَّ أصواتاً يسمعها بعض الناس تنبعث من القبور والعياذ بالله، فقد أخبرني من سمع بنفسه، وكان بصحبة رفيق له أنينا ينبعث من قبر كأنها نفضت الأيدي ترابه من جديد فقال لصاحبه ما الذي تحسُّه؟ قال له: أسمع أنيناً، فقال : وأنا أسمع كذلك، فكانا عندما يقتربان من القبر يختفي هذا الأنين، وعندما يتعدان عنه يسمعان هذا الأنين، فسألنا بعد ذلك أهل الحارة التي يدفن أهلها موتاهم في تلك المقبرة عمن دفن أخيراً؛ فاخبروهم عن شخص وهو رجل لم يكن مرضياً في حياته، كما إن بعض الناس أخبروا أيضاً عن بعض الظالمين المشهورين بالظلم أنهم عندما حفر له في قبره كان التراب كالجمر، تنبعث الحرارة من التراب كما تنبعث من الجمر، حتى جاءوا إلى أحد العلماء فشكوا إليه الحال؛ فتلا آيات من كتاب الله على سعف النخل، وأمرهم بأن يضرّبوا الأرض بتلك السعف وهم يحفرون، فخفف ذلك عنهم.

فهذه الأحوال التي يحدث بها كثير من الناس هي شاهدة على عذاب القبر، ودليل عليه، والأحاديث الثابتة الصحيحة عن الرسول ﷺ وإن كانت لم تبلغ مبلغ التواتر اللفظي هي أقوى الأدلة التي تدل على ذلك^(١)

اللهم نسألك السلامة والعافية، وأن تعيذنا من عذاب القبر، برحمتك يا أرحم الراحمين.

ويشير سياحته إلى الأثر الروحي والتربوي الذي يتركه الإيمان بما يلاقه الإنسان في قبره ، في تلك المرحلة التي قد تطول أضعاف أضعاف العمر الذي قضاه في الحياة الدنيا، يقول سياحته : " وفي إيماننا الجازم بأن الميت ينتقل بعدما يعيش في هذه الدنيا في النعيم إلى القبر، وما فيه من الهول، وما

(١) الحياة البرزخية، الشيخ الخليلي، ٢٤/١ ج

فيه من الوحدة، وما فيه من الوحشة، وما فيه من الخطورة، موعظة وذكرى لأولي الألباب . فعلى العبد أن يستعد لذلك اليوم الذي ينفرد فيه بقبره ، ويخلو فيه بعمله، سواء كان مؤنسا أو كان موحشا، وقد أجاد ابن النظر حيث يقول :

أتأمل بعد شيب الرأس عمرا	ومن آخيتهم قد مات طرا
تظنك خالدا تحصي الليالي	ومرَّ شهورها شهرا فشهرها
فسوف يسوق أشهرهن يوم	يسوق إليك مجزرة ونحرا
فما زخرفت للعالم فدعه	وزخرف للبلبي كفنا وقبرا

وأولى للمرء أن يشيد قبره بالعمل الصالح من أن يشيد مسكن الحياة الدنيا، الذي سيرحل عنه عاجلا، فإن مسكن الدنيا لا يعلم متى ينقل عنه، وربما لا يلبث فيه إلا قليلا، وربما يحرمه فيموت قبل أن يتبوأه . بينما البرزخ لا بد أن يجتازه فيبقى فيه مرحلة طويلة أضعاف أضعاف ما بقي في هذه الحياة الدنيا . وما بعد الموت مستعجب، ولا بعد القبر دار، إلا الجنة أو النار - والعياذ بالله من النار - نسأل الله مغفرته ورضوانه .

١٤ - التناصح والتواصي بالحق:

ويشمل الجانبين: بذل النصح، وقبوله، ويدخل فيه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يعني ذلك أن يتوجه النصح إلى الجانب السلوكي بحيث يتناول توجيه السلوك الفعلي الوجهة الصحيحة، أي جانب التعامل مع الآخرين، بل يتناول الحث على فعل الخير، وتصحيح النيات، و تصفية الضمائر من الأكدار، فقد يكون الإنسان ممن وفقه الله تعالى لفعل الصالحات ولكنه مع ذلك يقع في أمور مهلكة، أو أمور تقدح في صلاحه على الأقل، أو تعيق سيره نحو بلوغ الأوج الشامخ من الفضل، والاستقامة، والصلاح، والتقوى، فهو بذلك محتاج إلى توجيه الآخرين له، وكما يقول

سماحة: " قد يرى الإنسان عيب غيره ، لأنه يشاهده، ولا يرى عيب نفسه لأنه لا يشاهدها، ولأن العادة تنسيه حاله"^(١). ولذا كان لزاماً على الجميع قبول الحق ممن جاء به، حبیباً كان أو بغيضاً، وصغيراً كان أو كبيراً "فإن خير الناس من يتقبل الحق برحابة الصدر ، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " أنه جاء إليه رجل فقال له في وسط المجلس بين الناس : يا أمير المؤمنين اتق الله، فكبرت هذه الكلمة على كثير من الناس الذين سمعوها من ذلك الرجل، وهو يجترئ على إلقائها على أمير المؤمنين، وهو في مقدمة المؤمنين المتمسكين بحبل التقوى، فكيف يؤمر بجانب ذلك بالتقوى؟ ولما وجد عمر - رضي الله عنه - أن أولئك الناس وجدوا في نفوسهم حرجاً لما قيل له ، قال لهم : لا خير فيكم إن لم تقولها، ولا خير فينا إن لم نقبلها"^(٢)

ومما يربي الجانب الروحي لدى الإنسان ، ويقوي إرادة الخير لديه، قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن هذا الواجب متعلق بالغير، وهذا الغير أي الطرف الآخر قد يكون عاتياً شرساً، سيواجه الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر بفضاضة وغلظة وحدة ، وقد يتقبل ذلك برحابة صدر، ويشكر صاحبه، ويبيد أسفه إما على جهله أو سيطرة الهوى على قلبه، خصوصاً إذا كان الأمر مصحوباً بالحنان والرفقة، والاحترام والتقدير، وشيء من المواعظ التي ترقق القلوب، وهنا يشعر الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر في كلا الحالتين أنه انتصر على نفسه المحبة للدعة، المتخوفة من ردود الأفعال، المؤثرة للسلامة، فتزداد النفس سمواً، والروح تألقاً، ومن ناحية أخرى يجد أن لا محيص لنفسه من الالتزام بما يأمر الناس به، وينهاهم عنه، فيسير بنفسه نحو الأسمى، ويتخلص من جميع العيوب والمعاصي ، وكل ما يقدح في استقامته، ومن جهة ثالثة يشعر بتوفيق الله له، وحفظه ورعايته،

(١) جواهر التفسير ، الشيخ الخليلي ، ٢١٦/٣

(٢) رسالة إلى الشباب المسلم، الشيخ الخليلي ، محاضرة

فيزداد بذلك قربا من الله سبحانه ، وتقوى صلته به ، لأنه يقوم بمهمة المرسلين عليه السلام ، ومن جهة رابعة هو بقيامه بذلك الواجب يعمل على إيجاد بيئة صالحة مؤمنة، تربي فيها نفوس المؤمنين، وتنشأ فيها الأجيال على حب الخير والصلاح، وفي هذه البيئة نفسها يحيى ويعيش ، فلا بد أن تصفو روحه، وتصفو نفسه، يقول سماحته:

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما ركنان يأوي إليهما من أراد الإيواء إلى ركن الله سبحانه وتعالى، إذ هما جند الله سبحانه وتعالى في هذه الأرض، والقلوب المتنافرة تتآلف عندما تفهم المعروف وتأمّر به، وتترك المنكر وتنتهي عنه، وتنتهي عنه^(١)

ويوجه سماحته القائمين بهذا الواجب بعدم الإفراط وعدم التفريط، وإلا وقع الداعية في مأزق كبير قد يؤدي به إلى التفريط والتخلي عن القيام بهذا الواجب ، وإذا ما تخلى فلا ريب أنه واقع في معصية الله تعالى، فأنتى له بالارتقاء الروحي الذي نتاوله الآن، يقول سماحته في حديث عن ضرورة التواصي بالحق وهو مما يدخل في الأمر بالمعروف، يقول: "التواصي بالحق ضرورة من ضرورات الحياة البشرية، لأجل الوصول لسلوك الناس إلى الغاية التي يطمح إليها وهي الفوز برضوان الله سبحانه وتعالى ، بحيث تكون أعمال الناس مفضية إلى رضوان الله تبارك وتعالى. وهذا إنما يتم بإرشاد كل إنسان لغيره، وتبصير كل إنسان لغيره، حتى يتقي كل أحد ما يجب أن يحذره، وذلك داخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الدعوة إلى الله عز وجل... وعلى الداعية أن يتصور أن المنهج المعتدل في الدعوة هو المنهج القرآني، بحيث لا يحمل الداعية أوزار الناس ، ولا يفرط أيضا في دعوتهم إلى الخير... والمفرطون هم الذين يتصورون أن عليهم أن يوصلوا الناس إلى حقيقة الهداية، وهؤلاء عندما ينتهون إلى طريق مسدود يصطدمون

(١) الأمل المعاصر، الشيخ الخليلي، إصدار إصدار المشارق، محاضرة

بالأمر الواقع، وقد يفضي بهم الأمر - والعياذ بالله - إلى أن يكونوا من بعد من المفرطين. والمفراطون هم متوعدون من قبل الله سبحانه وتعالى؛ ذلك لأن الله عز وجل فرض على الناس التواصي بالحق، والدعوة إلى الحق فلا ريب أنه مقصر في واجب بينه وبين ربه، وهذا التقصير يفضي إلى خسارة الدنيا وخسارة العقبى^(١).

١٥ - ترقيق القلوب بالمواعظ

قد تكون الموعظة بالقول، وقد تكون بالفعل، قد يعظ الإنسان أو يتعظ بالقول والفعل، وفي كلا الأمرين فالأثر حاصل بهما في النفس بإذن الله، يقول سماحته عنها: "الموعظة: ما دعا إلى الاعتبار وبعث على الاستعبار من كلمات نافعة، أو أحداث رادعة، وأصلها بالقول المرقق للقلوب الباعث على الخير، الزاجر عن ضده، ثم أطلقت على كل ما أثر في النفس هذا الأثر كالمنايا، وسائر الأحداث:

ليس العظايات بما يقول مذكر مثل العظايات بمصرع الأختيار^(٢) فقد تكون الخطب والدروس وعظية، بمعنى أنها تتناول الموضوعات المشحونة بالعبء والعظايات التي ترقيق القلوب فتؤثر فيها تأثيراً إيجابياً نحو فعل الخير والازدجار عن الشر، كالحديث عن صفات الله تعالى المطلقة التي يجلي التفكير فيها تبيان حقيقة الإنسان الضعيف المفتقر إلى رحمة ربه، وكالحديث عن حقيقة الدنيا، وأن مصيرها إلى فناء، وكقصص الظالمين، وكالحديث عن الموت والقبر، والجنة والنار وغيرها؛ فيعتبر الإنسان بذلك، فالموعظة وسيلة عظيمة للتربية الروحية وتنقية القلوب من أدناسها، فعلى الإنسان أن يتخلل حياته بين الحين والآخر بالمواعظ المتعددة، ولا يهملها، وخصوصاً حين يرى فيها فتوراً عن العبادة، وتكاسلاً عن فعل الصالحات،

(١) تفسير سورة العصر، الشيخ الخليلي، محاضرة

(٢) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٤٣٤/٣

أو هجوما من الدنيا علي، ومحاولة مراودة شموخه وزهده عن نفسيهما،
فيردع جميع ذلك بتلك المواعظ .

١٦ - صحبة الصالحين:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: " مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة" (١) ويقول الشاعر:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ذلك لما للصحبة من أثر كبير في الإنسان، ولا شك أن الأثر متبادل ولكن الأقوى منهما يؤثر في صاحبه، بما أوتي من ملكات، وما وهب من قدرات، وهذا التفاوت من طبيعة البشر، ولكن الشخصية الإسلامية المحققة مؤثرة لا متأثرة في الغالب، ولكنها قد تصاحب من تتبغي التأثير عليه، فإن وجدته حجراً صلداً لا ينبت زرعاً، ولا يخرج ماء، فما لها وذاك، من هنا كان على الإنسان أن يختار نفسه ولمن تحت رعايته الصحبة الصالحة، بل والأرقى في صلاحها، تلك التي يرجو الانتفاع بها والاستفادة من فضائلها، لأنهم يشكلون له بيئة يقضي فيها شطراً من عمره، يقول سباحته: "على الإنسان

(١) سورة الكهف، الآية ٢٨

(٢) انظر صحيح البخاري رقم ٥٢١٤، وصحيح مسلم رقم ٢٦٢٨

أن يحرص على البيئة الصالحة فإن الإنسان مطالب بأن يطلب لنفسه البيئة الصالحة التي تعينه على طاعة الله، وتمكنه من أداء واجبات الدين، وتشجعه على المضي قدماً في طريق الاستقامة والحق، لا أن يترك لنفسه هواها، والصحبة لها أثر كبير على الإنسان، فالإنسان عندما يصاحب الأخيار يتحول من الفساد إلى الصلاح، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشد، لذلك كانت البيئة الصالحة هي من الضرورة بمكان، ونحن نرى حكمه الله تبارك وتعالى عندما أمر نبيه والمؤمنين أن يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولم يجعل في ذلك خياراً لأحد، بل جعل الإيمان الصادق منوطاً بهذه الهجرة^(١)

^١ ومن كلامه النفيس في الصحبة ما أورده - حفظه الله - في البرهان، يقول: " فكم يكون للرفيق من أثر على أخيه بما يشعر به من رقة الشعور، وإشراق البصيرة، وطهر السريرة، فيزداد بذلك يقينه قوة، وعزيمته في الخير ثباتاً، ولا يكاد ينفلت عنه حتى تبدأ العقدة في نفسه تضعف وترتخي، فيحتاج إلى مداومة العلاج باستمرار، من خلال تجديد الصحبة الصالحة، والتذكير بالله واليوم الآخر"^(٢)

ومن شاء تربية نفسه روحياً، فليختار الأصحاب الصالحين حقاً، العباد الزهاد، الذين لم تختلبهم زهرة الحياة الدنيا، الأواهون المنيون، الرجاعون إلى الله، الذين يعينونه على ذكر الله حين يذكر، ويذكرونه إذا نسي، يلفهم معترك واحد، كل منهم مسك بحجزه أخيه، يعينه على الطاعة ويججزه عن المعصية، ويدعوه لظهور الغيب، ويؤثره على نفسه ولو كان به خصاصة، يزيهم الإخلاص لرهبهم، ويوقد عزائمهم ذكر آخرتهم، ويقض مضاجعهم حال أمتهم، يتعبدون بلا كلل، ويتفكرون في آلاء الله بلا ملل، أولئك لهم الأمن

(١) الفتور، الشيخ الخليلي، ٤٣٣/١

(٢) برهان الحق، الشيخ الخليلي، ١٢٠/١

بفضل الله ومنتته، ولكن أنى لك أخي المسلم بهذه النخبة، فإن وجدتها فالزمها، ولا يغرنك الشكل والمظهر، حتى تعلم صدق المخبر والجوهر " فإن الصالحين أقل من سواهم في جميع العصور - وهو الذي تقتضيه المشاهدة - ويدل عليه قوله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(١) وقوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾^(٢) لأن كثرتهم معنوية وليست عديدة، ولذلك أمر الله بادئ الأمر أن يثبت الواحد منهم للعشرة من أعدائهم، ثم خفف عنهم فأمرهم أن يثبتوا للضعف عددهم^(٣)

وإن شئت أشباه الصالحين ، فهم كثر ، فمن ذا الذي لا يعد نفسه من الصالحين، ويرضى أن يسم نفسه بصفة الفاسدين؟ كلا، إن أشباه الصالحين كثر ولكنهم غثاء كغثاء السيل ، يتساقطون عند أول هزة ذات اليمين وذات الشمال ، وإذا فتشت سمعت قعقعة ولم تر صحينا . فاصبر أخي - هداك الله - وتبصر، ولا تسيء الظن بأحد أبداً . فإن رأيت وعلمت يقينا فاطلب لنفسك النجاة، ولقلبك السلامة، يقول سباحته حفظه الله وهو يتحدث عن العلماء فيما بالك بمن هم دونهم، يقول:

"وما أكثر علماء السوء وأحبار الضلال في هذه الأمة ، وما أعظم بلاءهم وأشد فتنهم على الناس ، فهم يتقمصون الدين لأجل أن يأكلوا به أموال الناس ، ويرتقوا على أكتافهم إلى المناصب التي يتطلعون إليها ، يأمرون الناس بالخير ولا يأثمرون ، وينهونهم عن الشر ولا ينتهون، يتباكون في مواعظهم ولا يبكون، كل همهم جمع حطام الدنيا ونيل ما يشتهونه من ملذاتها، والارتقاء إلى أوج مناصبها ليست في نفوسهم على حرمان الله غيرة ، ولا لدينه حمية ، يتجاذبون الدنيا كما تتجاذب الكلاب الجيف، ويغار

(١) سورة سبأ، الآية ١٣

(٢) سورة ص، الآية ٢٤

(٣) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢/٤٩٥

بعضهم من بعض إذا نال منها نيلاً كما تغار الضرة من ضرمتها، إذا استأثرت عليها بمودة الزوج أو عطائه، ويتقربون إلى الحكام بتحريم الحلال، وتحليل الحرام، وإبطال الحق، وإحقاق الباطل، تنقلب فتواهم بين عشية وضحاها بحسب ما يميل عليهم الهوى، ويقتضيه رضى ساداتهم الذين يؤثرون طاعتهم على طاعة الله.

إن دعوا يوماً إلى الحق أو أرشدوا إلى الهدى ناقضت أعمالهم أقوالهم، وكذبت أحوالهم دعوتهم، ورأى الناس فجوة سحيقة بين ما هم فيه وما يدعون إليه، فبقوا حائرين بين اتباع القول، أو الاقتداء بالعمل، فلا تلبث دعوتهم أن تتطاير هباء في الفضاء، ولا يكون لها أي أثر في نفوس سامعيها، بل كثيراً ما تكون دعوة هؤلاء إلى الحق أعمل المعاول في هدم صرحه، لأن الفجوة بين القول والعمل تجعل الناس يستخفون بالدعوة من أساسها، إذ لا تقف سخريتهم عند الداعية بل تتجاوزه إلى ما يدعو إليه، فيصبح أثر دعوته عكسياً، فلربما ظن الناس أنه لم يرد بدعوته إلا شغلهم بما يأمرهم به، والاستثثار بما ينهاهم عنه، كما لو نهى عن أكل الربا وكان أكله، أو حذرهم من الرشوة وعرف عنه الارتشاء، أو حَضَّ على ملازمة الجماعات وهو لا يأتي المساجد^(١)

ومما يأسف له الحر الكريم، ويبعث في نفسه الحسرة والأسى، أن تنتقل العدوى إلى المتعلمين ممن يظن بهم الصلاح وحمل مشاعل الخير والهدى، فأكثر حديث بعضهم في مجالسهم عن تنمية الأموال، وشراء العقارات، وما شابه ذلك، ولا يعني هذا أن يتعدوا عن هذا الجانب ويتركوه لغيرهم ممن لا يرقب في المؤمنين إلاً ولا ذمة، ولكن عليهم أن يعطوا الجانب الآخر حقه ومستحقه، وأن لا تلهمهم الحياة الدنيا عن ذكر الله، وعن الدار الآخرة، فلا إفراط ولا تفريط.

(١) جواهر التفسير، الشيخ الخليلي، ٢٢٠/٢١٩/٣

١٧ - زيارات الفقراء والمساكين:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَحْنٌ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١) تلك حكمة الله تعالى في خلقه، ولو شاء الله لجعلهم سواء، وهو الغني ذو القوة المتين ولكن ليلوهم فيما آتاهم، وليعلم الشاكرين والصابرين ، فيجازى كلا بما عمل وما قدم، وفي زيارة الفقراء والمساكين معتبر وأي معتبر، وذكرى لمن آتاهم الله من فضله، كيف يقاسون شدائد الزمان، ونوائب الدهر، ويكافحون من أجل البقاء وهم صابرون محتسبون، قد يجدوا ما يأكلون اليوم ولا يجدون ذلك غداً وبعد غد، وهناك من يعيش تحت ظلال الأشجار، أو يأوي إلى الأماكن الخربة، يلتقط من أماكن القمامة ما يسد به جوعته، ويبقي به رمت العيش، وكم شاهدنا ذلك عياناً، فالحمد لله على نعمائه وفضله، ومن هنا كانت زيارة هذا الصنف من الناس تشعر بنعمة الله ووجوب حبه وطاعته، والإذعان لأمره، وتبعث في النفس الشفقة والرحمة، والعطف على أولئك ومن يعولونه من أسر وخصوصاً أطفالهم الذين لا يجدون ما يلبي لهم رغباتهم الطفولية.

يقول سماحته: " فما شرع من أنواع البر وصنوف القربات مما يؤدي إلى الرحمة والعطف على القربات، والفقراء والمساكين، كل من ذلك يؤدي إلى طهارة هذا القلب، فيكون ذلك من أسباب تزكية النفس"^(٢)

ولا ريب أن سلوك ساحة الشيخ في الواقع ترجمة حية لما يدعو إليه الناس، فكثيراً ما تراه في المسجد، وفي مجلسه العامر، يجذب على الضعفاء كأنه المسؤول عن رعايتهم، يسألهم عن أحوالهم وحاجتهم بتودد وأسلوب مفعم بالحنان والرفق، ويلبي مطالبهم، ويتصدق على المحتاجين منهم،

(١) سورة الزخرف، الآية ٣٢

(٢) تطهر القلوب، الشيخ الخليلي، ١/٤٨٠

حفظك الله يا كهف الفقراء وموئل المحتاجين ، وملجأ المساكين ، يا معدن الرفق، وينبوع الحنان .

يحدثني الأخ محمد الرشيدى سائق مركبة سباحته يقول: " إذا خرجنا بالسيارة ومعنا سباحته - حفظه الله - ورأينا رجلا كبيراً في السن يقف على جانب الطريق، يريد العبور، يأمرني سباحته بالتوقف كلياً حتى يعبر ذلك الرجل المسن ، ثم يقول سباحته: ليت لدى هذا الرجل من يعينه، وكذلك الحال إذا مررنا بطفل صغير يأمرني بالتوقف أيضاً حتى يعبر ويقول: ليت هذا الطفل مصحوب بمن يرعاه، ويحافظ عليه"^(١)

وكم رأيت الفقراء يأتون إلى مجلس الشيخ فيتناولون الطعام، وتبقى الفقريرات في غرفة خاصة ملحقة بالمجلس، فيتصدق على الجميع.

ومن الثمرات الروحية التي يجنيها المتردد على الفقراء المساكين التواضع والقرب من الناس، ومحبتهم له، وهو بالطبع لا يسعى إلى كسب الحب وإنما هو ثمرة دانية له، بل يبتغي بذلك وجه الله تعالى، فلا يداخله الكبر والغرور والترفع، فيتطهر قلبه بذلك من تلك الأدناس، وإذا كان ذلك الرجل من الأثرياء أو أصحاب المناصب تطامنت نفسه، وزكى قلبه، وينبغي لمثل هذا الصنف من الناس أن يكون قريباً من الفقراء والمساكين، يزورهم ويتردد على مساكنهم، ويقدم لهم العون قدر استطاعته، فيدخل عليهم السرور أولاً، وفي ذلك ما فيه من الثواب، ويكسب منهم الدعاء له بالخير، ويكسب المزيد من التوفيق ثانياً، ولا يجد في نفسه حرجاً أن يعمل أعمالهم ويعيش عيشتهم، إذا ما قلب الزمان له ظهر المجن، وأحاطت به نوائبه، وعاش بعد الثراء فقيراً، ومن المناصب رجلا عاديا كسائر الناس، فكم سمعنا من أثريا سلبهم القدر ثروتهم، إما بسوء تصرفهم، أو بسبب ظروف الزمان، فعادوا فقراء معوزين، أو أصحاب منصب وجاه نزع القدر منهم مناصبهم، فعادوا كأبي

(١) لقاء المؤلف بمحمد الرشيدى قائد مركبة سباحته

أحد من الناس، فوجدوا بذلك أنفسهم في حرج شديد، وضيق أشد، أينزلون إلى مستوى العامة من الناس في هذه المرحلة بعد أن كانوا مترفعين عن النزول في أيام العز والشأن؟ فإن نزلوا رmqتهم العيون شزرا ، وربما تلقوا غمزا من بعض سفهاء القوم، أم يبقوا مترفعين مع عوزهم وحاجتهم؟ ولو كانوا من قبل مع الناس في حلوهم ومرهم ، ومع المعوزين والمحتاجين، فإن انقلاب الأمور لا تغير بحال من الأحوال من سير حياتهم، بل تستمر على حالتها الطبيعية، فله در المنهج الإسلامي ، إنه التوجيه الرباني .

١٨ . الدعاء

الدعاء مخ العبادة ، ومفرج الكربات، وملجأ كل حي، لأنه ضراعة إلى الواحد الأحد الذي بيده مفاتيح خزائن السموات والأرض، ولجوء إلى الملك العظيم القادر على كل شي، الذي إذا شاء أمراً كان في أسرع من ملح البصر، وهو الرب الحليم، الودود الكريم، الغفور الرحيم، سبحانه وتعالى حث عباده على دعائه، واللجوء إليه في كل حاجاتهم، الصغيرة والكبيرة، ووعدهم بكرمه وفضله أن يستجيب دعاءهم، ويكشف ضراءهم، ويفرج كربهم، ويعفر ذنوبهم، ويجزل لهم العطاء، يقول سبحانه ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(١) ويقول ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾^(٢) وهو سبحانه بحكمته وتدبيره يهب ما يشاء لمن يشاء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا يسأل عما يفعل ، ولا يخشى عواقب الأمور، إذ هو مسيرها جل وعلا ، ومن هنا فإن عدم الدعاء أو قلته تنافي صدق الإيمان بالله تعالى والخضوع لأمره، والرغبة إليه، ويرى سماحته مع ذكره لفضل الدعاء ومنزلته، أن العبد عليه أن يستجيب أولاً لله حتى يستجيب الله له، لقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ

(١) سورة غافر، الآية ٦٠

(٢) سورة النمل، الآية ٦٢

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي
وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٠٠﴾

مشكلات في طريق العقيدة

لا ريب أن عقيدة المسلم هي رأس ماله في الحياة الدنيا، وساجه الذي يصونه عن الانزلاق في المتاهات والانحراف عن الصراط المستقيم الموصل الى سلامة الآخرة، والفوز بدار النعيم، دار الكرامة، دار الخلود، عند ملك مقتدر، ولذا كان على الإنسان المسلم أن يوليها جل عنايته، ويمنحها خالص اهتمامه، ويصونها كما يصون روحه التي بها قوام حياته، واستمرار وجوده، فهي أعلى من ذلك وأثمن، ومن هنا حرص أعداؤنا وأذناهم من شياطين الإنس المستعينة بشياطين الجن على توجيه سهامهم المسمومة إلى قلب العقيدة الإسلامية، فأصاب من أصابت من أبناء المسلمين ممن كتب الله عليهم الفتنة في دينهم بما كسبت أيديهم، وبعدهم عن منهج الله تعالى، وتصاممهم عن نداء الحق في الكتاب الكري، ودعوته إلى الاعتصام بحبل الله المتين، والاستعانة في جميع شؤونهم بخالقهم العظيم، الذي بيده الخلق والأمر، والنفع والضر، وبجانب تصاممهم ذلك فقد أصاخوا أسماعهم لإيحاءات المبطلين، وزخارف القول من المغرضين، وهذا من أعظم ما منيت به الأمة في زمن صحوتها المباركة، وقد أشار سماحة الشيخ يحفظه الله إلى ذلك في قوله: "ومن فضل الله تعالى أن من على هذه الأمة بصحة منذ فترة من الزمن، هذه الصحة قد استبشر الكل بها خيراً، ورجونا بفضل الله سبحانه وتعالى أن تجمع الشتات، وأن تؤلف بين القلوب المتنافرة، وأن توحد بين الفئات المتدابرة، لتنطوي هذه الأمة جميعاً تحت لواء الحق والحقيقة،

(١٠٠) سورة البقرة، الآية ١٨٦

(١٠١) فتوى محررة لسماحته مخطوطة تتناول شروط استجابة الدعاء

ولكن مما يؤسف له أن هذه الصحوة أصيبت بشي من غبش التصور في بعض الأمور، وذلك مما جعل أبناءها يعيشون في عالم الأوهام، أسارى للخيبالات المختلفة، وقد دفعهم ذلك إلى تجاهل سنن الله سبحانه وتعالى في خلقه^(١)

نعم ما أكثر الأوهام، وما أوسع فضاءات الخيال الذي تسبح فيه مجرات عقول هؤلاء الذين لا يكادون يفقهون حديثاً.

الأوهام المتعلقة بالسحر

إن من أعظم الأوهام التي أشار إليها مساحته، وأشدّها فتكا في أوساط الناس، الوهم المتعلق بقدرة المخلوق على دفع البلاء، والتعويل عليه في كل ذلك كل التعويل، والثقة بقدرته أكثر من الثقة بقدرة الله الواحد الأحد، التي لا تأتي في الغالب عند هؤلاء إلا مجرد قلقلة باللسان، وكل اعتمادهم واستعانتهم إنما هي بغيره سبحانه وتعالى، إنها مشكلة تتعلق بدور العرافين والسحرة وأعوانهم من الجن والشياطين في علاج الناس الحيارى النائهين في أودية الخيبالات والأوهام.

لقد بذل مساحته جهده في توجيه هذه الأمة الوجهة الصحيحة السليمة، والمعتقد الحق، وحاول قدر مستطاعه تنقية عقول هؤلاء المنجرفين في هذا التيار من شوائب الخيبالات الفاسدة، وأكدار المعتقدات الضالة، وإعادة التصورات الصحيحة إليها، إذ القضية جد خطيرة؛ لأنّها قضية عقيدة تتعلق بخالق الوجود، ومصرف الكون، ومدبر أمر كل موجود، وفي هذا المضمار تتناوش الناس اليوم قضايا ثلاث تتصل ببعضها مع انفصالها، تتداخل وتختلف في الوقت ذاته، قضية الجن ودخولهم في جسم الإنسان وتأثيرهم عليه، وقضية السحر والسحرة وأثرهم ومكافحتهم، وقضية العرافين المعالجين لآثار الجن والاستعانة بهم، واستعانتهم بنفر من الجن في العلاج

(١) الإنسان بين الحقيقة والأوهام، الشيخ الخليلي، ١/٨٥

أيضا ، وهي قضايا شائكة لأن الواقع المر التي عشتت فيه يلفها بظباب كثيف يصعب معه تعرية حقيقتها أمام الجميع، وخصوصا الذين ربما بدت له الاستفادة من ممارسات هؤلاء، وانطلت عليهم الحيل، وبقوا أسارى تلك الأوهام ، وسأتناول هنا توجهات سماحته في هذه النقاط الثلاث:

أولا: هل يدخل الجنى في جسم الإنسان؟

يرى بعض المرضى أنهم قد وقع عليهم تأثير من السحرة بفعل حسد الحاسدين لهم، فهؤلاء السحرة سلطوا عليهم بعض الجن، فسكتوا في أجسامهم، فهم معهم أينما حلوا وساروا، فأذوهم في أجسادهم؛ فأصيبوا ببعض الأمراض النفسية والجسدية التي لم ينفع معها علاج الطب العضوي في المستشفيات؛ ولذا حين يصاب أحدهم بأي أذى، صرخ بأعلى صوته: إنه السحر، إنه الجنى، يقول سماحته في هذا الشأن: "حقيقة الأمر هذه قضية بحثها العلماء ووقفوا منها موقفين، منهم من قال بدخول الجن في جسم الإنسان، لأن أجسامهم أجسام لطيفة، أي هم أقرب إلى الروحانية، فلذلك يتمكنون من الدخول، ومنهم من قال بعدم دخولهم؛ لأنهم ولو كانت أجسامهم لطيفة إلا أنهم أجسام فلا يتلبس جسم بجسم، ولكن مع هذا هنالك تأثير من حيث الإيحاء، فقد يتكلم الإنسان كلاماً يوحيه إليه الجنى الذي تلبس به بقوة طاقته الروحانية، لا بدخوله في جسمه حسب ما يبدو، وإنما يؤثر عليه تأثيراً حتى يتحدث بها يتحدث به.

وهذه القضية قضية لا ننكر وقوعها، إلا أن ذلك قد رُوج له ترويحياً عجيباً عند الناس ، وهذا الذي جعل الناس يتأثرون تأثراً نفسياً عجيباً، وتترادف عليهم الأمراض النفسية، وتكثر عندهم الأوهام، وتشيع عندهم الخيالات حتى يتحدث الإنسان بأنه رأى كذا ورأى كذا، وأنه يحس بكذا في حالة نومه، أو في حالة انفراده، أو في غير ذلك من أنواع الحالات، هذا إنمّا

هو في الغالب ناشئ عن حالات نفسية، وقد كان الواجب أن تكافح هذه الأمور نفسياً بحيث يُعوّد الناس على التصلب.

وصل الأمر بالناس أن أحداً إذا أحس حشرجة في حلقه، قال هذا من أثر الجن، أو أوجعته أذنه قال هذا من الجن، أو وجعه رأسه قال هذا من الجن، أو أصابه أي شيء قال هذا من الجن، كأنها الإنسان ليس عرضة للبلاء، مع أن أي أحد عرضة للبلاء

فمثل هذه الإشاعات أوحت إلى الناس إجماعات غريبة، وأثرت عليهم تأثيراً نفسياً، فلذلك من الواجب أن يكافح هذا، ومع هذا يؤمر كل أحد أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فعندما شكَا عبد الله بن عمرو بن العاص إلى النبي عليه أفضل الصلاة والسلام أنه عندما ينام يرى أهوالاً علّمه النبي ﷺ أن يقول: (أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعذابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون)

ويقول سماحته: "جاءني قبل فترة رجل يشكو بحّة في حلقه، ويقول: بأن هذا أصابه بسبب تأثير جنّي عليه، نتيجة سحر وقع عليه"^(١)

إن للناس أسوة حسنة في أنبيائهم وما أصابهم من البلاء في سبيل الله، وخبر مثال على ذلك أيوب عليه السلام، الذي شكَا إلى ربه عز وجل قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٢) بل على المسلم أن يستبشر خيراً بما يصيبه، ولو كان ذلك شوكة يشاكيها حين يصبر ويحتسب أجره على الله، فما أصابه من الضراء إنها هو بأمر الله ومشيتته، ولا يرتفع عنه ضره إلا بأمر الله ومشيتته، فما له ومال الأوهام الزائفة.

(١) الإنسان بين الحقيقة والأوهام، ٨٥

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٣

حقيقة السحرة والمسحورين في الجبال

السحر حق لا يُنكر فقد نصَّ عليه القرآن في قصة هاروت وماروت، كما نصَّ عليه الحديث الشريف في حديث السبع الموبقات، ولكن ليس بالكيفية التي هي منتشرة في أوساط الناس الجهلة، ومتصورة في أذهانهم، وأنَّ الساحر يمتلك قدرة خارقة تمكنه من الطيران في الفضاء، وقطع المسافات في زمن قصير جداً، أو لمجرد خط يخطه على الأرض، ثم يقتحم ذلك الخط ليصل الى المنطقة التي يريد الوصول إليها، وأنه قادر على التحول الى صورة حيوان كالغأر أو السحلاة، فيدخل الى البيوت من أي ثقب مهما كان صغيراً، وأنه يركب على الضباع بشكل مقلوب، وأنه يأكل لحوم البشر، ولذلك فلديه مجموعة بين الناس الذين سحرهم فأتوا في الظاهر عند أهلهم وما هم بميتين في الحقيقة، بل نقلهم الساحر إلى إحدى الشعاب بين الجبال، وأخفاهم عن الناس، وقد مسخ عقولهم فلا يتعرفون على أحد من الناس، بل يخافونهم ويهربون منهم، وربما كانوا جميعاً عراة رجالاً ونساءً في أحد الكهوف الواسعة، وبعضهم معلق من يديه كما تعلق الذبيحة - كما سمعت ذلك من أحد العرافين المعالجين - إلى ما وراء ذلك من الهراء والأباطيل والأوهام. ومن أين للساحر بمثل هذه القوة؟ فيا سبحان الله العظيم.

لقد عاصر سماحة الشيخ - حفظه الله - شيئاً من القصص الواقعية في هذا المجال، وتابع تفاصيل بعض الوقائع؛ لذا أترك له المجال للحديث، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب، يقول ساحتة:

قبل ستة وعشرين عاماً من الآن - أي زمن إلقاء المحاضرة - ذهبت عند أحد المشايخ وقد توفي الآن فوجدته كتب قصة في دفتر في مجلسه، فاطلعت على القصة فعجبت من هذا، وجدته كتب جاءني فلان بن فلان وهو من منطقة سداب من ضواحي مسقط، وذكر أنه سافر قبل كذا من السنين إلى الكويت، واصطحب معه ابناً له يسمى فلانا، وتوفي الابن في الكويت ودفن،

وإذا به بعد هذه السنين يظهر هنا في عمان، وقد وجدته بعينه وعليه علاماته التي تدل على أنه هو الولد الذي كان عنده وتوفي حسب الظاهر، ثم بعد أيام رأيت سيارة تقف أمام بيتي، وينزل منها رجل وامرأة وجاءا إليّ، وإذا بالرجل يحدثني بالقصة نفسها، ويقول: إنه هو أب الولد، وإنه بعد ما عاد إلى عمان وبعد مضي سنين وجد الابن الذي دفنه بالكويت مع كل علاماته عند أحد بعينه، وهو الساحر الذي سحره، وقد أثر عليه وغير اسمه، وغير عقله، وأصبح ينفر منا وينفر من أمه، وهذه هي أمه، وتقول هي: إنَّها اطلعت على كل العلامات التي كانت تحفظها في جسم ابنها، فاستبعدت هذا الأمر، فقلت لهما: انصرفا وأنا أفكر في ذلك، وفي مساء اليوم نفسه بعد أقل من ثلاث ساعات ذهبت إلى عزاء في مسقط، وإذا برجل فيه لوثة في عقله، وقال لي بعض المشايخ القضاة هناك: بأنَّ هذا طلق امرأته وهو مصاب بلوثة، فهل يثبت طلاقه؟ فانظر إليه، واسمع منه، وإذا بهم ينادونه بالاسم الذي فهمت من الرجل والمرأة أن الساحر سمى به ولده، فقلت لهم: هل هذا هو الذي يقال بأنه مسحور، قالوا: نعم، وقالوا: من عجيب الأمر أن هذه المرأة التي تدعي أنها أمه، وأنَّ هذا هو ابنها الذي مات قبل سنين، قالت: إنَّ من علاماته كذا وكذا، فجاء الشرطة ورأوا هذه العلامات وقالوا لها: خذي ابنك، مع إننا نعرف أنَّ هذا الولد لهذا الرجل منذ طفولته، ونحن نعرف أنَّ ابن هذا الرجل، فذهب أب الولد إلى ابن خالته وأخبره، فاتصل بمحافظ العاصمة في ذلك الوقت، (محافظة مسقط حالياً) وقال له: هذا الرجل ابن خالتي، كيف ينزع من أبيه وأمه ويسلم إلى شخص آخر وامرأة أخرى؟!.

أمَّا القصة الأخرى فبقول ساحتها: ادعى مدَّع بأنه كان مسحوراً، وقد تقمَّص شخصية أحد من الموتى، وقد ظهر بعد ما مات بأكثر من خمسة عشر عاماً، وجاء وقال للناس: هذا مالي، وهذا مكان أبي، وذكرهم بالكثير من القصص، فاطمأنوا إليه، وعرفته أمه، واطمأنت إليه، ووثقت به وصدَّقته،

وادعت أنّها وجدت العلامات التي كانت في ابنها ظاهرة فيه، وصدق الناس أنّهُ هو الشخص الميت بنفسه، وقد أُجريت مع هذا الرجل مقابلة صحفية، ونشرت في مجلة العقيدة، وبعد فترة من الوقت ارتكب هذا الرجل جريمة قتل، وساعدته على القتل امرأة بَعِيّ كان له علاقة معها، فساعدته على قتل زوجها، وعندما أمسكته الشرطة كان كل ملف له باسم ذلك الميت الذي مات قبل ما يقارب عشرين عاماً، حتى عقدت جلسة لمحاكمته، وكنت شريكاً في تلك الجلسة، فلما حضرتُ، وبعدما أدلى باعترافاته وسألناه، قلت له: أنت أولاً أخبرنا عن حقيقة أمرك؟ من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان بن فلان الفلاني، من منطقة السيب، بينما كان يقول سابقاً: إنه من المنطقة الداخلية، ووالدي كانت تسمى فلانة، وهي ميتة، ووالدي ميت، حتى المرأة البغي اندهشت من هذا الأمر، وانزعجت، وقالت له: أنت تقول هذه أمك، قال: ليست أمي، ولكن ابتليت بها، قلت: في الحقيقة هي التي ابتليت بك، وقلت له: المعلومات الدقيقة التي كنت تخدع بها الناس وتقول لهم بأنني حفظت من الوقائع كذا وكذا، فمن كان يزودك بهذه المعلومات؟ فإذا الذي زوّده بها هو أخ ذلك الميت، ولا أدري ما الذي كان وراء هذه المؤامرة^(١) فيجب رفض ذلك ديناً ولا يصح اعتقاده أبداً، فما قدمه سحاخه كاف لدحض هذه الهرطقات والأباطيل.

الذهاب إلى العرافين

بعد أن تبين أن الجن والسحرة لا قوة ولا سلطان لهم على عباد الله إلا بأمر الله، وأن حالهم كحال غيرهم، فماذا يا ترى يصنع العرافون الذين يجعلون من أنفسهم أطباء مهرة يعجز عن الوصول إلى ذروة مهارتهم الطب الحديث، هم لا ريب متباينون في المذاهب العلاجية، كتبائهم في المشارب

(١) اليوم الآخر، الشيخ الخليلي، ١٣٣/ج/أ، وانظر أيضاً الإنسان بين الحقيقة والأوهام، الشيخ الخليلي

الفكرية والأعوان من الإنس والجان، فله الأمر من قبل ومن بعد، ولكن في الغالب تجذب بخور اللبان الذي تغطي سحائبه سماء الغرفة، والمكان المغلق المحكم في الإغلاق، ثم تبدأ مراسيم العلاج، ما اسمك؟ ما اسم أمك؟ ثم قليل من تلاوة القرآن، وكثير من الطلاسم والأوامر والنواهي من المعالج، والتأثيرات التي لا يدري سببها على المريض، كالصراخ والوعويل، لتظهر بعد ذلك نتيجة الفحص الطبي (أنت مسحود) أو (أنت مسحور) لكن لا أسمى لك أشخاصاً بأعينهم، ولكن من صفاتهم كذا وكذا؟ ألا تعرف الشجرة الفلانية؟ ويجانبها شيء مثل الجبل، فهناك قد وضع لك الطب - أي الحسد - مدفوناً، والمطلوب منك أن تذبح شاة سوداء على عتبة الباب، وأوصاف من العلاج، والوصفات السحرية العجيبة.

يقول سماحته موجهاً الناس إلى الصواب والرشد منذ البداية: " أما السؤال عن اسم أم المريض فذلك مما يدخل في التنجيم، والتنجيم باطل وهو حرام، حرام، حرام، لا يجوز لأحد من الناس أن يفعله، ولا يجوز لأحد من الناس أن يأتي من يفعله، فإن التنجيم إنما هو من بقية المعتقدات الضالة، معتقدات الذين يعتقدون أن هذه النجوم تأثيراً في حياة الناس.

فيجب على الناس أن لا يصدقوا هذا الذي يدّعي علم الغيب، لأنّ القرآن صريح في أنّه لا يعلم الغيب إلا الله، فالله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾^(١) فلا يجوز لأحد أن يصدق قط أن هنالك من خلق الله تعالى من يعلم الغيب في السماء وفي الأرض، هذا ما يجب أن يكون في قرارة نفوسنا جميعاً أنه أمر مستحيل، ومن كان في قرارة نفسه خلاف ذلك فقد كفر بما أنزل على محمد، لأنّه كفر بصريح هذه الآية الكريمة.

ونحن نطالب أولئك الذين يتورطون ويذهبون إلى هؤلاء العرافين أن يعودوا قبل كل شيء إلى عقيدة الإسلام ، وأن يستلهموا الحقائق من القرآن الكريم، وأن لا يقفوا أسارى لأولئك الذين يروجون بينهم هذه الأوهام، فإنهم بهذا تعمى عليهم السبل، ولا يجدون الطريق الذي يؤدي إلى الحقيقة ، فليتقوا الله تعالى وليرجعوا إلى رشدهم ، وحديث النبي ﷺ يقول " من أتى عرافا فسأله فقد كفر بما أنزل على محمد " (١) والله تعالى المستعان" (٢)

ولا ريب أن الذي يذهب للعلاج عند هؤلاء لا يرجع بخير، فهم يزيدونه وهما على وهم ، ومرضاً فوق مرض ، ومن ذا الذي يأمن هؤلاء وأمثالهم إن لم يكن به مس من الجن أن يسلطوا عليه من يؤذيه من الجن بعد ذلك، ليقى متعلقا بهم، متردداً على أبوابهم، ينفق الغالي والثمين ابتغاء الشفاء، وطلباً للعاية، بل ليته يرجع لحاله الأول، ويرضى من الغنيمة بالإياب ، يقول سباحته:

" الذين يؤمنون بهذه الأشياء يذهب أحدهم الى أحد يشتكي له ما أصابه، وسرعان ما يزيده وهماً على وهمه، فيقول له : هذا أصابك بسبب سحر، بل أقل ما يقولون لهم: إن هذا بسبب الحسد، ولو مرض أحد وشكى مرضه الى أحد من الذين يعتنون بالعلاج الروحاني مثلاً ، فأدنى ما يقولونه للمصاب: أصبت بما أصيبت به بسبب حسد الحاسدين، كأن الناس لا يصابون بأمراض إلا بسبب حسد من الناس" (٣)

استعانة المعالجين الروحانيين بالجن

هناك من المعالجين بالطرق الروحانية من إذا جاءه المريض يشكو إليه علته، قال له: أنا لا أعالج نفسي، وإنما أطلب الشيخ فلان من الجن، كأن

(١) المستدرک للحاکم، رقم ١٥، المعجم الكبير، رقم ١٠٠٠٥

(٢) سؤال أهل الذکر ٧ / ربيع الآخر ٨٠ - ٦ / ٢٠٠٣م

(٣) الإنسان بين الحقيقة والأوهام، الشيخ الخليلي، ٨٥ / أ

يكون الشيخ عبد القادر، والشيخ صالح، والشيخ علي، فهو الخبير الذي أستند إليه، وفعلا يؤتي بالبخور وما هي إلا دقائق معدودة حتى يسلم على الحاضرين الشيخ الجنبي، وقد وصل لتوه من بغداد أو الحرم المكي أو الحرم المدني، أو الشام ونحوها معذرا عن التأخير، وأنت لا تدري كيف يتم استدعاء الشيخ بهذه السرعة، أجمرد شم رائحة البخور من ذلك المعالج؟! أو بتمتات تنتقل عبر الأثير بسرعة الضوء لا بسرعة الصوت من غير أجهزة سلكية أو لاسلكية؟! لكن الشيخ يحضر ويتكلم بلهجة بدوية أحيانا، أو عادية أحيانا أخرى، وإن كان من سكان بغداد، فهو لا يتكلم بلهجة العراقيين، بل بلهجة بدو عمان أو أهل حضرتهم، وسرعان ما يبدأ مسلسل الأوهام، أنت بك مضرة من أشخاص، أو حسد، أو سحر، فالمرض لدى الجميع واحد وأن تعددت أسبابه أو مسباته، ولذا فالأصل أن يكون العلاج واحدا أيضا، لكن الاتفاق بين المحتالين يتعذر لكثرتهم، بقي أن يكون القاسم المشترك بينهم هو زيت الحبة السوداء، وماء الورد، وبعض الخلطات العجيبة من الأعشاب والعسل والباطل والعاطل وسائر ما يتاجر به العطارون، فمن أين لهؤلاء الجن علم الغيب؟ فبمجرد سماع شكوى المريض يتم تشخيص الداء ووصف الدواء، وإن تعجب فعجب من المال الذي يدفعه المريض المسكين، يدفع بعضهم مئات الريالات، وبعضهم فوق الألف، فمن يأخذها؟ الإنسي أم الجنبي؟ وكيف يأخذها الجنبي؟ يقول العراف: إنَّها وليست له، بل هي للشيخ فلان، يعني الجنبي، كي يشتري بها الأدوية، وكم كنت أتمنى رؤية اختفائها من قبضة الإنسي لتنتقل الى جهة مجهولة، إلا إذا تم خداع بصري، والتخييل عليّ من قوة السحر، وقد قصّ لي مرة أحد المعالجين العرافين قصة طريفة، يقول: كنت مرة ذاهبا إلى السوق لشراء بعض الأدوية للمرضى، وأحل معي عشرة ريالات، وسقطت مني في السوق، والتقطتها الشيخ فلان (أي الجنبي) وحملها إلى البيت، ولما فقدتها في السوق، وبحث عنها جاءني الشيخ وقال لي: إنها سقطت منك، وقد أخذتها

ووضعها في المكان الفلاني من البيت، فلما عدت وجدتها حيث أخبرني فعلا، فعجبت لماذا لم يعطه إياها في السوق حيث الحاجة إليها؟! أو على الأقل ينبهه حال سقوطها لكي يأخذها حالاً، ولا يحملها إلى البيت ويتركه في السوق بلا نقود، ولا أظن صاحبنا كان قد أخذها معه، بل نسبها في بيته، وكان يظن أنها معه، ثم افتقدها في السوق، وعندما رجع بيته تذكرها ووجدها حيث كانت، فظن ذلك التذکر إلهاما من صاحبه الجنى، نعوذ بالله من الخذلان.

ومن المواقف الطريفة التي عشتها أن رجلا عرفا كان يدعى أنه يعالج الناس، وأن امرأة من الجن متلبسة به، وهي التي تتولى العلاج ووصف الدواء، وحين تحضر تلك الجنية يقوم الرجل المعالج فيلبس حجاباً نسائياً مزخرفاً (ليسوا بلهجة العمانين) وذات يوم دخل بيتا لأحد جيرانه ليزورهم، فحضرته جنيته - على حد زعمه - فأخذ حجابا لأحد النساء فلبسه، وكان هناك رجل شهيم لم يعجبه المشهد، وثارَت عيرته، فأخذ يتمطى ويهز رأسه بعنف ويصرخ، وادعى أن به عبد القادر الجيلاني، وقد حضره الآن، وقام بطرد ذلك الرجل المعالج الذي يلبس ملابس النساء خارج البيت. لا ريب إنها زخارف الشياطين وألاعيبهم.

يقول سماحة الشيخ في موضوع علاج الجن للأنس: "أولا قبل كل شيء، الجن لا يعلمون الغيب، فالله تبارك وتعالى يقول وهو سبحانه وتعالى أصدق القائلين: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾"، ثم إن الله سبحانه وتعالى يبيِّن في سورة الجن أن تثبت الإنس بالجن وتعلقهم بهم من أجل دفع الضرر أو من أجل تحقيق المنافع أمر لا يزيد هؤلاء المتشبهين إلا رهقا ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالِ

مَنْ الْجِنِّ فزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٣﴾، فالتعلق بالجن من أجل دفع شيء من هذه المضار، أو تحقيق شيء من المكاسب، من الأمور التي هي وليدة الأوهام والجهل والخرافة، فلا يجوز لأحد أن يصدّقها، وأنا أتعجب من تصديق هذه الأشياء من قِبَل أحد يتلو كتاب الله تعالى، ويصلي وفي صلّاته يقرأ سورة الفاتحة الشريفة، وهذه السورة فيها ما يبيّن أن الاستعانة لا تكون إلا بالله، كما أنّ العبادة لا تكون إلا له، فالله تعالى يعلمنا كيف نستعين، وكيف نعبد، بحيث لا نستعين إلا به، ولا نعبد إلا إياه، يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٣﴾، فكما أن العبادة لا يجوز أن تكون إلا لله فلاستعانة أيضاً يجب أن لا تكون إلا بالله سبحانه وتعالى، هذا في الأمور التي لم يجعل الله تعالى التعاون فيها بين الناس من سنن الحياة ونواميس الوجود، أمّا الأمور التي جعل الله تعالى التعاون بين الناس من سنن الحياة، ومن نواميس الوجود، فهذا الأسلوب لا مانع من استعانة أحد بأحد، فلإنسان أن يأتي إلى غيره من الناس ليقول له أعني بإقراض مبلغ من المال، ولكن ليس له أن يقول له أعني فاجعلني من الأغنياء، وله أن يقول له: أعني بحيث تعالجني من هذا المرض، ولكن ليس له أن يقول له: أعني بحيث تشفيني من هذا المرض، فإن الشافي إنما هو الله سبحانه وتعالى. ولما كان ذلك من مقدور الله تعالى وحده، فليس لأحد أن يستعين عليه بأحد إلا به تبارك وتعالى، ليس له أن يستعين بإنسي، أو أن يستعين بجني، فالإنس والجن جميعاً لا يملكون دفع الضرر، ولا يملكون تحقيق منفعة إلا بأمر الله تعالى " ﴿

(١) سورة الجن، الآية ٦

(٢) سورة الفاتحة، الآية ٥

(٣) شبكة الدرّة الإسلامية

أهي أمراض من الجن أم أمراض نفسية؟

أشار سماحة الشيخ سابقاً الى الكثير من تلك الأمراض، وفي الحقيقة هي أوهام أمراض، بل وبالأصح مرض نفسي له علاجه عند الأطباء النفسانيين، أو عند من أوتي حكمة من التصرف، ويسوق لنا سماحته شواهد على وجود الأمراض النفسية التي يتصور أصحابها أنّها أمراض حقيقية، يقول حفظه الله: "أخبرت أنّ أحداً من الناس يخيّل إليه أنّ في رأسه مسماراً من حديد، وقد ذهب إلى الأطباء وحاول كل طبيب أن يقنعه بأنّه ليس في رأسه شيء، وهو يقول: لا إنني موقن بأنّ في رأسي مسماراً من حديد، حتى جاء الى طبيب وعرف الطبيب داءه، فقال له: صدقت فيما قلت، والمسمار هكذا ظهر في الأشعة، ونحن إن شاء الله سنخرجه، فخذّره ونومه، وبعد التخدير شطبه قليلاً، ثم جاء بمسار من حديد، وطلاه بدم ديك ذبحه، وبعد ما أفاق قال له: هذا المسمار، والحمد لله نزعناه، وستكون إن شاء الله بصحة وعافية .

فأخذ المريض يشكر ذلك الطبيب ويقول: الحمد لله، ارتفع عني ذلك الوجع الذي كنت أحسه، كان لا ينام ليله من هذه الأوهام التي كان تخامر رأسه، وظل هكذا فترة من الزمن وهو في راحة، بعد ما زالت عنه تلك المعاناة، إلا أنّ أحداً من بين الناس بعد فترة قال له: ما كنت تشكو شيئاً، وإنما الطبيب عاجلك علاجاً نفسياً، وحدثه بكل ما فعله الطبيب، فقال: لذلك أنا أحس بالوجع ما يزال في رأسي، وأخذ بعد ذلك يسهر ليله مما يحس من الوجع الوهمي، ويبيكي، ويقول ما يزال المسمار موجوداً في الرأس "١

(١) الإنسان بين الحقيقة والأوهام، الشيخ الخليلي، ٨٥/أ

كيف يعالج المريض بالمس أو السحر؟

لا ريب أنَّ المريض المصاب بشئ من المس أو نحوه قادر أن يعالج نفسه بنفسه، فعليه أن يعود الى الله تعالى، ربه ورب كل شئ، الذي لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء، بالدعاء وبتلاوة القرآن الذي لا تستطيعه البطلة، فما بال الناس يتعامون عن ذلك؟ يقول سباحته: "أصبح الناس يتصورون الآن تصورات عجيبة، جاءني اتصال من امرأة في قضية معينة، وتعلق في أمر لا يملك أحد أن يحقق فيه منفعة أو أن يدفع فيه مضرة، فأجبتها، وآخر الأمر تقول على من تدلني؟ فقلت لها: أدلك على الله العليم الخبير، السميع البصير، الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، الله سبحانه وتعالى هو الذي يصرف الوجود.

فما للناس وهم لا يقتنعون بهذا، إن دلوا على الله تبارك وتعالى اشمأزوا، هذه عادة جاهلية ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾^(١) تشمئز نفوسهم من دلالتهم على الله سبحانه وتعالى، ويعتقدون في البشر تحقيق المنافع ودفع المضار، هذه لوثة عقدية خطيرة جداً، وعلى الناس أن يتقوا الله، وأن يدركوا المعتقد الصحيح، أن يعرفوا المعتقد الصحيح ويلتزموه، وعليهم أن يتداركوا أنفسهم لإنقاذها من هذه الورطة، والله تعالى المستعان^(٢).

ويقول سباحته في موضع آخر: " فالمسلم يؤمر أن يتقي الله في جميع أحواله، أن يتقي الله عندما ينام، وأن ينام على طهارة، وأن يتقي الله عندما يستيقظ، وأن يستيقظ على نية خالصة ترضي الله وتعالى، وأن يذكر الله قبل نومه، وأن يذكر الله عند يقظته، وأن يذكر الله تعالى في جميع أحواله، استجابة المسلم لذكر الله تبارك وتعالى في أحواله المختلفة سبب لوقايته من هذه

(١) سورة الزمر، الآية ٤٥

(٢) سؤال أهل الذكر ١٦ من ذي القعدة ١٤٢٣ هـ، ١٩/١/٢٠٠٣ م

الشرور، ومن الأوهام ومن هذه الخيالات، فليكثر الناس من ذكر الله تبارك وتعالى لتطمئن قلوبهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَذْكُرِ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١) والله تعالى الموفق^(٢).

وعلى المسلم أن يحافظ على الأذكار والأوراد وإن قلَّت، وليعتمد على الثابت عن رسول الله ﷺ كما أورده العلامة المحدث الشيخ سعيد بن مبروك القنوبي - حفظه الله - في تحفة الأبرار، ولساحة الشيخ الخليلي رقى شرعية، أوردها هنا لكل محتاج، وكلنا محتاج إليها لدفع وساوس الشيطان ونفثاته.

(١) سورة الرعد، الآية ٢٨

(٢) سؤال أهل الذكر سؤال أهل الذكر / ١ رجب ١٤٢٣ هـ - ٨/٩/٢٠٠٢ م

الرقى الشرعية لسماحة الشيخ الخليلي

- تقرأ في كل صباح وكل مساء ما يأتي:

سورة الفاتحة	(٧) مرات
آية الكرسي	(٧) مرات
سورة الانشراح	(٧) مرات
سورة الإخلاص	(٧) مرات
سورة الفلق	(٧) مرات
سورة الناس	(٧) مرات

وبعد كل مرة تنفث في يديك، ثم بعد فراغك من جميع القراءة تمسح بيدك جميع جسدك، وأنت تقول :

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أعوذ بالواحد الصمد من شر كل ذي حسد، أعوذ بكلمات الله التامات، من شرِّ ما خلق، أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما أُجد وأحاذر، أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعذابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَآلِ آخِرَةَ هُمْ يُؤْفِقُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ النَّارُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٥٧﴾

لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۗ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِيصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۗ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

آيات تقرأ في الصباح والمساء

{ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } (٥١) سورة

التوبة

{ وَإِن يَمَسِّنْكَ اللَّهُ يَضْرُ فَلَا تَحْسِبْ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ } (١٧) سورة الأنعام

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلِّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } { هود ٦٠ }

{ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } { هود ٥٦ }

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } { العنكبوت ٦٠ }

{ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } { فاطر ٢ }

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } { الزمر ٣٨ }

خمس آيات تقرأ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ هُمْ أَعْتَبْنَا لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } { البقرة ٢٤٦ }

{ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونُوا عَدَّابِ الْحَرِيقِ } { آل عمران ١٨١ }

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا لِرِيقٍ مِنْهُمْ يُخِشَمُونَ نَاسٌ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } { النساء ٧٧ }

{وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتَتَلَكَ قَالَ إِنَّمَا يُتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } المائدة ٢٧

{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } الرعد ١٦

التداوي بلعب الزار

الزار لمن لا يعرفه مصطلح يدل على اجتماع نفر من الغواة من البشر الذين يجمعهم الهوى، وقرع الطبول على أن يكون هذا الاجتماع في جنح الليل، بعيداً عن المنازل، أمّا في قلب الصحراء أو بين الجبال، وللطلب قرعة معروفة مميزة عن سائر الضربات على الطبول، فيقال أحيانا "هذة ضربة زار" وهناك يأكلون ويشربون ويغنون، وتنزل عليهم الشياطين من الإنس والجن، ولعل هذا المصطلح أخذ من "الزيران، أو العكس، والزيران هم الجن الذين يسكنون في الإنسان حسب زعمهم، وينزلون من رأسه في حالات الشدة والضيقة، بعد أن يقوم الإنسي ببعض الحركات الغريبة، من شم بخور اللبان، ثم يأخذ في التلويح بيديه، وهز رأسه بعنف، وإخراج بعض الأصوات العجيبة، ثم بعد ذلك يسلم الجنى على الحاضرين، ويسأل عن سبب مضايقة صاحبه الإنسي، أو تشخيص حالته، أو أنه جاء لتجذته، وما شابه ذلك، وبعد أخذ ورد ينصرف عنهم مخلفا جملة من الوصايا والتوجيهات، وأحيانا الطلبات.

وجلسة الزار آفة الذكر يلتقي فيها أمثال هؤلاء المملوكين أو المسكونين من الجن بزعمهم، أي أصحاب الزيران بسبب إلحاح من الجن عليهم، وقد يأخذ بعض الجهلة الغوغاء بعض نساتهم اللاتي يزعمون أنهن مريضات للتداوي عند هؤلاء المهلوسين حال عربدتهم تلك، وقد تكون تلك النساء

استحوذ عليهن الجن أيضاً، أي بهنَّ زيران، فيطربن ويكشفن عن شعورهن، وصدورهن، من عظم النشوة والطرب، وربما أدى الأمر إلى الفجور بهن من قبل أولئك الرجال، مدعين أنهم في غير حالتهم الطبيعية، بل في حالة غيبوبة من الوعي والإدراك، بسبب حضور الجن، وأن الإنسي مغيبٌ تلك اللحظات.

أما كيف يحصل العلاج والتداوي؟ فالجواب : إن ذلك الجني - حسب اعتقاد هؤلاء - هو الذي كان يؤذي الإنسان، ويسبب له الأمراض، فهو يريد منه حضور هذا المجلس، فإذا حضر وطرب، وفسق ولعب، وفجر وكفر، رفع عنه الأذى والمرض، وذلك حسب، وإن أبقى الحضور، ورفض الانصياع لرغبات الجني الساكن فيه، بقي على مرضه، ولا يخفى ما في هذا الاعتقاد من لوثة عقلية، لذا ينبه سماحته إلى ذلك قائلاً: "هذه الظاهرة هي من دلائل البعد عن الإيمان الحق، وعدم التعلق بالله، وعدم الصلة بالقيم الإيمانية التي تجعل الإنسان يثق كل الثقة أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، فالدنيا دار كدر، وقد صدق الشاعر حين يقول:

جبلت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقدار والأكدار

فكل نعمة من نعمها مشوبة بالكثير الكثير من الأكدار، فالصحة مهددة بالسقم، والغنى مهدد بالفقر، والشباب يعقبه الهرم، إن أنسى الإنسان في عمره، والقوة يليها الضعف، وهكذا، فهذا الذي يصيبه المرض هو موعود بالأمراض، والله يبتلي من يشاء بما يشاء، ابتلى الله النبيين وهم صفوته من خلقه، أصيبوا بالأمراض، وابتلوا بما ابتلوا به من أنواع البلاء، فنبى الله تعالى أيوب - عليه السلام - ابتلى ببلاء في بدنه، ونبى الله تعالى يعقوب عليه السلام ابتلى بافتقار ولده، حتى أدى به الأمر أن اشتد عليه الحزن، فابيضت عيناه من الحزن، فكيف مع هذا يقول الإنسان بأنه يحرص على أن يبقى صحيحاً غير مبتلى بأي مرض من الأمراض؟ على الإنسان إذا مرض أن يصبر، وعليه أن

يسلك الطريق السوية التي فيها علاج هذا المرض، وأن يشعر في سلوكه هذه الطريق بأنه يستعين بالله سبحانه وتعالى، أما أن يستعين بالشياطين كما هو حال أهل الزار، فذلك ليس من الإيمان في شيء، فهؤلاء كفروا بالله وآمنوا بهؤلاء، فالله تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(١) فإن شعر بعضهم ببعض الراحة فذلك من باب الاستدراج، ومن الفتنة التي يفتنون بها في الحياة الدنيا، إن ذلك من باب الكفر"^(٢)

اللجوء إلى القبور والعيون والأنهار ونحوها

يكون ذلك إما للتداوي من المرض، أو لطلب النفع، ولدفع الضرر النازل أو المتوقع، وهو سمة من سمات الجاهلية القديمة، وهو نحت في صميم العقيدة الإسلامية، حين تكون الاستعانة بغير الله سبحانه وتعالى.

لقد نبه سماحته إلى خطورة هذا المسلك في الكثير الكثير من المواضع، داعياً المسلمين أن يجاربوا البدع والخرافات، التي تخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ^(٣) وأنقل هنا أربعة نصوص في أربعة مواضع من توجيهات سماحته في محاربة هذه البدع، يقول:

١ - " وبهذا تدرك خطورة ما يصنعه كثير من الناس من التعلق بغير الله سبحانه وتعالى في طلب الحاجات التي لم يجعل الله قضاءها بيد الناس، والأعجب من ذلك أن يأتي أحدهم إلى ضريح، طالباً من صاحبه الميت البالي

(١) سورة الرعد، الآية ١٦

(٢) سؤال أهل الذكر

(٣) المعتدة، الشيخ الخليلي، ص ١٢

أن يعينه على ما لا يستعان عليه إلا بالله، أو يأتي إلى صحرة صماء، أو شجرة، أو نهر، أو أي شيء من هذا القبيل، طالباً منه ذلك، مع أن هذه الأشياء لا تسمع ولا تبصر ولا تحس ولا تعقل، وإذا كان النبي ﷺ وهو أكرم الخلق منزلة وأعظمهم شأنًا يقول له سبحانه في حياته: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(١) فما بالك بغيره ﷺ^(٢) " (٣)

٢ - " أمّا أن يقول أحد لغيره من البشر ارزقني مالا، أو اجعلني من السعداء، أو اجعلني من الأذكىء، أو ارزقني ذرية، أو نحو ذلك من الأمور التي لم يجعل الله تعالى لأحد سلطاناً عليها، فذلك من الشركات والعياذ بالله، وإذا كان هذا في الإنسان الحي المتكلم الواعي البصير فما بالكم بالاستعانة بالأموات، أو الاستعانة بالأحجار، أو الاستعانة بالعيون والأنهار، هذه الأشياء كلها لا تصح الاستعانة بها؛ لأنها لا تملك للإنسان نفعاً ولا ضرراً، وتفشى ظاهرة طلب قضاء الحاجات من هذه الأشياء دليل على ضلال العقول، وانحراف الفطرة، وقد كان ذلك من سمات الجاهلية الحمقاء التي جاء الإسلام الحنيف لا تستصاها" (٣)

٣ - " فما دام الإنسان يعتقد بأن الله سبحانه هو وحده موجد هذا الوجود، والقاهر لكل موجود، فلماذا يلجأ إلى غيره عز وجل طالباً قضاء حاجة، وطالبا تحقيق منفعة، أو دفع مفسدة في الأمور التي لم يجعل الله سبحانه وتعالى التعاون فيها بين الناس من سنن الحياة ونواميس الكون، فإن إتباع الأسباب إنما هو إتباع لسنن الله، أمّا أن يأتي أحد إلى ميت في القبر، فيطلب منه الغوث والنصر، والتأييد والرزق، أو أن يأتي أحد إلى شجرة أو عين، أو إلى نهر أو إلى مسجد باعتبار أن المسجد هو الذي يحقق له تلك

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٨

(٢) جواهر التفسير،، الشيخ الخليلي، ٢٥٩/١،

(٣) العبادة وأثرها،، الشيخ الخليلي، ٥٤/١

المنفعة، أو يحمل باكورا (عصا) إلى مكان معين يعتقد أن فيه جِناً بإمكانه أن يدفع عنه المضرة، فهذه كلها وثنيات حاربها الإسلام. ماذا عسى أن يجدي الميت؟! إن الميت نفسه هو أحوج إلى الحي من حاجة الحي إلى الميت" (١)

٤ - جاءت الآيات الكثيرة في كتاب الله سبحانه ناعية على المشركين الذين كانوا يتخذون مع الله آلهة أخرى، فيتقربون إلى تلك الآلهة بالقرابين والنذور وغيرها، ويشركونها في عبادة الله، ويعتقدونها وسائط بينهم وبينه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخِذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٣)

ونجد الآيات الكثيرة دالة على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرفع الضراء، وهو الذي يتبلى من يشاء بما يشاء، فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٤)، وقال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥)، وهكذا تتوالى الآيات لأجل أن تبلور العقيدة الصحيحة، والفكر السليم الذي يصل بين العبد وربّه سبحانه وتعالى من غير أن تكون بينهما واسطة، وهذا يعني حرمة أن يتقرب الإنسان بنذر أو قربان

(١) صفات الله تعالى، ص ١٦، ١٧

(٢) سورة الرعد، الآية ١٦

(٣) سورة الزمر، الآية ٣٨

(٤) سورة التوبة، الآية ٥١

(٥) سورة فاطر، الآية ٢

أو أي شيء مما كان إلى غيره تعالى ، كأن ينذر لعين، أو ينذر لشجرة، أو لـحجرة، أو لأي شيء كان .

ونجد من العلماء من بنى حكمه على أن ذلك شرك بالله سبحانه وتعالى عندما قال: بأن من فعل ذلك وعنده امرأة مسلمة صارت المرأة حراماً عليه؛ لأنه في حكم المرتد عن الإسلام ، ومعنى ذلك أنها تخرج من عصمته إلا إن تاب ورجع إلى عقيدة الإسلام، وتبرأ من هذه العقيدة الزائفة التي يعتقدها في الأشجار والأحجار، وهذه الأمور كلها .

وأنا أعجب كيف لا يفكر هذا الإنسان في أن هذه الكائنات بأسرها لا تملك منفعة، ولا دفع مضرة عن نفسها، فكيف تستطيع أن تحققه لغيرها !! .

لا يختلف اثنان من العقلاء أن النبي ﷺ هو أفضل مخلوقات الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك فإن الله تبارك وتعالى يقول له: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ (١) هذا مع أن النبي ﷺ عندما أمر بأن يقول ذلك كان إبان حياته، وملء ثيابه ، فكيف بغيره ﷺ ؟ بل كيف بالأموات في القبور؟ وكيف بالأشجار والأحجار وغيرها؟. فهذه القضية في منتهى البلاء " (٢)

الاعتقادات المنحرفة في الأنبياء والملائكة

لقد أصيب بعض المسلمين - جرأ الروايات الباطلة - بها أصيبوا به من الاعتقادات الفاسدة في أنبياء الله ورسله، ، لذا حرص سماحته في مواضع عدة على لفت الانتباه إلى هذه القضية المهمة، التي ربما كان من أسبابها تعطيل العقل في نقد الروايات، وتقديس كل ما هو مكتوب، يقول سماحته: " إن الكثير من هذه المرويات جاءت في ما يتعلق بتفسير الآيات التي تتناول

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٨

(٢) سؤال أهل الذكر غرة رمضان ١٤٢٤ هـ، ٢٧/١٠/٢٠٠٣ م

قصص الأنبياء، فإذا بها تنقص من قدر هؤلاء الأنبياء، وتصورهم شهوانيين لا هم لهم إلا السعي وراء شهوات أنفسهم، وهذا غير بدع إذا نظرنا إلى مسلك اليهود، فإنَّ اليهود إنما ألصقوا بأنبياء بني إسرائيل الكثير من المرويات التي شوّهت صورتهم، حتى اتَّهم قالوا في بعض النبيين بأنه زنى بابتته، هذا نسبوه إلى لوط - عليه السلام - وقالوا: إنه كان في حالة سكر، وزنى بابتته، وحملت منه، ونسبوا إلى الكثير من أنبياء بني إسرائيل من ذرية يعقوب - عليه السلام - ما نسبوا إليهم من الضلال، وقد صدق الناس مرويات بني إسرائيل، وقد دخلت هذه الروايات في تفسير القرآن الكريم، ومن ذلك ما نسب - على سبيل المثال - إلى نبي الله داود - عليه السلام - من أنه عشق امرأة، وبعث بزوجها في سرية من أجل أن يقتل، حتى يتمكن من الزواج بتلك المرأة، وهذا مما تداوله المفسرون كثيراً، وهو بطبيعة الحال من الغزو الفكري، ومع هذا فإنَّ الله تبارك وتعالى وصف نبيه داود - عليه السلام - بأحسن الصفات التي تبرأه من هذا الذي نسب إليه.

كذلك نبينا ﷺ على عظم قدره وعلو شأنه وُصف في الكثير من هذه الروايات التي جاءت، ومما يؤسف له أنَّها جاءت في الصحاح، وصف بأوصاف لا تدل إلا على الهمجية، وعلى الشهوانية، فمما يؤسف له أن نجد في صحيح البخاري أنَّ النبي ﷺ عندما كان يشارك قومه في بناء البيت الحرام ويحمل الحجارة على كتفه، لم يجد ما يتقي به، فأشار عليه عمه العباس - رضي الله عنه - أن يخلع إزاره ويتقي به، فخلع إزاره وكان بادي العورة أمام الناس، وأمام بيت الله الحرام، ثم انتبه بعد ذلك وخر مغشياً عليه، من يصدق هذه الرواية ولو جاءت بأصح الأسانيد كما يزعمون؟ من يصدق أنَّ النبي ﷺ الذي يصفه الله بأنه على خلق عظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ يصل به الأمر بأن يرضى أن يبدي عورته؟ ذلك الشيء الذي لا يرضاه حتى أولئك الذين يعيشون في الأدغال، أبعد ما يكونون عن الحضارة وعن القيم الإنسانية، فضلاً عن القيم الدينية، من الذي يصدق هذا؟؟

وكذلك ما نسب إليه صلوات الله وسلامه عليه كما جاء في صحيح مسلم، أنه نما إلى علمه بأن ابن عم جاريته مارية يواقعها، فأمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يذهب إليه ويقتله على الفور، هذا أمر لو نسب إلى جبار من جبابرة الأرض لكان ملوماً، وقالوا بأن علياً ذهب والسيف في يده، ووجد الرجل يستحم في ركوة ماء، فأمسك بيده وأخرجه من الركوة من أجل أن يقتله، وإذا به يسقط إزاره ويتبين أنه محبوب، ليس فيه ذكر، فرجع علي إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر فأمره النبي ﷺ بالكف عنه، من الذي يصدق هذه الرواية؟

هل النبي ﷺ جبار يأخذ الناس بالظنة بمجرد أن ينسب إلى أحد أنه يفعل هذا الأمر، يأمر أحداً بقتله، مع أن مجيء هذه الجارية إليه كان بعد وقوع قصة الإفك عند أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، وقصة الإفك فيها درس لأي أحد، فلو كان النبي ﷺ رجلاً عادياً، ولم يكن رسولاً مرسلًا من قبل الله سبحانه وتعالى، لكفته قصة الإفك درساً حتى لا يتجرأ مثل هذا التجرؤ.

ثم من ناحية أخرى هل يكون النبي ﷺ أغير على جاريته منه على زوجه أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها؟ فلماذا عندما نُمي إلى ما نُمي، وتحدث الناس بما تحدث به من أن رجلاً صارت علاقة بينه وبين أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وبرأها الله من ذلك، لماذا لم يأمر بقتل ذلك الرجل في ذلك الحال؟ هذا مما يدل على أن هذه الرواية ليست صحيحة، ولا يمكن أن تقبل، ومع الأسف جاءت في صحيح مسلم معزوة إلى أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه - إلى غير ذلك من الروايات.

وكذلك نسب إلى النبي ﷺ كما جاء في تفسير ابن جرير الطبري، بأنه أبصر امرأة زيد، وكانت عليها ثياب رفاق، فاستبد جماها بقلبه، وسرى حبها في أعماق نفسه، فلم يتمالك، وخرج وهو يقول: سبحان مقلب القلوب،

وقالوا بأن هـواه بها، وتعلقه بها، هو المعني بقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَتُحْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾، من أين ذلك؟ وهل يليق هذا بالنبي ﷺ؟ هل يليق برجل مؤمن عادي أن يذهب إلى بيت إنسان ويمتد نظره إلى ما في داخل حرمه حتى يرى امرأته بالثياب الرقاق؟ ويأخذ جماها بشعاب نفسه؟ ويستبد حبها بقلبه؟ هل يمكن أن يليق ذلك برجل مؤمن عادي فضلاً عن أن يكون نبياً مرسلأ من عند الله تبارك وتعالى عصمه الله، مع أن المراد بقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَتُحْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ أنه كان يأمر زوجها زيدا بأن يستمسك بها ويقول له (أمسك عليك زوجك) مع أنه يعلم بأن الله تعالى كتب له أن يتزوجها، فعلى أي حال هذا من جملة الغزو الفكري الذي سرى إلى هذه الأمة . ومن جملة الأمور التي ألصقت بالنبين، ولا ريب أن هؤلاء النبين قدرهم عال، وشأنهم عظيم، وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يقتدي بهم عندما قال بعد ذكرهم ﴿ فَبُهِدْنَهُمْ أَقْتَدِهِ ﴾ فعلى أي حال من يقرأ عنهم مثل هذا الذي كتب عنهم من هذه السفاسف الدنية، ألا يجد في ذلك ما يشجعه على الوقوع الفحشاء والانحراف عن سواء الصراط، هذه من جملة الغزو الفكري الذي أصيبت به هذه الأمة في صميم عقيدتها؛ لأن نزاهة النبين وعفتهم إنما ذلك من صميم عقيدة هذه الأمة.

وكذلك ما ألصق بالملائكة، فقد نسبوا إلى الملائكة ما نسبوا بأنهم كان بينهم وبين الله تبارك وتعالى ما كان ، وأن الله عز وجل أمرهم أن يختاروا ملكين، هما من أكثر الملائكة عبادة وأكثرهم خشية لله تبارك وتعالى، فأنزلهما إلى الدنيا، ولما أنزلها إليها ابتلاءً وركب فيهما الشهوة جاءتها امرأة تشكو إليهما زوجها، فكان منهما أن راوداها، فاشترطت عليهما أن يسجدا للصنم، وأن يشربا الخمر، وأن يقتلا زوجها، ففعلا كل ذلك، ثم بعد ذلك نالهما من العذاب ما نالهما، إلى آخر ما نسب إليهما مما هو أبعد ما يكون عما وصف الله تبارك وتعالى به الملائكة في كتابه ، فالله تعالى يقول فيهم: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ

مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٣١﴾ ويقول: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٣٣﴾

نعم لقد أصيبت الأمة في الصميم، وإذا أصيب الصميم فماذا بعد ذلك؟ أيبقى من روحانية العبد شيء؟ أيبقى من دينه شيء غير شكليات ومظاهر زائفة؟ ثم لا تلبث تلك المظاهر أن تتلاشى وتضمحل شيئاً فشيئاً، حتى يعلو الران قلبه، إلا أن يتداركه اللطيف الخبير برحمة من عنده جل في علاه، إنه وسع كل شيء رحمة وعلماً، نسأل الله السلامة والعافية.

بهذا ينتهي الجزء الثاني من معالم الفكر التربوي عند سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، ويليه الجزء الثالث بمشيئة الله تعالى في التربية الفكرية والسلوكية، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

(١) سورة التحريم، الآية ٦

(٢) محاضرة في جامع نزوى يوم الأربعاء الرابع من شهر رجب ١٤٢٣هـ، الموافق ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ م .

الملاحق

جدول محاسبة النفس الشهري

صور تذكارية لسماحة الشيخ الخليلي

صور تذكارية لسماحة الشيخ الخليبي



سماحة الشيخ الخليبي ويقف على يمينه الشيخ أبو الحسن النذوي وعلى يساره الشيخ أحمد بن سعود السيابي



سماحة الشيخ الخليبي وعلى يمينه د. ثروت عكاشة ثم الشيخ محمد الغزالي



حديث ودي على هامش أحد المؤتمرات



سماحة الشيخ الخليلي في لقاءات على هامش المؤتمر



سماحة الشيخ الخليلي في أحد المؤتمرات الخارجية





سماعته يلقي كلمة الوفود في الأردن بمناسبة إعمار المسجد الأقصى

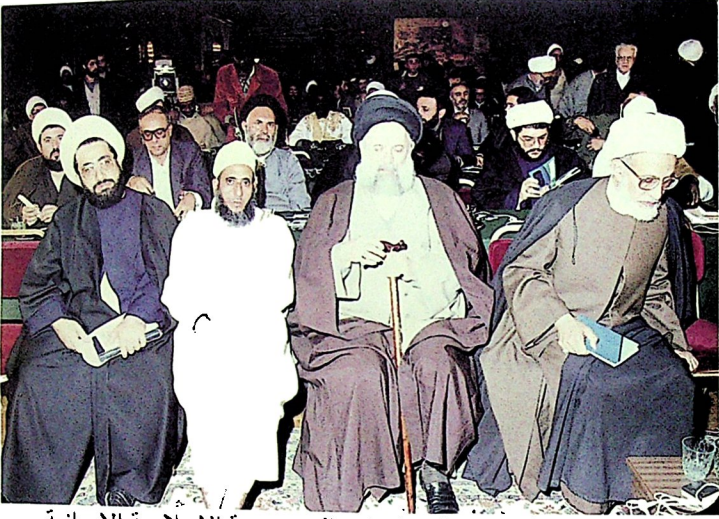


سماعته يلقي كلمته في إحدى الندوات المنعقدة في مسقط



سماعته في المؤتمر المنعقد في البحرين وعلى يساره د. سعيد العبري





سماعته في المؤتمر المنعقد في الجمهورية الإسلامية الإيرانية



سماحة الشيخ الخليفي في لقاءات على هامش الندوة



سماحة الشيخ الخليبي في تنزانيا



سماحة الشيخ في تنزانيا



الشيخ يضع حجر الأساس لمشروع بناء مسجد بمنطقة "كونزا" بتنزانيا



سماعته يؤدي صلاة الجمعة



سياحته يلقي محاضرة لأبنائه طلبة معهد العلوم الشرعية



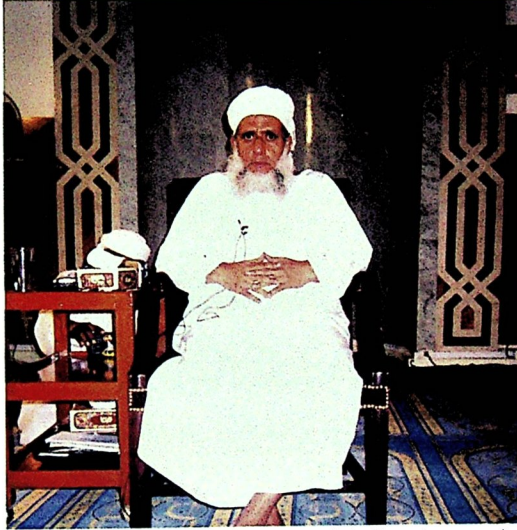
سماحته يستقبل ضيوفه في بيته من طلبة المعهد والإداريين



سماحته في زيارة لمعهد العلوم الشرعية و على يمينه المدير العام للمعهد ثم على يمينه الشيخ عاشور و على يسار سماحته أ. د . محمد الزيني



سماحته في لقاء صحفي بمكتبه و على يساره الصحفي سيف الخروصي



سماعته بجامع السلطان قابوس قبيل إلقاء درس التفسير



سماعته يلقي درس التفسير كعادته كل ثلاثاء



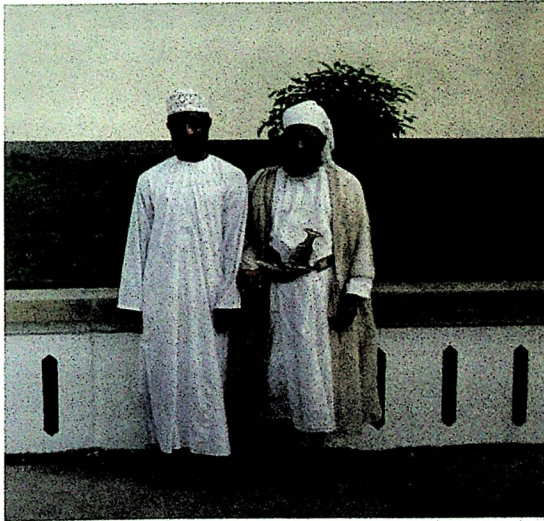
سماعته في زيارة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة



سماعته في زيارة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة



سماعته مع ضيوفه في مجلس داره



سماعته مع ولده خليل



سماعته يتحدث مع الشيخ حمود بن حميد الصوافي



سماعته في زيارة للشيخ حمود بن حميد الصوافي



سماعته وعلى يمينه الشيخ سالم بن حمد الحارثي ثم على يمينه الشيخ سعيد بن خلف الخروصي ثم على يمينه الشيخ سعيد بن مبروك القنوبي

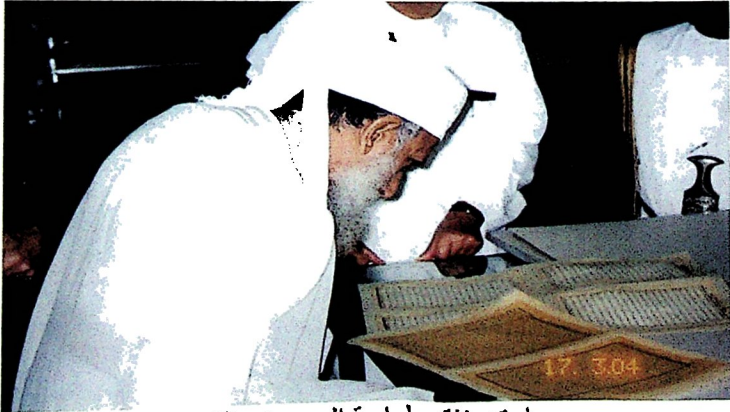


سماعته يشارك في مؤتمر بالملكة الأردنية الهاشمية

عند الشيخ أحمد الخليلي



سماعته يتفقد معرضاً للوحات فنية كتابية من القرآن الكريم



سماعته يتفقد طباعة المصحف الشريف



سماعته في مدخل مجلسه العامر



المراجع

أولاً: الكتب

١. الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريك، تعريب شفيق أسعد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٩م.
٢. برهان الحق في تأصيل العقيدة الإسلامية ودرء الشبه عنها بالأدلة العقلية والنقلية، الشيخ أحمد الخليلي. مخطوط في طريقه إلى الطبع.
٣. الجملة وتفسيراتها. الشيخ أحمد الخليلي. مكتبة الاستقامة
٤. جواهر التفسير. الشيخ أحمد الخليلي. مكتبة الاستقامة. ط ١، ١٩٨٦م.
٥. الحساب والعدل الإلهي. الشيخ أحمد الخليلي.
٦. الدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين. محمد عثمان نجاتي. دار الشروق، القاهرة ط ١، ١٩٩٣م.
٧. ديوان أبي مسلم البهلاني
٨. السلوك وبناء الشخصية " د. إبراهيم محمد السرخسي. ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م
٩. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر بيروت.
١٠. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تح محمد أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١١. سنن الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، ت فواز أحمد زمزلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ.

١٢. سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، مكتبة الفمطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
١٣. الشخصية السوية . سيد عبد الحميد مرسي . مكتبة وهبة ، القاهرة، ط١١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م
١٤. صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري، تح مصطفى ديب البغا، دار اليمامة ، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧ /
١٥. صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٦. صفات الله تعالى . الشيخ أحمد الخليلي.
١٧. صفوة التفاسير، محمد بن علي الصابوني. دار القلم ، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م
١٨. العبادة وأثرها. الشيخ أحمد الخليلي.
١٩. علم النفس الإرشادي ، صالح حسن الداھري ، دار وائل للنشر، الأردن، ط١، ٢٠٠٥م.
٢٠. علم النفس التربوي . أحمد زكي صالح : مطابع النهضة المصرية . القاهرة ط ١٠ / ١٩٧٢م
٢١. علم النفس التربوي في الاسلام.. مقداد بالجن، د. يوسف القاضي. دار عالم الكتب، الرياض ط٢، ١٤١٨-١٩٩٧م.
٢٢. علم النفس العام. عبد الرحمن عيسوي . دار النهضة العربية ، بيروت، د.ت.

٢٣. علم النفس العام. خليل ميخائيل معوض، مركز الإسكندرية للكتاب، ط١، ٢٠٠١م.
٢٤. علم النفس في القرآن الكريم. سعد رياض، مؤسسة اقرأ. القاهرة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م
٢٥. عوامل تقوية الوحدة. الشيخ أحمد الخليلي.
٢٦. وكشف الخفاء، إسماعيل بن محمد الجراحي.
٢٧. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي بن حسام الدين الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.
٢٨. مبادئ علم النفس، محمد بن يونس. دار الشروق. الأردن، ط١، ٢٠٠٤م.
٢٩. محددات السلوك الإنساني والتنظيمي. عبدالله بن حمدان الدهماني ط١، مسقط، ١٤١٠هـ / ١٩٩٩م.
٣٠. مدخل إلى علم النفس. سهير كامل أحمد، مركز الإسكندرية للكتاب، ط٢، ٢٠٠٠م.
٣١. المدخل العام إلى دراسة العقيدة، الشيخ أحمد الخليلي. مكتبة الاستقامة.
٣٢. مسند أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة.
٣٣. المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبدالله الحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
٣٤. مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعائي، تح حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٣٥. معاني القرآن ، يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب ، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

٣٦. المعتدة . الشيخ أحمد الخليلي.

٣٧. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، تح طارق بن عوض الله، وعبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٣٨. من علم النفس القرآني. عدنان الشريف. دار العلم للملايين . بيروت. ط٤، عام ٢٠٠٠م

٣٩. وحي المنابر. الشيخ أحمد الخليلي.

ثانياً: أشرطة محاضرات سباحته

أثر الإيمان بالغيب في الخوف من وعيد الله

أثر المعنويات في الإسلام

الإخلاص ٢١/أ

الأحداث الراهن ، ١٥١٦/أ

الألم المعاصر، إصدار مكتبة المشارق

أمراض القلوب ٤٨٠ / أ

إن في ذلك لعبرة، الشيخ الخليلي،

الإنسان بين الحقيقة والأوهام ١/٨٥

آيات الله في الإنسان، الشيخ الخليلي، ٣٩٠ / أ

الإيمان مفهومه وتطبيقاته ج ١، ٦٥/ج

الإيمان مفهومه وتطبيقاته ج ٢ ، ٦٥ / ج

الإيمان وحقيقته ، ٢ / ج / أ

الإيمان بالقدر ٤٤ / ج / أ

الإيمان باليوم الآخر ٤١ / ج / أ

الإيمان باليوم الآخر ج ١ ، ٣٢ / ج / أ

الإيمان باليوم الآخر ج ٢ ، ٣٢ / ج / أ

تزكية الأنفس ٢٧٣ / أ

تصحيح مفاهيم خاطئة ١١٨ / أ

تطهر القلوب ٤٨٠ / أ

تفسير سورة العصر

تفسير قوله تعالى: " أفمن اتبع رضوان الله " بتاريخ ٢ صفر ١٤٢٥ ،

٢٣ / ٣ / ٢٠٠٤ م

التوبة ٣٣٧ / أ

جزيرة جربة ، الشيخ الخليلي ٨٣ / أ

الحياة البرزخية ٢٤ / ج / أ

خطبة الجمعة بتاريخ ١-٢-١٤٠٣ هـ

الخطوات العملية لإبراز الشخصية، الشيخ الخليلي، ٣٩٢ / أ

الدين الحق، الشيخ الخليلي

رسالة إلى الشباب المسلم

- سؤال الذكر ٢٦ / رمضان ١٤٢٤هـ - ٢١ / ١١ / ٢٠٠٣م)
- سؤال أهل الذكر ٢٧ رمضان ١٤٢٤هـ
- سؤال أهل الذكر خلفه ١ / رجب / ١٤٢٣هـ / ٨ / ٩ / ٢٠٠٢م
- سؤال أهل الذكر ، ٥ ربيع الأول ١٤٢٥هـ ، ٢٥ / ٤ / ٢٠٠٤م
- سؤال أهل الذكر ١٥ / ربيع الأول ١٤٢٥هـ - ٢٥ / ٤ / ٢٠٠٤م
- سؤال أهل الذكر ١٦ من ذي القعدة ١٤٢٣هـ / ١٩ / ١ / ٢٠٠٣م
- سؤال أهل الذكر ١٧ / رمضان / ١٤٢٣هـ / ٢٣ / ١١ / ٢٠٠٢م
- سؤال أهل الذكر ١٩ رمضان ١٤٢٤هـ / ١٤ / ١١ / ٢٠٠٣م
- سؤال أهل الذكر ٢٤ / شوال ١٤٢٣هـ / ٢٩ / ١٢ / ٢٠٠٢م
- سؤال أهل الذكر ٢٦ / رمضان ١٤٢٤هـ - ٢١ / ١١ / ٢٠٠٣م)
- سؤال أهل الذكر ٢٧ رمضان ١٤٢٤هـ - ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٣م
- سؤال أهل الذكر ٢٧ شوال ١٤٢٤هـ / ٢١ / ١٢ / ٢٠٠٣م
- سؤال أهل الذكر ٢٧ شوال ١٤٢٤هـ / ٢١ / ١٢ / ٢٠٠٣م
- سؤال أهل الذكر ٢٧ / رمضان ١٤٢٣هـ / ٣ / ١٢ / ٢٠٠٢م)
- سؤال أهل الذكر ٢٨ / رمضان / ١٤٢٤هـ / ٢٣ / ١١ / ٢٠٠٣م
- سؤال أهل الذكر ٣ رمضان ١٤٢٤هـ - ٢٩ / ١٠ / ٢٠٠٣م
- سؤال أهل الذكر ٣ رمضان ١٤٢٤هـ - ٢٩ / ١٠ / ٢٠٠٣م
- سؤال أهل الذكر ٣ من شعبان ١٤٢٣هـ الموافق / ٦ / ١١ / ٢٠٠٢م
- سؤال أهل الذكر ٣ / شعبان ١٤٢٤هـ - ٢٦ / ١٠ / ٢٠٠٣م

سؤال أهل الذكر ٣٠ شعبان ١٤٢٤ هـ - ١٠٢٦ / ١٠ / ٢٠٠٣ م

سؤال أهل الذكر ٦ / محرم ١٤٢٤ هـ / ٩ / ٣ / ٢٠٠٣ م

سؤال أهل الذكر ٧ / ربيع الآخر ١٤٢٤ هـ - ٨ / ٦ / ٢٠٠٣ م

سؤال أهل الذكر ٩ / جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ / ٢٧ / ٦ / ٢٠٠٤ م

سؤال أهل الذكر جمادى الثاني ١٤٢٥

سؤال أهل الذكر سؤال أهل الذكر ١ / رجب ١٤٢٣ هـ -

سؤال أهل الذكر غرة رمضان ١٤٢٤ هـ ، ٢٧ / ١٠ / ٢٠٠٣ م

سؤال أهل الذكر ١١ / رجب ١٤٢٣ هـ - ٨ / ٩ / ٢٠٠٢ م

الصبر، محاضرة لسماحته في نيابة سنوا.

صفات الله ٨ / ج / أ

الطريق إلى التقوى ١٠٣ / أ

العقل نور إلهي / ٢٠٨ ج

الفتور ٤٣٣ / أ

لقاء المؤلف بسماحة الشيخ

محاضرة في بلدة مجز ... صحار .. سبله العرب

محاضرة في جامع نزوى يوم الأربعاء الرابع من شهر رجب ١٤٢٣ هـ ، الموافق

١١ سبتمبر ٢٠٠٢ م .

معالم الجيل الواعد، الشيخ الخليلي ، إصدار المشارق

منهج إصلاح المجتمع / ١٠٤ ج

موضوع السحر . الشيخ أحمد الخليل . ١١٦ / ج

نحو تربية أفضل / ٣٧٦ / أ

وللاخرة خير وأبقى / ٢٥٠ / أ

اليوم الآخر / ١٣٣ / ج / أ

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١٣	التمهيد:
١٢	المبحث الأول الشيخ الخليلي روحانيا
١٧	رجل صقله الإيمان فتواضع لعباد الرحمن
٢٠	الشيخ الخليلي والحياة الدنيا
٢٣	الشيخ الخليلي والقرآن
٢٤	ألف العبادة وألفته
٢٧	أنوار الحكماء تسبق أقوالهم
٣٠	العلم غذاء خشيته وخشيته غذاء روحه
٣٥	المبحث الثاني : مفهوم الشخصية العام
٤٤	مميزات الشخصية الإسلامية
٤٧	المبحث الثالث: ملخص فلسفة سماحته في التربية
٥٥	مدخل إلى التربية الروحية
٥٧	مفهوم التربية الروحية
٦٠	أهمية التربية الروحية
٧٧	الفصل الأول: وسائل التربية الروحية المعنوية
٧٨	١ - الإيمان بالله تعالى
٨٠	- وسائل ترسيخ الإيمان في النفوس
٨١	- التفكير
٨٥	١- التفكير في خلق الإنسان
٩٤	٢- التفكير في المخلوقات المحيطة
١٠٥	٣- التفكير في الكون
١١٤	٤- التفكير في حوادث الدهر ونوائبه
١١٥	أ- قصص الماضين الغابرين

- ١١٦ - قصة قوم نوح عليه السلام
 ١١٩ - قصة عاد قوم هود
 ١٢٢ - قصة ثمود قوم صالح
 ١٢٤ - قصة قارون
 ١٢٧ ب - الحوادث المعاصرة
 ١٣٤ ٢- الإيمان بالغيب
 ١٣٤ - مفهوم الإيمان بالغيب وآثاره
 ١٣٦ - الإيمان بالملائكة
 ١٣٩ - الإيمان بالكتب
 ١٤٠ - الإيمان بالرسل
 ١٤١ - الإيمان باليوم الآخر
 ١٤٣ - الإيمان بالجزاء
 ١٤٥ أولاً: نعيم الجنة
 ١٤٦ - عظم قدر نعيمها
 ١٤٦ - سعتها
 ١٤٧ - الأشجار والأنهار والعيون
 ١٤٩ - مساكن الجنان
 ١٥٢ - لباس أهل الجنة
 ١٥٢ - الفرش والأثاث
 ١٥٣ - الطعام والشراب
 ١٥٦ - الحور العين
 ١٥٩ - الوصف الجامع لنعيم الجنة
 ١٦١ - حاول أن تتخيل نعيم الجنة
 ١٦٥ - عذاب النار
 ١٦٥ - الصراخ والخصام
 ١٦٦ - لباس أهل النار
 ١٦٧ - الطعام والشراب
 ١٦٩ - صنوف العذاب

- ١٧٢ - إياك والأمني الفارغة
- ١٧٧ الفصل الثاني: وسائل التربية الروحية العملية
- ١٧٧ ١- العبادة بأنوعها
- ١٧٨ - أثر العبادات الروحي
- ١٧٩ - أثر الصلاة في التربية الروحية
- ١٨٢ - كيف يتم الخشوع
- ١٨٧ - الهاتف المتنقل وأثره على الخشوع
- ١٨٩ - الزكاة والإنفاق في سبيل الله وأثرهما
- ١٩٢ - الصوم وأثره الروحي
- ١٩٥ - الحج وأثره الروحي
- ١٩٧ ٢- النوافل وأثرها الروحي
- ١٩٨ ٣- الإخلاص ملاك الأمر كله
- ٢٠٠ - التخلص من الرياء وأثره السلبي
- ٢٠٤ - التخلص من العجب والغرور
- ٢٠٧ ٤- التوبة من الذنوب
- ٢٠٨ - الآثار المترتبة على المعاصي
- ٢١٦ - شروط التوبة
- ٢١٧ ٥- التقوى
- ٢١٧ - حقيقة التقوى
- ٢١٩ - صفات المتقين
- ٢٢١ ٦- التحلي بالصبر
- ٢٢٣ ٧- التلاوة مع التدبر
- ٢٢٧ ٨- الخوف والرجاء والموازنة بينهما
- ٢٣٠ - كيفية استجلاب خشية
- ٢٤٤ ٩- التخلي عن الرذائل قبل التحلي بالفضائل
- ٢٤٥ ١٠- تطهير القلوب من الأمراض
- ٢٤٦ - أهم مرضين يصيبان القلب

- ٢٤٦ - الحسد
 ٢٤٨ - سوء الظن
 ٢٥١ - علاج أمراض القلوب
 ٢٥٥ ١١ - الخلوة والأوراد
 ٢٦٠ ١٢ - محاسبة النفس ومراقبتها
 ٢٦٣ - محاسبة النفس على بواطنها
 ٢٦٣ - محاسبة النفس على ظواهرها
 ٢٦٤ - المراقبة
 ٢٦٥ - المجاهدة ووسائلها
 ٢٦٦ ١٣ - التصور الصحيح للحياة الدنيا
 ٢٧٣ - تذكر الموت وغصته
 ٢٧٧ - تذكر القبر ووحشته
 ٢٨٢ ١٤ - التناصح والتواصي بالحق
 ٢٨٥ ١٥ - ترقيق القلوب بالمواعظ
 ٢٨٦ ١٦ - صحبة الصالحين
 ٢٩٠ ١٧ - زيارات الفقراء والمساكين
 ٢٩٢ ١٨ - الدعاء

مشكلات في طريق العقيدة

- ٢٩٣ - الأوهام المتعلقة بالسحر
 ٢٩٤ - هل يدخل الجنى بجسم الإنسان
 ٢٩٧ - حقيقة السحر والمسحورين في الجبال
 ٢٩٩ - الذهاب إلى العرافين
 ٣٠١ - استعانة المعالجين الروحانيين بالجن
 ٣٠٥ - أمراض من الجن أم مرض نفسي؟
 ٣٠٦ - كيف يعالج المريض بالمس أو السحر
 ٣٠٨ - الرقى الشرعية لسماحة الشيخ
 ٣١١ - التداوي بلعب الزار

- ٣١٣ - اللجوء إلى القبور والعيون والأنهار
٣١٦ - الاعتقادات المنحرفة في الأنبياء والملائكة
٣٢١ - الملاحق
٢٢٣ - جدول محاسبة النفس الشهري
٣٢٥ - صور تذكارية لسماحة الشيخ
٣٤٤ - المراجع
٣٥٢ - المحتويات

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٨٠

